

مصر

فى

عصرى الممالىك و العثمانىين

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) - (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ)

(١٢٥٠ - ١٥١٧ م) - (١٥١٧ - ١٧٩٨ م)

الأستاذ الدكتور

عبد العزيز محمود عبد الدايم

رئيس قسم الآثار الإسلامية

كلية الآثار - جامعة القاهرة

الناشر

دار نهضة الشرق

جامعة القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المصادر

شهدت الأمة الإسلامية أشرس هجوم حضارى تتعرض له أمه من الأمه خلال أكثر من قرنين من الزمان، وأقصد بذلك الهجوم الصليبي الذي شنته أوربا تحت اسم الصليب على غربى البلاد الإسلامية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، وهجوم المغول على شرقى البلاد الإسلامية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وكان هدف الجميع القضاء على الإسلام كدين وحضارة ومن المعروف تاريخياً أن الشعوب المناضلة كالشعب العربى الإسلامى التى ألفت الحرب والجهاد، واعتادت فى وطنها الأول حياة الخشونة والبداءة، هذه الشعوب كثيراً ما تتعرض للزيول عندما تتحول إلى حياة الإستقرار والإغراق فى الحضارة فتجذب لهاجمتها جيرانها الهمج الأقل تحضراً فيحاولون النفوذ إلى هذا الكيان الحضارى وتدميره للإنتقام لقصورهم فى هذا المضمار، ولتغطية عجزه النقص، وهذا ما يفسر ما يرد فى المصادر التاريخية عن محاولات البدو المتكررة النفوذ إلى الأماكن الأكثر تحضراً ومحاولاتهم تدميرها، وهذا ما حدث فى بلاد الإسلام خلال فترة إمتدت أكثر من ثلاثة قرون إذ هاجمتها أقوام أقل تحضراً، حاولت القضاء على شعوبها وحضاراتها ومعتقداتها ومنجزاتها، ولسوء الحظ نجحوا فى ذلك إلى حد ما، وكان نجاح المغول فى القسم الشرقى أكثر من نجاح الصليبيين فى القسم الغربى، لأن المسلمين فى غرب العالم الإسلامى كانوا أكثر تماسكاً فتمكنوا من طرد الغزاة والحفاظ على تراثهم الحضارى، فى حين عجز المسلمون فى شرق العالم الإسلامى عن الوقوف بوجه المغول، لعنف هجومهم وقسوتهم، وعجز وجود قيادة موحدة تجمع شملهم فدمرت معالم حضارتهم، ولم تعد الحياة إلى تلك

المنطقة إلا تدريجياً وبعد فترة طويلة نسبياً من الزمن.

ونتيجة لهذه الأحداث التي أصابت أنحاء العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول وفي الأندلس على أيدي الصليبيين فضلاً عما أصاب بلاد الشام من أضرار عنى أيدي الصليبيين والمغول جميعاً لم يجد علماء المشرق والمغرب بلداً أمنياً تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التي غدت "محل سكن العلماء ومحط رحى الفضلاء" كما يقول السيوطي المؤرخ.

ومما لا شك فيه أن سقوط بغداد على أيدي المغول وإندراس قسم كبير من التراث العقلي الإسلامي على أيديهم وعلى أيدي الصليبيين جعل العلماء ينتبهون لخطر ما حدث ومحاولة منع حدوثه في المستقبل بحفظ تراث الأمة ومنعه من الإندثار والضياع، وعلى رأس هذا التراث :

الوثائق أو المكاتبات الرسمية التي تأتي في المرتبة الأولى بين مصادر التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ مصر في العصر المملوكي خاصة، لما تحويه من مادة تاريخية أصيلة غير قابلة للتحريف وهي تصدر عن ديوان الإنشاء الذي كان يقوم بتبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة وهي المكاتبات التي ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها، فضلاً عن إعداد الرسائل التي يبعث بها السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء.

ومن أهم أماكن تواجد الوثائق المملوكية القاهرة في (دار الوثائق) وغيرها من مدن مصر ومدن بلاد الشام ومن أهم وثائق القاهرة ووثائق الأوقاف التي تفيد في معرفة تخطيط العمائر الدينية والمدنية وأسلوب إدراتها والموظفين العاملين بها وروايتهم وغيرها من المعلومات.

كذلك من أماكن تواجد الوثائق المملوكية المدن الإيطالية التجارية مثل البندقية وجنوا وبيزة وغيرها. ذلك لأن هذه البلدان كانت على علاقة اقتصادية واسعة مع دولة المماليك في كل من مصر والشام ودارت بين الطرفين مراسلات كثيرة أغلبها تجاري اقتصادي، ولكن فيها السياسي والإداري.

هذا بالإضافة إلى أنه لدينا نصوص تاريخية رسمية ومكاتبات أخرى في كتب

المؤرخين المعاصرين والمتأخرين.

الآثار :

تعتبر الآثار سواء الثابتة منها كتمنشات العمارة الدينية والمدنية أو المنقولة كالتحف المعدنية والخشبية والعجبية والخزفية من أهم المصادر التي يعتمد عليها في كتابة التاريخ عامة وعصر الممالك بصفة خاصة، فعلم الآثار يعنى بدراسة الماضى على ضوء جميع المخلفات التى تصل إلينا منه فتقدم للمشتغلين بالتاريخ أثنى المساعدة لاستكمال الأبخز الصحيحة وسد الفراغ فى المصادر الأدبية للتاريخ فى تصحح أحياناً بعض الأخطاء التاريخية، وهى سجلاً تاريخياً للأعمال التى قام بها اتولاة والأمراء والسلاطين وتعبّر على درجة الإتقان الفنى والتيارات الفنية التى كانت تترك بصماتها، كما تفيد الآثار فى دراسة تاريخ العمران فتحدد المعالم البارزة من المدينة وتخطيطها.

هذا بالإضافة إلى الكتابات الأثرية التى تلى الوثائق فى الأهمية التاريخية بما تتضمنه من نصوص وألقاب وتواريخ فهى وثائق أصيلة معاصرة الأحداث التى تسجلها لم تشوهها الروايات والنقول فهى تتضمن تواريخ ثابتة للمنشآت وأسماء منشئها من الخلفاء والسلاطين والأمراء وأحياناً أسماء المهندسين والمزخرفين الذين أشرفوا على إنشائها وزخرفتها.

وأحياناً يستمد منها بعض المعلومات الإقتصادية فكان سلاطين الممالك يسجلون بعض مراسيمهم الخاصة بإلغاء بعض الضرائب أو تخفيف بعض المكوس على جدران منشآتهم المعمارية، ومثال ذلك السلطان المؤيد شيخ عندما أزال مظلمه مكس الفواكه نقش ذلك على لوح رخامى ثبت على باب مسجده بجوار باب زويلة .

والمسوكات : أو العملات تعتبر مصدر من الدرجة الأولى فى تاريخ الممالك ، فبمى تساعدنا على تتبع التطور السياسى بدقة، ولاسيما من الناحية الزمنية ،

فالكتابات المنقوشة على السكة تتضمن أسماء السلاطين والخلفاء وألقابهم - فهي سجل للألقاب والنعوت - وتاريخ الضرب والمدينة التي ضربت فيها العملة. كما تفيدنا العبارات الدينية المنقوشة على وجه العملة أو على ظهرها في معرفة المذهب الديني، وتساهم الكتابات المسجلة على العملات في تصحيح بعض الأخطاء التاريخية.

ومن الناحية الاقتصادية فإن العملة تساعد في دراسة الحالة الاقتصادية للعصر الذي كانت تستعمل فيه، وتساعد في معرفة نوع النقد الذي كان يشتد الإقبال عليه وأسبابه الاقتصادية، كما أن العثور على عدد من العملات المضروبة في عصر ما في بلاد مختلفة يشير إلى الآفاق التي كانت تمتد إليها التجارة في هذا العصر.

ومما لا شك فيه أن الأسماء والنعوت والألقاب الواردة على العملات والمواد التي تتخذ منها وموازينها تكشف النقاب عن كثير من الأوضاع السياسية والدينية والإقتصادية.

المصادر التاريخية :

- ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي (٦٣١ - ٦٨٤هـ / ١٢٣٣ - ١٢٨٥م) الذي كان سفير الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق إلى المغول، والذي رحل إلى مصر بعد سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحظى بمكانة كبيرة عند الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون وأهم مؤلفاته "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، و"تاريخ الظاهر بيبرس"^(١) وهو عبارة عن مشاهداته لما بذله السلطان الظاهر بيبرس من استعدادات وجهود ضد المغول والصليبيين.

- ابن واصل : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله الحموي الشافعي (٦٠٤ - ٦٩٧هـ / ١٢٠٧ - ١٢٩٧م) ولد في حماد وطاف بلاد كثيرة... وبيت المقدس وحلب والقاهرة طلباً للعلم وشهد حملة لويس التاسع

الصليبية على مصبر. وإحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك وغزوات المغول وسقوط الخلافة العباسية، ثم انتقالها إلى القاهرة، وأصل بالظاهر بيبرس وأرسل سفيراً عنه إلى منفرد بن فزدريك ملك الصقثيين وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ولابن وأصل مؤلفات كثيرة ما ييمنا منها كتابه "مفرج انكروب في أخبار بني أيوب" وخاصة الأجزاء الأخيرة التي تناول فيها الأيام الأولى من حياة السلطان الظاهر بيبرس.

- ابن عبد الظاهر : القاضى محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان ولد فى القاهرة سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) وتوفى سنة (٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)، كان كاتباً فى ديوان الإنشاء فى عيذى قطز وبيبرس . ومن أهم مؤلفاته "الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر" الذى تناول فيه جهود بيبرس ضد المغول والصلبيين وكتاب "تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور" الذى تحدث فيه ابن عبد الظاهر عن سيرة السلطان المنصور قلاوون وجهوده ضد الصليبيين الذى كلفه بالإستيلاء على طرابلس أما كتاب ابن عبد الظاهر الثالث فهو "الأطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية" الذى تناول فيه تاريخ الأشرف خليل ابن قلاوون.

- بيبرس الدوادار : هو بيبرس المنصورى الخطائى الدوادار المتوفى سنة (٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) بدأ حياته بتولى بعض المناصب الإدارية فى عهد السلطان

(١١) مخطوط بمسجد السليمية بأدرنة تحت رقم ٢٣٠٦.

سيف الدين قلاوون ، وشغل منصباً هاماً فى البلاط المملوكى فى عهد إبنه الناصر محمد بن قلاوون فقد كان رئيساً لديوان الإنشاء ولقب بالدوادار وترقى فى مناصب الدولة حتى أصبح نائباً للسلطنة فى الكرك سنة (٧١١هـ / ١٣١١م) ومن آثاره العلمية مؤلفين هامين سجل فيهما الأحداث التى عاصرها وشاهدها وهما "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة وهو تاريخ إسلامى عام لم يصل إلينا منه إلا الجزء التاسع الذى يتناول السنوات من (٦٥٥هـ إلى ٧٠٩هـ / ١٢٥٧ -

١٣٠٩م) ويعتبر من المصادر الهامة فى دراسة التاريخ السياسى لسلاطين دولة المماليك فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، أما المؤلف الثانى فيعرف باسم "التحفة الملوكية فى الدولة التركيه" وينتهى بعام (٧١١هـ / ١٣١١م).

- ابن أيبك النوادارى : أبو بكر بن عبد الله : الذى شغل بعض المناصب الهامة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتوفى بعد سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٦م) وبالرغم من أنه لم يكن من ذوى الرتب العالية فقد استطاع عن طريق والده وأصدقاء والده الوصول إلى المصادر الأصلية التى استقى منها معلوماته مثل رجال الدولة والجيش والعلماء، هذا فضلاً عن ملاحظاته الشخصية وأهم مؤلفاته كتاب "كنز الدرر وجامع الغرر" ويقع فى تسع أجزاء ييمنا منها الجزء الثامن الذى يعرف باسم "الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركيه" والجزء التاسع الذى يعرف باسم "الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر" - محمد بن قلاوون.

مؤلف مجهول : نشر تاريخه زترستين ك . ف بعنوان - تاريخ سلاطين مصر - وهو يؤرخ للفترة الممتدة من سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) إلى سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) ونستطيع أن نقول عنه أنه كان معاصراً للسلطان الناصر محمد بن قلاوون وأنه كان أحد الأجناد البسطاء فى الجيش المملوكى.

- النسبويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم النسبويرى المتوفى سنة (٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الذى كان ذا حظوة عند السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ووكله فى بعض أموره، وشغل نظارة الجيش فى طرابلس، وتقل فى عديد من الوظائف مما مكّنه من الإطلاع على خبايا الأمور الأمر الذى يظهر بوضوح فى كتابه "نهاية الأرب فى فنون الأدب".

- أبو الفساد : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على بن محمود بن

محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي المتوفى سنة (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) كان أحد ورثة الأسرة الأيوبية، وأحد أمراء الأسرة الحاكمة في مدينة حماه بل وحاكما لها مما أعطاه مكانة رفيعة في المجتمع المملوكي، هذا فضلا على تمرسه على أيدي كبار المؤرخين وصلته الوثيقة بالسultan الناصر محمد بن قلاوون مما مكنه من الإطلاع على الشؤون السياسية والأمر العسكري والقضايا الدقيقة المتعلقة بالسلطنة المملوكية، وكان عتماً في عدة فنون نظم الحاوي في الفقه، وتقويم البلدان فضلا عن تاريخه "المختصر في أخبار البشر" الذي يعتبر من أقدر المصادر على تفسير وتحليل ووصف الأحداث التاريخية بالبراهين والأدلة لأنه شارك في كثير من الحملات الحربية.

- ابن أبي الفضائل : المفضل مؤرخ قبلي يعتقد بأنه لم يكن من الشخصيات التي يرجع إليها فضل التوجيه في المجتمع المصري ومن ثم لم يشر إليه أحد من قريب أو بعيد من كتاب ذلك العصر.

وكتابه "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد" يشتمل على ما كان من أواخر سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٧م)، نهاية التاريخ الذي وصفه القبلي ابن العميد - المسكين جرجس - أخبار الأيوبيين - إلى ثوال سنة (٧٥٩هـ / ١٣٥٧م) ومن المرجح أنه توفي بعد هذه السنة.

- ابن أبي شامة الصفدي : خليل بن أبيك بن جبد الله الصفدي ت (٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) ولد في صفا بفلسطين وإبها نسبه ولع بالأدب وتراجم الأعيان وولى ديوان الإنشاء بمصر ودمشق، ووكالة بيت المال بدمشق فتوفى فيها من أهم مصنفاته الكثيرة "الواقى بالوقيات"، "أعيان العصر"، "تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب"، "فهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة".

- الصفدي : الحسن بن أبي محمد عبد الله الهاشمي الصفدي أحد المقربين إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فكان أحد موظفي الإدارة المملوكية فقد أرسل للإشراف على زراعة الأراضي السلطانية بضاحية سرياقوس وكتابه

"نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك".
- ابن فضل الله العمري : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري المتوفى سنة (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) : شغل والده وشقيقه بعض المناصب الإدارية الهامة في الدولة المملوكية فقد كان والده كاتباً للسرى، وشغل مؤرخنا نفس الوظيفة بالشام وقد غضب عليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون فاعتقله وصادره وقطع يده وسجنه كان أديباً مؤرخاً من أئامه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، "التعريف بالمصطلح الشريف".

- الجزرى : محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن إبراهيم ابن عبد العزيز الجزرى الدمشقى - شمس الدين أبو عبد الله المتوفى سنة (٧٣٩هـ / ١٣٣٩م) كان أحد الشهود الرسميين وتولى الشهادة قبل القضاء ما يقرب من ستين عاماً ثم ترك وظيفته ورفض قبول أى وظيفة رسمية، درس الحديث على أيدي علماء دمشق والإسكندرية والقاهرة، وحدث به بعد أن أجازوا له ألف كتاباً فى الحديث وشغف بفن التاريخ، وكتب فيه كتاباً بذل فيه جهد كبير هو "حوادث الزمان وأنبائه ووقيات الأكابر والأعيان من أبنائه".

- اليونينى : موسى بن محمد بن عبد الله البعلبكي اليونينى، الحنبلى - قطب الدين أبو الفتح، أصله من بعلبك ولد وتوفى بدمشق، صار شيخ بعلبك بعد وفاة أخيه على توفى سنة (٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) إختصر "مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان" لسبط بن الجوزى المتوفى سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) وأسماه "مختصر مرآة الزمان" وذيل عليها ذيلاً عرف بإسم "ذيل مرآة الزمان" فى أربعة مجلدات .

- الذهبى : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى - شمس الدين، أبو عبد الله المتوفى سنة (٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) تركماني الأصل، من أهل ميا فارقين مولده ووفاته فى دمشق، رحل إلى القاهرة وطّف كثيراً من البلدان، ويعتبر من العلماء الشوام الذين كان لهم دور بارز فى الكتابة عن تاريخ دولة المماليك، كف بصره سنة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) من تصانيفه "تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام"

وينتهي بأحداث سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، وكتاب "دول الإسلام" في جزآن وينتهي بأحداث سنة (٧٤٤هـ/١٣٤٤م) وهو تلخيص لكتاب تاريخ الإسلام.

- ابن السوردي : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المصري، الحلبي، الشافعي، المعروف بابن الوردى - زين الدين. المتوفى سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ولد بمعرة النعمان بسورية، وولى قضاء مبنج ومات بالطاجون في حلب من أهم تصانيفه الكثيرة في اللغة والأدب تاريخه المعروف باسم "تمة المختصر في أخبار البشر" أراد به كما هو واضح من عنوانه أن يكون تمة لتاريخ أبو الفدا الذي سبقت الإشارة إليه والمعروف بـ "المختصر في أخبار البشر" غير أن الجديد الذي اشتمل عليه تاريخ ابن الوردى يعتبر ضئيلاً لأن الفرق بينهما ثمانية عشر عاماً فقط، وتتمثل أهميته في أنه من المصادر المعاصرة لحكم الناصر محمد بن قلاوون.

- ابن شاکر الكبتي : محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن الكبتي، الداراني الأصل، الدمشقي الشافعي - صلاح الدين المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٣م) ولد في داريا من قرى دمشق ونشأ وتوفى بدمشق، كان فقيراً جداً، واشتغل بتجارة الكتب، فربح منها مالاً طائلاً، اهتم بكتابة التراجم فكانت في رأيه التاريخ الحقيقي لذلك فهو يعرف بمؤلفه "قوات الوفيات" الذي أراد أن يكمل به كتاب ابن خلكان "وفيات الأعيان" وضمنه ٥٧٢ ترجمة، ومن مؤلفات ابن شاکر التاريخية الهامة "عيون التواريخ" ويقع في ست مجلدات بدأه منذ عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - متبعاً نظام الحوليات وانتهى بالأحداث التي وقعت قبل وفاته بأربع سنوات أي حتى سنة (٧٦٠هـ / ١٣٥٩م).

- ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن زرع القرشي البصري ثم الدمشقي، الشافعي المعروف بابن كثير أبو الفداء عماد الدين المتوفى سنة (٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)، ولد بجندل قرية من أعمال بصرى الشام وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٠) ورحل في طلب العلم وعمل بالتدريس، ألف تاريخاً طويلاً عرف باسم "البداية والنهاية في التاريخ" كما ألف في تفسير القرآن

الكريم والحديث وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

- ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم بن علي بن محمد ، ناصب الدين الحنفي المعروف بابن الفرات المتوفى سنة (٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)، ولى خطابة المدرسة المعزية بالقاهرة واهتم بتسجيل الأحداث السياسية والإقتصادية ونظم الحكم وغيره من الوثائق اترسمية وكتابه المشهور باسم "تاريخ ابن الفرات" أو "تاريخ الملوك" اسمه فى الأصل "الطريق الواضح المصلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك".

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد، ولى الدين الحضرمى الإشبلى الأصل التونسى ، ثم القاهرى، المالكى المتوفى سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م). ويتميز ابن خلدون بأنه لم يكتب تاريخه المشهور "العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" - تاريخ ابن خلدون - إلا بعد أن تنقل فى البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين، وتقلب فى خدم دواوينهم، وأخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، كما سفر لأحد أولئك السلاطين وهو محمد الخامس سلطان غرناطة عند بيتر ملك قشتالة المسيحية ثم وفد ابن خلدون إلى مصر سنة (٧٨٣هـ/١٣٨٢م)، وكان قد انتهى من تاليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة، وحج أكثر من مرة، ودرس بالجامع الأزهر والمدرسة القمحية وموضعيا قرب جامع عمرو، بل تولى منصب قاضى القضاة المالكية بمصر، كما رافق الحملة المملوكية التى قادها السلطان فرج بن برقوق إلى الشام سنة (٨٠٤هـ/١٤٠١م) لدفع يتمورلنك عن دمشق وشارك فى وفد المفاوضات للصلح بين الدولتين المملوكية والمغولية، واجتمع بتيمورلنك وأعجبه كلامه وبلاغته.

- المقرئى : أحمد بن على بن عبد القادر أبو العباس الحسينى النعبيدى تقى الدين المقرئى المتوفى سنة (٨٤٥هـ / ١٤٤١م) أشهر مؤرخى العصور الوسطى من المصريين ولد سنة (٧٦٦هـ/١٣٦٤م) فى حارة برجوان وهى من

أعظم حارات القاهرة إمتلاء بالمران والحياة، وجاءت أسرة المقرئى إلى القاهرة من بعلبك فى حياة أبيه، وعرف باسم المقرئى نسبة إلى حارة المقرئى فى مدينة بعلبك، وانكب على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره وأظهر نجابة ومقدرة، ثم التحق بالوظائف الحكومية، فكان أول عهده بها ديوان الإنشاء بالقلعة، حيث ظل يعمل موقعا - أى كاتباً - حتى سنة (٧٧٠هـ / ١٣٦٨م)؛ ثم عين بعد ذلك نائباً من نواب الحكم - أى قاضياً - عند قاضى القضاة الشافعية، فإماماً لجامع الحاكم، ومدرساً للحديث بالمدرسة البويدية وفى سنة (٨٠١هـ / ١٣٩٨م) اختاره السلطان برقوق - وكان حفيباً به مشجعاً إياه - لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى فتنولها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين وفى سنة (٨١١هـ / ١٤٠٨م) انتقل المقرئى إلى دمشق ليتولى النظر على أوقاف القلايسية والمارستان النورى، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين الأشرقية والإقبالية هناك، ثم عينه السلطان فرج بن برقوق كذلك نائباً للحكم بدمشق إستيفاء لشرط الواقف أن يكون المنتظرون على أوقافها قضاة بها. لكن المقرئى أبى قبول هذه الوظيفة على الرغم من عرض الوظيفة عليه مراراً من قبل السلطان، ويبدو أنه سئم الخدم الحكومية وضاق بتكاليفها، وأنه ملك من الموارد التى ربما ورثها عن أهله ما أغناه عن تضييع وقته فى كسب العيش، عن طريق الدواوين ومجالس الحكم، المهم أنه عاد إلى القاهرة خالياً من عمل أو وظيفة لينكب على الدرس والإشتغال بالعلم وخاصة التاريخ وليمضى بقية حياته بحارة بروجوان: ومن مؤلفاته تاريخ القاهرة المسمى "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، ويعرف بخطط المقرئى ثم كتاب عن الخلافة الفاطمية فى مصر وهو "إتعاظ الحنفاء فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"، ثم كتاب عن تاريخ الأيوبيين والمماليك عرف باسم "السلوك لمعرفة دول الملوك".

كذلك ألف المقرئى فى التراجم والسير كتابين أولهما "المقضى الكبير" وقدر له أن يكون فى ثمانين مجلداً لم ينجز منها سوى ستة عشر فقط والثانى هو كتاب "درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة" وكان الغرض منه أن يكون

لتراجم معاصرة غير أنه لم يفرغ منه.
كما ألف في قبائل العرب التي نزلت مصر "النين والإعراب عما فى أرض
مصر من الأعراب".

كما اهته بالتاريخ الاقتصادى والنميات وتاريخ المجاعات والطواعين فى النقود
كتب "تذور العقود فى ذكر النقود" وفى مجال الأوزان والأكيال كتب "رسالة
فى الأوزان والأكيال"، أما عن المجاعات اتى نزلت بمصر منذ أقدم
العضنور إلى سنة (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) فكتابه عنها "إغاثة الأمة بكشف
الغمة".

وهكذا كان المقريزى واسع القراءة والمعرفة والإطلاع كثير الدأب والمثيرة
وكان رجلاً فاضلاً ديناً، مجداً أميناً فى عمله، كما شهد بذلك معاصروه وكما
يشهد به ما خلفه من كتابات .

- ابن حجر العسقلانى : هو أحمد بن على بن محمد الكتانى العسقلانى، أبو
الفضل شهاب الدين المتوفى سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، ولد فى مصر القديمة سنة
(٧٧٣هـ/١٣٧٣م) وأصل أسرته من عسقلان بفسطين حفظ القرآن الكريم وهو
ابن تسع، رحل فى طلب العلم إلى اليمن والحجاز والشام واشتهر فى التدريس
والفتيا ولى سنة (٨٢٨هـ/١٤٢٤م) منصب قاضى القضاء الشافعية - المذهب
الرسمى للدولة المملوكية - وظل متقلدا لهذا المنصب الخطير إحدى وعشرين
سنة، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مراراً فى أثناء تلك الفترة الطويلة - ألف فى
الحديث والفقہ والتراجم فمن مؤلفاته التى زاعت شهرتها "فتح البارى فى شرح
صحيح البخارى" فقد أرسل شاه رخ بن تيمورلنك وغيره من ملوك البلاد
الإسلامية فى طلبه، و"إنباء الغمر بأبناء العمر" الذى يعتبر من أهم المصادر
الأصلية نعصره فهو تاريخ للدولة المملوكية فى حياته ومن مؤلفاته " الدرر
الكامنة فى أعيان المئة الثامنة" و "الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة" و "رفع
الأصر عن قضاة مصر".

- العينسى : محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد أبو محمد بدر الدين العينسى

الحنفى أصله من حلب ومولده فى عينتاب - بين حلب وأنطاكية - قبيل المقريزى بأربع سنوات سنة (٧٦٢هـ/١٣٦١م) وأختير لوظيفة الحسبة سنة (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م) بدلاً من المقريزى فظلاً متخاصمين بقية أيام حياتهما من أجل ذلك ، فى سنة (٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) جعله السلطان الأشرف برسباى الذى كان يحب عيني لتمكنه من اللغة التركية قاضياً للقضاة الحنفية إلى جانب الحسبة مدة إثنى عشر سنة متوالية، وأضيفت إليه فى أثنائها نظر الأحياس.

عاش العيني إحدى وتسعين سنة فقد توفى سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) بعد سنتين عزله عن القضاء بأمر السلطان جقمق تاركاً ثروة ضخمة من المؤلفات والتاريخية أهمها "عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان" الذى يعتبر من أهم مصادر التاريخية لعصر المماليك، لما يحتويه من المعلومات الأصلية والغزيرة ، لأن العيني يشير فيه إلى المصادر التى أخذ عنها مادته التاريخية مثل ابن كثير، وبيبرس البودارى والنويرى وغيرهم ومن مؤلفاته أيضاً "السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد أبى النصر شيخ" و "سيرة الملك الأشرف" و "الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر" و "الجوهرة السنية فى تاريخ الدولة المؤيدية" هذا غير مؤلفاته العديدة فى الفقه والحديث وطبقات الشعراء .

- ابن عرب شاه : أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم أبو محمد شهاب الدين المعروف بابن عرب شاه: ولد فى دمشق سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) ولما غزا تيمورلنك ديار الشام غادرها وأسرتة إلى سمرقند سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م) وزار بلاد المغول والحجاز وتركيا حيث اتصل بالسلطان العثمانى محمد بن عثمان وجاء إلى القاهرة سنة (٨٤٣هـ/١٤٣٩م) فرحب به مؤخوها مثل ابن حجر والسخاوى وأبو المناسن وأعجب بلباقته السلطان جقمق فدعاه للإقامة بالبلاط السلطاني، غير أنه وشى به عند السلطان بأنه يعمل ضد مصالح الدولة المملوكية بل ضد مصالح جقمق نفسه فقبض عليه وسجن بسجن المقشرة سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) ورغم تبرئته وإطلاق سراحه بعد خمسة أيام إلا أن قضى بقية حياته مهموماً منزوياً إلى أن توفى سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) كان يجيد

الفارسية والتركية والمغولية فضلاً عن العربية من أهم مؤلفاته التاريخية. "عجائب المقدور في أخبار تيمور" و "التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر جقمق الذى صوره فيه بأنه صورة مجسدة للفضيلة والكتاب يشتمل على تفاصيل تاريخية قيمة.

- ابن شاهين الظاهري : خليل بن شاهين الظاهري - غرس الدين - ولد ببيت المقدس سنة (١٣٧٢هـ/١٧٧٤م) حيث كان أبوه أحد أمراء المماليك بتلك النيابة الشامية ثم قدم ابن شاهين إلى القاهرة حيث درس الحديث على ابن حجر ثم التحق بفرقة أولاد الناس - الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك - وبفضل أنه كان حمياً للسلطان برسباي استطاع أن يجمع فى يده بين وظائف النائب والحاجب والمشد بالإسكندرية سنة (٨٣٨هـ/١٤٣٤م) وتقل فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام حتى أُنعم عليه جقمق سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) بأعلى مرتبة فى دولة المماليك وهى أمير مائه مقدم ألف وتوفى سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) من أهم مؤلفاته كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" الذى أوضح فيه الوظائف الحربية والإدارية لدولة المماليك .

- الخالدي : محمد العمرى الخالدي بهاء الدين : عمل فى ديوان الإتشاء وتدرج فى وظائفه مثل ابن فضل الله العمرى صاحب كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" والقلقشندي صاحب كتاب "صبح الأعشى فى صناعة الإتشاء". عاش فى عهد السلطان برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) وكتب على أساليب الكتابة إلى مختلف الملوك فى الشرق والغرب كتاب اسمه "المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الإتشاء"

- أبو المحاسن : يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهري الحنفى. أبو المحاسن جمال الدين، ولد بالقاهرة سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) بدار الأمير منجك اليوسفى، قرب مدرسة السلطان حسن، وكانت أمه جارية تركية من جواري السلطان برقوق، وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى (يونانى) اشتراه برقوق وجعله ضمن مملكته - ثم اعتقه ورقاه إلى فرقة الخاصكية - إحدى فرق

المماليك السلطانية - وقلده العديد من المناصب الرفيعة في الدولة المملوكية - وفي عهد السلطان فرج ابن برقوق تولى نيابة دمشق فكان رجلاً عارفاً حازماً، محباً للحلم والعلم، وكانت له مشاركة في بعض المسائل الفقيية ، وأسهم في مدافعة تيمورلنك عن مدن الشام وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية، ثم تولى تغرى بردى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام - واتهم بالخيانة فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركمان، حيث أقام مدة منفيًا، ثم عفا عنه السلطان فرج وطلب إليه العودة إلى القاهرة وولاه أتابكية العساكر بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة، وما زال تغرى بردى على نيابتها معزراً مكرماً إلى أن جاء الأجل فقضى نحبه سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) حيث ترك ستة أبناء وأربع بنات منهن خوند فاطمة التي تزوجها السلطان فرج بن برقوق سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) وكان أبو المحاسن أصغر أولئك الأولاد والبنات جميعاً، إذ توفى أبوه وهو في الثانية من عمره فتولى تربيته قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفي زوج أخته الثانية واسمها بيرم حتى توفى ابن العديم سنة (٨١٩هـ/١٤٢١م) فتزوجت بيرم من قاضي القضاة جلال الدين البلقيني الشافعي الذي لم يلبث أن توفى هو الآخر سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م) فصار أبو المحاسن في رعاية جماعة من أكابر ممالك أيه فتعبدوا بفتوته وتشثته وتعليمه على أحسن وجه، فدرس علوم عصره على علماء بمصر والشام والحجاز مثل المقریزی والعيني وابن حجر وابن عرب شاه بالقاهرة، وابن ظهيرة وابن العلييف بمكة، والمرعشي وابن الشماع بحلب وغيرهم من مشاهير علماء المسلمين. غير أنه أحب التاريخ من دون العلوم التي درسها وأجيز له فيها فلازم المقریزی والعيني - من أجل ذلك ونهج نهجها وساعدته جودة ذهنه وحس تصوره فضلاً عن معرفته باللغة التركية، ثم خلال له الجو بوفاة كل من المقریزی سنة (٨٤٥هـ/١٤٤٢م) والعيني سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) ولم يوجد من ينازعه في زعامة المؤرخين. غير أن إنتهاء الزعامة إلى ابن تغرى بردى لم تجعل منه نديماً دانيا لسلطان من سلاطين المماليك، مثلما كان

العيني مع السلطان الأشرف برسباي، غير أنه تقلداً كثيراً من الوظائف الهامة في عهود مختلفة، وكان مولده ونشأته وقراباته ومصاهراته وصدقاته، ما جعله من رواد البلاط السلطاني فكان من المترددين إلى حضرة السلطان برسباي وصحبه في حلقات وسرحدات الصيد والنزهة، وكان ضمن رجال العلم والأدب الذين انتظمت زيارتهم لمجلس السلطان جقمق مرة كل أسبوع، وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائده ومصاهرة، بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال حتى إن زيارته لبلاطه لم تعد المرة أو المرتين في العام كله، ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان ختقنم الرومي الأصل مثله، وعاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباي وليكتب في حوادثها بما يدل على أنه لم يلق في بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولاً.

وتمكن أبو المحاسن خلال حياته الطويلة أن يكتب كثيراً من المؤلفات في التاريخ والتراجم بلغ عددها اثنا عشر كتاباً وصلنا منها سبعة فقط أهمها كتاب في تاريخ مصر من الفتح الإسلامي حتى سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) وهو "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" الذي ألفه من أجل صديقه السلطان المرجو الأمير محمد بن جقمق الذي توفي سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م) قبل أن يتحقق ذلك الزجاء، وما أورده ابن تغري بردي في هذا الكتاب من الأحداث كان أقرب إلى الحقيقة مما أورده غيره من المؤرخين بسبب قربه من بلاط السلاطين والأمراء كما ألف كتاباً آخرأ حافل بتراجم الأعيان والناهبين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما، وأراد به أن يكون ذيلاً وتكملة لكتاب الوافي بالوفيات لخليل بن أبيك الصفدي المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وهذا الكتاب هو "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" ثم اختصره في كتاب اسمه "الدليل الشافي على المنهل الصافي" ثم جعل لهذا المختصر مختصراً اسمه "مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة" ولأبي المحاسن كتاب آخر اسمه "حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور" وهو ذيل لكتاب السلوك لأستاذه المقرئ بداه حيث إنتهى المقرئ سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) وانتهى به إلى سنة

(٨٥٥هـ/١٤٥١م) ومن مؤلفاته أيضا كتاب "تزهة الرائي" فى التاريخ وكتاب "البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر" هذا غير كتب عديدة فى فنون وعلوم متنوعة منها على سبيل المثال رسالة فى معانى اللغة التركية وهى "الإنتصار للسان التتار".

وتتصف مؤلفات أبى المحاسن أيضا بأنها سليمة من الناحية اللغوية فابن الصيرفى يقول فى ترجمته عنه أنه كان "كلما فرغ من تصنيف يتوجه به إلى من يعرف العربية، فيصلحه له ويصير له به مزيه" غير أن السخاوى فى ترجمته له فى الضوء اللامع اتهمه باختلاط ألفاظه وأقلامه.

- ابن الصيرفى : على بن داود بن إبراهيم، نور الدين، الجوهري الإسرائيلي المعروف بابن الصيرفى - وابن داود ولد بالقاهرة سنة (٨١٩هـ/١٤١٦م) كان أبوه داود صيرفى بدواوين الدولة المملوكية توفى سنة (٨٥٣هـ/١٤٤٩م) تولى على خطابة جامع الظاهر برفوق وكان شيخه ابن حجر يصلى خلفه هناك واشتغل بالتجارة بعد وفاة أبيه بسوق الجوهريين فلقب بالجوهري، وابتنى بعض الدور بحكر الشامى بالقاهرة وأسكنها بالأجرة - ثم تقلبت به الأحوال فنفذ غالب ما عنده واحتاج، فولاد قاض القضاة محب الدين بن الشيخه الحنفى نائبا للحكم (قاضيا) واشتغل بنسخ الكتب فنسخ كتب ابن حجر وأبى المحاسن والسخاوى فى التاريخ، ومن ثم كان اشتغاله بالتأليف فى التاريخ فألف "تزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان" بدأه بسلطنة برفوق سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) واختتمه عند السنة الثامنة من سلطنة جقمق (٨٥٠هـ/١٤٤٦م) وله "إنشاء الهصر بأبناء العصر". وكانت وفاته سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٤م).

- السخاوى : محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبو الخير شمس الدين -
السخاوى أصله من بلدة سخا من قرى الغربية وولد سنة (٨٣١هـ/١٤٢٧م) بحارة بهاء الدين المجاورة لباب الفتوح كان أبوه وجده يتكسبان بتجارة يسير في سوق الغزل ويكثران من حضور مجالس رجال الدين، ولذا كان معظم شيوخ السخاوى من رجال الدين أصحاب أبيه مثل ابن حجر الذى كان شديد العناية به حتى أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه في حفل عرس السخاوى (٨٤٨هـ/١٤٤٤م) وجهد في توظيفه بوظائف تدريس الحديث، وكان السخاوى على صلة قوية بالأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى زمن السلطان خشقدم وأعظم شخصية فى الدولة المملوكية مدة حكم قايتباى فعينه على إحدى وظائف تدريس الحديث ومن تأليفه الكثيرة كتاب "التبر المسبوك فى ذيل السلوك" تكلمة لتاريخ المقرئ المشهور وكان تأليفه له إجابة لرغبة الأمير يشبك ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" الذى يعتبر فخر مؤلفات السخاوى وله "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ". وكانت وفاة السخاوى بالمدينة المنورة سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م).

- ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفى - أبو البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان و البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان و البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان و البركات ولد سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما قد انحدر من أسرة مملوكية، غير أن ابن إياس كان مشاهير أولاد الناس كثير

العشرة للأمرء وأرباب الدولة .

وهكذا يتضح أن ابن إيّاس نشأ في وسط مملوكي بحت، وأنه كان يمت بصلة القرابة إلى بعض رجال الدولة في عصرى قايتباي وقانصوه الغورى، وأنه كان يعتمد في معيشته على دخله من إقطاعه الوافر بإعتباره أحد أولاد الناس غير أن الغورى أخرج أولاد الناس ومن بينهم ابن إيّاس عن إقطاعه بسبب تأزم أحواله المالية، فذهب عنه إقطاعه الوافر إلى أربعة من المماليك غير أنه لم يبقى بغير إقطاع مدة طويلة، إذ وقت السلطان الغورى أوائل سنة (٩١٥هـ/١٥١٠م) بقصة وهو في طريقه للعب الكرة بميدان القاعة يشكو فيها حاله فاستجاب السلطان لشكاوته ورد عليه إقطاعه وظل على ذلك حتى وفاته سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٤م) وكان مجدداً في كتابة التاريخ دعواً على تدوين الحوادث دقيق الملاحظة شديد الاستقصاء للحقائق الأمر الذى يشهد عليه ضخامة مؤلفاته التى منها "بدائع الدهور فى وقائع الدهور" وهو كتاب شامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثماني ويحتج أحد المصادر الهامة لعصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثماني بمصر ومن مؤلفاته "عقود الجمان فى وقائع الأزمان" و "تزهة الأمم فى العجائب والحكم" وغير ذلك من مؤلفات فى الفلك والبيئة وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية ومملوكيا.

- السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضرى السيوطى - جلال الدين أبو الفضل - من أسرة ينتهى نسبها إلى شيخ من المتصوفة إسمه همام الدين الخضيرى - نسبة إلى مطبة الخضيرية ببغداد، ثم جاء هذا الشيخ إلى أسيوط وعاش بها فى العصر الأيوبي، وأقامت أسرته بها جيلاً بعد جيل، وأخرجت رجالاً نابيين فى المجتمع الأسيوطى فى العصور الوسطى منهم نائب الحكم (القاضى)، والمحتسب، والتاجر، والمتمول الخير، أما محمد والد عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من أقام من تلك الأسرة بأسيوط فرحل فى حدائته إلى القاهرة لطلب العلم والتعليم، وأقار من صلة والده بالأمير شيخو - الذى ساعده فى أثناء قيامه بإخماد ثورة الأحذب بالصعيد سنة

(١٣٥٣هـ/١٧٥٤م) فى عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد - فتولى درسى
الفتنة بالجامع الشيوخونى - بسويقة منعم فيما بين الصليبيه والرميلة بالقاهرة -
وخطب بجامع ابن زرن، وألف كثيراً نسى الفقه والنحو وتوفى - سنة
(١٤٥١هـ/١٨٥٥م).

ولد جلال الدين عبد الرحمن بالقاهرة (١٤٤٥هـ/١٨٤٩م) أى كان عمره مئتين
سنتين عند وفاة والده وإستطاع أن يختم القرآن وهو دون الثامنة، ثم أخذ فى
طلب العلم بأنواعه، كالتفسير والحديث والفقه، والنحو والمعانى والبيان واليدىح
والقراءات والقراءات والطب، وبلغ فيها درجات متفاوتة من الكمال حتى قاق
أشياخه كلهم إلا الحساب والمنطق فإنه كرههما وثقلا عليه لعدم ملاءمتهما
طبيعته، وتولى تدريس الفقه بالجامع الشيوخونى بسعايه شيخه البلقينى سنة
(١٤٦٥هـ/١٨٧٠م)، ثم تصدى للإفتاء وإملاء الحديث بجامع ابن طولون سنة
(١٤٦٧هـ/١٨٧٢م)، ثم أضيفت إليه وظيفة تدريس الحديث والإسماع بالخانقاه
الشيخونية سنة (١٤٧٢هـ/١٨٧٧م) بمساعدة الأمير إينال، كما تولى مشيخة
التصوف بتربة برقوق نائب الشام، ثم انتقل منها إلى مشيخة الخانقاه البيبرسمية
سنة (١٤٨٦هـ/١٨٩١م) وهى أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافاً فى عصره
بسعاية الخليفة العباسى المتوكل على الله عبد العزيز.

ولما بلغ السيوطى الأربعين سنة إعتزل الناس فى روضة المقياس على الخيل
وانقطع للعبادة وتحرير مؤلفاته التى أربت على الخمسمائة، فألهاه التكاثر عن
الاتقان وجاءت أكثر مؤلفاته جمعاً لا تأليفاً، وكانت مؤلفاته التاريخية ليست
سوى شىء قليل بالمقياس إلى كتبه فى غير التاريخ من العلوم، فمن هذه
المؤلفات التاريخية كتاب "حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة" وهو تاريخ
للبلاد المصرية والقاهرة عاصمتها مع بعض فصول إضافية فى القظيم
المملوكية وطبقات العلماء والصوفية فى مصر وقد كتبه السيوطى فى عصر
السلطان قايتباى، ومن مؤلفاته التاريخية أيضاً "تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين"
وكتاب "تاريخ السلطان الأشرف قايتباى" وكتاب "تاريخ أسيوط" التى كان أيوه

من سكانها ، وكتاب "كوكب الروضة" عن جزيرة الروضة جنوبي القاهرة ، وكتاب "التاريخ في علم التاريخ" وهو عن سبب إتفاق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ للتاريخ الإسلامى، وإجماعهم على اعتبار المحرم أول الشهور، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية.

والحق أن السيوطى لم يكن مؤلفاً فى معظم كتبه، بل إنه جمع فأوعى فقط واختصر ولخص فحسب، وظل السيوطى منزوياً فى بيته بالروضة حتى مات سنة (١٥٠٥هـ/١١١١م).

- عبد الباسط الملطى : هو : عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى، زين الدين الحنفى : سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة، والده الأمير خليل بن شاهين ووالدته الأمير أصيل شقيقه زوجة السلطان برسباى، ولد سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) بملطية بأطراف آسيا الصغرى حيث كان والده متولياً نيابتها من قبل السلطان جقمق، تنقل مع أبيه إلى حلب، والخليل، والقدس ودمشق ريغداد والقاهرة ومكة وطرابلس، فتلقى علوم عصره على شيوخ مختلفين، ومنهم أبوه الذى أقرأه الكثير من الكتب فى شتى العلوم، كما علمه اللغة التركية، كما رحل إلى المغرب فى طلب العلم فدرس النحو والكلام والطب ثم استقر بالقاهرة بعد وفاة أبيه خليل سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) فنزل بالخانقاة الشيخونية وتصوف وتعرف على السيوطى والسخاوى الذى اعتبره من تلاميذه فى التاريخ، ولم تشر المصادر إلى عمل رسمى تولاه فى الدولة المملوكية ومن مؤلفاته "تزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين"، و "ذيل الأمل فى ذيل الدول" وهو ذيل لتاريخ الذهبى ويتضمن حوادث السنوات من (٧٤٤هـ/١٣٤٣) إلى (٨٩٦هـ/١٤٩٠م) وله كتاب "الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم" وهو ذيل لتاريخ أبو المحاسن كما ألف فى الطب "شرح القانونشة" والفقهاء كما نظم كثيراً من الشعر وتوفى عبد الباسط بعد أن مرض بالسل مرضاً ألزمه داره أكثر من سنة سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م).

- ابن الطولونى : حسن بن حسين الطولونى ولد سنة (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) من

أسرة اشتغل كثير من أبنائها بالهندسة والمعمار منذ أيام الدولة الأيوبية، فكان منهم دائماً "معلم المعلمين" أى كبير المهندسين وزادت مكانة تلك الأسرة حين تزوج السلطان برقوق من أخت أحمد بن الطولونى - معلم المعلمين، ثم تزوج برقوق من ابنة أحمد بن طولون بعد طلاق عمته وجعله من أمراء المماليك برتبة أمير عشرة، وظل على ذلك حتى وفاته سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م) ، المهم أن مؤرخنا نشأ على مهنة آباءه وكافة السلطان إينال على مساعدته فى اعتلاء دست السلطنة المملوكية بأن عينه فى وظيفة "معلم المعلمين" فظل متولياً لها سبعة عشر عاماً، تخللتها عهود السلاطين إينال وابنه احمد، وخشقدم، ولباى، وتمريخا، ولباى الذى عزله لوشاية لم تذكرها المصادر ، ولكنه لم يلبث أن أعاده بسعاية الأمير يشبك وظل على وظيفته حتى ولاء السلطان محمد بن قايتباى نيابة القلعة كذلك غير أن ابن الطولونى أصيب بالعمى وعزل عن وظيفته المعمارية التى استقر فيها بعده ابنه شهاب الدين أحمد الذى حمل مع فئات المعلمين والصناع إلى اسطنبول بأمر السلطان سليم وتوفى ابن الطولونى سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) ومن مؤلفات ابن الطولونى التاريخية كتاب "الزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية" وهو مختصر يبدأ بظهور الإسلام وينتهى بحوادث السلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك بمصر .

- ابن زنبيل الرمالم : أحمد بن على بن أحمد بن زنبيل المحلى الرمالم لا توضح المصادر عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثمانى فى وقت ما، وأنه رافق جيش السلطان سليم أثناء الحروب التى أنهت دولة المماليك بمصر والشام، وأنه حضر جنازة طومان باى آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان سليم العثمانى اشتغل بالرمل والتنجيم فلقب "بالرمالم" وكتب فيها "المقالات فى السحر والرمل" و"قانون النجامة" ، كما كتب فى التاريخ كتاب "تاريخ أخذ مصر من الجراكسة" وهو سجل واف لحوادث الفتح العثمانى لمصر وتشير المصادر إلى أن ابن زنبيل توفى بعد سنة (٩٦٠هـ/١٥٥٢م) .

- ابن طولون الدمشقي : محمد بن علي بن أحمد (المدعو محمد) الشهير بابن طولون الدمشقي، الصالحى، الحنفى - شمس الدين أبو عبد الله - ولد سنة (١٤٧٥هـ/١٠٨٠م) بصالحية دمشق بالسهم الأعلى قرب المدرسة الحاجبية، وإليها نسبته، توفيت أمه أزدان الرومية وهو فى سن الطفولة، تعلم على شيوخ دمشق ومنهم عمه القاضى جمال الدين يوسف الحنفى مفتى دار العدل بها، والمؤرخ الدمشقى محيى الدين النعيمى، والمحدث جمال الدين ابن المبرد، ثم رحل فى طلب العلم إلى مكة سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) فسمع بها على الحافظ عز الدين بن فهد وأجازه السيوطى إجازة بالمكاتبة من القاهرة، بلغت عدة شيوخه خمسمائة، وله مشاركة فى سائر العلوم حتى فى التعبير والطب وله نظم وليس بشاعر، واشتغل ابن طولون بوظائف عديدة من تدريس وإقراء وإمامة وخطابة، ومشاركة وقاهة ومشیخة، بمختلف معاهد دمشق وجوامعها وزواياها وخوانقها، كانت أوقاته كلها معمورة بالعلم والعبادة وظل على وظائفه برغم ماجرى على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح العثمانى ولم يتزوج ولم يعقب وتوفى بدمشق فى ١١ جمادى الأولى سنة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، من مؤلفاته التاريخية "مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان" وهو الكتاب الذى يعد من المصادر الهامة فى كتابه تاريخ مصر فى أواخر العصر المملوكى وأوائل العصر العثمانى، لإنفراده بحقائق تاريخية هامة فى الفتح العثمانى وأسبابه وحوادثه، واشتماله على ما رآه من حوادث ذلك الفتح بدمشق، مما لم يتح لإبن إياس أن يراه وهو بالقاهرة، ومنها أيضا كتاب "الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام" الذى طبع بعنوان "قضاة دمشق" وله "إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى".

كما ألف فى التراجم عدة كتب أهمها كتاب "سلك الجمان فيما وقع لى من تراجم ملوك بنى عثمان".

واعتبر محمد بن طولون أن مؤسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون جده الأعلى، لذلك قام بكتابة كتابين عن تاريخ الدولة الطولونية أحدهما هو كتاب

"العقود اللؤلؤية في الدولة الطولونية" وثانيهما كتاب "حور العيون في تاريخ ابن طولون" وهو تلخيص لكتاب أبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي "سيرة أحمد بن طولون" هذا وغير ذلك كثير في مختلف العلوم والمواضيع والصناعات.

المالِك

بداية ظهور المالِك في العالم الإسلامي :

اتخذ لفظ المالِك معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى فأصبح يقصد بالمالِك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً نتيجة للأسر فى الحرب أو الشراء من التجار (١) ، ويرجع ظهور المالِك فى العالم الإسلامى إلى ما قبل قيام دولتهم سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) بأمد طويل، وكان الخلفاء العبّاسيون أول من استخدم المالِك - أو الرقيق الأبيض - وإعتمروا عليهم فى توطيد نفوذهم والمعروف أن الدولة العبّاسية قامت على أكتاف الفرس، ولكن الخلفاء العبّاسيين وبخاصة أيام الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٣م) أخذوا يخشون إزدياد نفوذ الفرس ويتشككون فيهم فأرادوا أن يحملوا أنفسهم بجيش من المالِك الترك ويعتمدون عليهم فى دعم نفوذهم وسلطانهم.

لذلك كان المأمون أول من استكثر من شراء المالِك، ثم حدا حذوه الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٣م) إذ شكل فرقة عسكرية من الأتراك و: عني بإقتناء أبناء الجنس صغاراً حتى بلغت عدة ممالِكه بضعة عشر ألفاً، وإملاّت بغداد بأولئك العسكر الجدد الذين ألبسهم المعتصم أفخر الملابس، وسمح لهم بركوب الخيل فى شوارع بغداد، مما أدى إلى اصطدامهم بالناس فى الطرقات ، وإثارة سخط أهل العاصمة ، مما حمله على أن ينشئ لهم مدينة خاصة فى سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م إلى الشمال من بغداد هى مدينة سامراء أو سر من رأى، والواقع أن المعتصم أراد باستخدام الجنس التركى أن يتخلص من النفوذ الفارسى والعربى فى الجيش والحكومة سواء لذا لجا

(١) عن الرق، تاريخه ومصادره وموقف الحضارات السابقة والديانات السامرية من الرق: انظر : د. عبد

العزيز محمود عبد الدايم، الرق فى مصر فى العصور الوسطى - القاهرة مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٣م.

إلى تملك الأتراك بالشراء وتربيتهم وإعدادهم للجيش، إعتقاداً منه خطأ بأنهم مجردون من الطموح الذي إتصف به الفرس، ومن العصبية التي عرف بها العرب، ولكن سرعان ما أخذ أولئك الأتراك المماليك في التدخل في شؤون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاءون، بعد أن نجحوا في أن يضعفوا النفوذ العربي وكذا النفوذ الفارسي.

ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة تحكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى إلى إعتقادهم على ما يشترطونه من مماليك في تأليف جيوش يحققون بها مطامعهم، وسرعان ما يحظى هؤلاء المماليك الصغار بعطف سادتهم فيتحذرون ويزداد نفوذهم حتى يسيطرون على مقاليد الأمور في البلاد التي استوطنوها.

وكانت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت هذا التطور نحو إزدياد نفوذ المماليك حتى تملكوا البلاد، فعلاقة المماليك بمصر أبعد عهداً من قيام دولتهم بها.

وقد كان أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م) أحد أبناء هؤلاء المماليك الأتراك، كان أبوه طولون مولى نوح بن أسد بن سامان الساماني عامل بخارى وخراسان، أهداه نوح في جملة مماليك إلى الخليفة المأمون وهو بمرور سنة (٢٠٠هـ / ٨١٥م) فتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى صار رئيس الحرس الخلفي وتمكن من تربية ابنه أو متبناه أحد تربية عسكرية إسلامية أهله لأن يصبح حاكماً على مصر سنة (٢٥٤هـ / ٨٦٨م) نيابة عن زوج أمه باكباك صاحب إقطاعها.

ونتيجة لطمع أحمد بن طولون في أن يحقق لنفسه شيئاً من الإستقلال بمصر انتهاز فرصة ثورة عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني عامل فلسطين والأردن على الخلافة، فأرسل يستأذن الخلافة في الإكتثار من قواته وتكوين الجيش من الموالي والعبيد، فأذن له الخليفة بل كتب إلى ابن المدبر عامل

الخراج يأمره بأن يمدّه بحاجته من المال، وتجلت همة ابن طولون وعبقريته وبعد نظره في تكوين الجيش، فأكثر من شراء المماليك الديالمة سكان جنوب بحر قزوين وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف مملوك، وبلغ مشتري عبيده السود أربعين ألفاً وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة.

ويذكر المؤرخون أن ابن طولون كان شديد الحرص على العناية بهم وتوفير أسباب الراحة لهم مع التدريب الشاق ليكونوا على استعداد تام، ونتيجة لضخامة هذا الجيش المكون من "المماليك والعبيد" اضطر أحمد بن طولون إلى بناء ثكنات لهم وهي القطائع التي شرحتها لنا المؤرخ أبو المحاسن أنها كانت "بمعنى الأطباق التي للمماليك السلطانية الآن" أي في عصر المماليك، وكانت أشهر أسواق الرقيق في الدولة الطولونية رحبة دار أحمد بن المدير، ونشير إلى أن كثيراً ممن دخل الجيوش الطولونية رقيقاً تحرر فيما بعد.

ثم جاءت الدولة الأخشيدية (٣٢٣-٥٣٥هـ/٩٣٥-٩٦٩م) فسارت على سنة أسلافها الطولونيين في اتخاذ المماليك الذين ينخرطون في سلك الجيش بعد عقدهم وكان الجيش يتألف من ترك وسودانيين ومغاربة ومماليك وأجناس مختلفة وقد بلغت عدة ذلك الجيش أربعمائة ألف جندي عدا حرسه الخاص الذي بلغ عدده ثمانية آلاف مملوك، وكانت ممالিকে تحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك ولما جاء الفاطميون إلى مصر (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) كانوا في حاجة إلى جيش كبير يوطد أركان دولتهم فيها ويسهل عليهم ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى بلاد الشرق، وكان جيشهم يتألف من عدة عناصر أهمها المغاربة الذين قامت الدولة على أكتافهم وقد كانوا عدة طوائف منها الكتامية والباطلية والمصامدة والجودية، وكذلك الصقالبة الذين أتوا بهم من المغرب وكذلك الأتراك، ونتيجة للصراعات والتنافس بين الأتراك والمغاربة اضطر الخليفة الحاكم إلى الاستئثار من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين وفي عهد المستنصر مال إليهم بصورة كبيرة لأن أمة كانت أمة سوداء فبلغ عددهم خمسين ألف عبد ١٠ طوائف العسكر الأخرى.

ويعتبر الفاطميون هم أول من وضع نظاماً تربوياً للمماليك في مصر،
روى المقرئ أن الأساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيراً من أسرى
الحروب، وجرت العادة "أن الأسرى ينزل بهم في المناخ - جهة الإسماعيلية
لقاهم - اليوم (ميدان التحرير الآن) فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى،
بالنساء والأطفال إلى القصر بعدما يعطى منهم الوزير طائفة ويفرق
ما بقى من النساء على الجهات والأقارب فيستخدمونهن ويربونهن حتى يتقن
المصناعات، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة
والرماية. ويقال لهم الترابي، وفيهم من صار أميراً من صبيان خاص الخليفة"،
ولكن لم تخصص هذه الطائفة للحياة الحربية وميادين القتال بل ظلت طائفة
حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر.

وهناك نظام تربوي آخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين
بالصبيان الحجرية وهم فرقة من أولاد الأجناد وعناصر المماليك ، بلغ عددها
خمسة آلاف رجل، أسكنها المعز في سبع حجر وتقع ما بين باب النصر إلى
باب الجوانية. وهي تشبه كما يقول المقرئ الطباقي، ولكل حجرة اسم تعرف
به وهي المنصورة والفتح والجديدة، وكان هؤلاء المجندون يخضعون لنظام
دقيق فجعل لكل مائة زماماً ونقيباً وزم الكل بأمير، وقسموا إلى قسمين
"الحجرية الكبار" و "الحجرية الصغار" ولعل هذا التمييز راجع إلى سن
المجندين أو إلى التفوق والشجاعة في التدريب على الحرب، وقد كان على
هؤلاء المجندين أن يتعلموا إمتطاء سهوة الجواد بمهارة ، ولذلك أعد لهم
إصطبل يرسم دوابهم يعرف باسم "إصطبل الحجرية" بجوار باب الفتوح وكان
ما بين الإصطبل والحجر فضاء متسعاً، وكان يجب على هذه العناصر أن
تكون دائماً متدنية للحرب فإذا دعى أحدهم "لا يكون له ما يمنعه" على القتال،
ومتى عرف . . . بالشجاعة رقى إلى مرتبة الإمرة أو التقدمة مثال ذلك على
ابن السلا.

ولما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين (٥٦٧ - ٦٤٨هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠م)

سار الأيوبيون على سنة السلاجقة وأتا بكتيم في الإكثار من المماليك الأتراك واستخدمهم في الجيش ، فكان جيش صلاح الدين يتكون من عدة فرق منها المماليك والأمراء النورية نسبة إلى السلطان نور الدين محمود منهم مملوكة عز الدين جرديك الذى قتل شاور الوزير الفاطمى ومنهم غريس الدين قليح وشرف الدين برغش وعين الدولة بن الياروقى، كما كان لبعض القواد فرق من المماليك تنسب إليهم وخضعت فى جيش صلاح الدين منها المماليك الأسيدي نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وعدتهم خمسمائة مملوك، مالوا إلى صلاح الدين عقب وفاة عمه سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) وناصروه فى الخلاف الواقع بينه وبين القادة النوريين فيمن يتولى الوزارة الفاطمية، وكان يضرب بهم المثل فى الشجاعة والإقدام ومن أعيانهم الفقيه حيسى الكارى، وبياء الدين قراقوش وزير أشغال صلاح الدين وصاحب الأخبار الطوال فى بناء حاضرة الحربية .

وقام صلاح الدين بشراء مجموعة من المماليك الأتراك وكون منهم فرقة لنفسه يقال لهم المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه "الملك الناصر" الذى أضفاه عليه الخليفة العاضد حين ولاه الوزارة أو جند الحلقة، ومن كبار أمرائهم علم الدين كرجى، وسيف الدين منتز الدورى، وأبيك السنسى وركن الدين منكورش، وفارس الدين ميمون القصرى، وكان قائدهم الأمير أبى الميجاء وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م حدث كثير من المنزعات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، وذلك راجع إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثاً خاضعاً يقسم أنصبة متساوية وخير متساوية بين أبناء البيت الأيوبي، وهو ما جرى عليه العرف فى دول الشرق والغرب أوائل العصور الوسطى، كما يرجع إلى حرص صلاح الدين أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم مثل أخيه العادل وأقدر القادرين على إمتلاك ناصية الدولة بعدة بناء على وصية علم الدين سليمان بن جندرله، وظل النزاع بين أبناء البيت الأيوبي قائماً حتى تمكن العادل من توحيد كلمة بنى أيوب .

وكان من الطبيعي أن تزداد أعداد المماليك الأتراك فى أثناء النزاع بين

أبناء صلاح الدين وعمهم العادل، وأن يستمر بنو أيوب فى جلب الرقيق لتغذية جيوشهم، ولذا يحفل التاريخ الأيوبي بأسماء فرق المماليك، فنجد المماليك العزيزية نسبة إلى العزيز صلاح الدين الذين وصفوا بأنهم ملوكاً فى الأرض، والعادلية نسبة إلى العادل، والأشرفية نسبة إلى الأشرف موسى بن العادل، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل، وهكذا.

وكان أكثر الأيوبيين إستجلاباً للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٥٦٤٧هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩م) الذى أجمع المؤرخون على القول بأنه أكثر من شراء المماليك حتى كان معظم جيشه منهم، ورباهم تربية عسكرية واهتم بهم وقبض على الأمراء الذين كانوا فى خدمة أبيه وأخيه واعتقلهم واستعاض عنهم بأن أعطى ممالكهم الأمريات والمناصب، فصاروا بطانته والمحيطين به، ولكنهم سرعان ما كثر فسادهم وعبثهم وشرهم بعدما كانت تأخذهم "الرعدة عندما يشاهدونه خوفاً منه ولا يبقى أحد منهم مع أحد"، حتى ضج الأهالى من عبثهم وإعتداءاتهم، ففكر الملك الصالح أيوب فى نقلهم إلى جزيرة الروضة فأسكنهم بها، كما اتخذها مقراً لملكه سنة (٦٣٨هـ / ١٢٤١م). وكان معظم المماليك (الرقيق الأبيض) الذين جلبهم السلاطين الأيوبيون من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وأسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر بالإضافة إلى ممالك جلبوا من البلاد الأوربية.

وكان للنصر الكبير الذى حققه المماليك على الصليبيين - الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا - فى المنصورة فى يوم الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠م الموافق ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ حتى ذكر المقرئى أنهم أبلوا بلاء حسناً ويات لهم أثر جميل بعد أن "كادت الكسرة أن تكون فإن الملك ريدا فرنس وصل بنفسه (١) إلى باب قصر السلطان. إلا أن الله -ألفه، أخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التى تعرف بالبحرية

ونتيجة لسوء معاملة أعضاء ثورة ١٩٥٤ الذين تصحح أيوب لزواج أبيه شجر الدر واتهامه لها بأنها أخفت ثروة أبيه، وبضمارة النشر للمماليك بعد أن سيطر عليه شعور بأنهم يزاحمون الحكم ويقنعونه سنطته، أن قتله المماليك في المحرم عام ٦٤٨هـ إبريل ١٢٥٠م، ويحتبر ثورة انشاء آخر سلاطين الأيوبيين في مصر فقد استقر رأى ائمتك على تونية شجر الدر زوجة الصالح التي كانت من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك لذلك اعتبرها المقريزي "هي أول من ملك ملك مصر من ملوك الترك المماليك".

(١) المقصود هنا Count of Antois وليس ملك فرنسا.

انظر : جوانفيل : انديس لويس حياته وحملاته على مصر واثام ، ترجمة د.

حسن حبشى ص ١١٤.

قيام دولة الماليك

نهاية الدولة الأيوبية في مصر :

تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب من الوصول إلى منصب السلطنة سنة (٦٣٧هـ / ١٢٤٠م) بفضل مماليكه الذين دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني (٦٣٥ - ٦٣٧هـ / ١٢٣٧ - ١٢٤٠م) بن الملك الكامل الذي كان طفلاً غراً ليس له صفات أبيه، وكان الملك الصالح ذا شخصية قوية، شهد عصره حدثين خطيرين أولهما : استمرار تحرك وزحف المنول في الأراضي الإسلامية بعد وفاة جنكيزخان سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م)، فقد أوغل باطو بن دوش خان في أذربيجان حتى أزال الدولة الخوارزمية وقتل سلطانها جلال الدين خوارزم شاه سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) بعد أن قاومتهم مقاومة عنيفة ، وكان من نتائج القضاء على الدولة الخوارزمية أن تفرق جندها وساعت أحوالهم، وكان إتهيار المقاومة الخوارزمية إيذان بقرب الخطر المغولي على جوف البلاد الإسلامية، فتقدم الجنود الخوارزمية يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يريد استخدامهم من ملوك الدول الإسلامية المجاورة فقصد فريق منهم بلاد سلاجقة الروم فاستخدمهم السلطان علاء الدين كيقيباذ السلجوقي إلى أن مات سنة (٦٣٤هـ / ١٢٣٦م) وفي عهد ابنه السلطان غياث الدين ساءت علاقته بالخوارزمية فهربوا من بلاده وعبروا الفرات وعددهم إثنا عشر ألف فارس، وقد اتصل بعض هؤلاء الخوارزمية بجيش الملك الصالح نجم الدين أيوب في الشام ومصر، فأفاد من خدمتهم وخاصة في الشام بعد أن استمالهم فقد تزوج مقدمهم حسام الدين بركة خان من أخت الصالح من أمه .

وحدث أن وصلت إلى الشام في ذلك الوقت إحدى الحملات الصليبية التي كان من رجالها سيمون دي منتقرات - فتقدم الملك الصالح ومعه هؤلاء الخوارزمية إلى بيت المقدس فدخلوها في صفر سنة (٦٤٢هـ / ١١ يوليو سنة ١٢٤٤م) (١).

وتم تحرير مدينة القدس وعادت نهائياً إلى المسلمين على أيدي الخوارزميين، ولم يقدر لجيش مسيحي أن يدخل أبوابها إلا بعد حوالي سبعة قرون أثناء الحرب العالمية بقيادة اللبني .

وثاني الخطيرين اللذين شهدهما عصر الصالح نجم الدين أيوب هو : حملة لويس التاسع على مصر، ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس استثار الغرب الأوربي من جديد، فبدأت الدعوة لحرب صليبية جديدة قوية، وكان أكبر المتحمسين لها الملك القديس لويس التاسع الذي خرج على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر، ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج من غرب أوروبا بقصد الإستيلاء على مصر، فقد سبق أن تعرضت مصر قبل ذلك بثلاثين سنة لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة بزعامة حنا برين، ولكن حملة لويس التاسع على مصر كانت أعظم خطراً، لكونها أكثر عدداً وعدة وأوفر تنظيمًا، فضلاً عن أنه كان على رأسها ملك من أعظم ملوك الغرب الأوربي وأشدهم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية.

وقد حاول لويس عند التمهيد للحملة أن يزيل ما بين البابا إنوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثاني من خلاف، ولكنه لم يوفق، وقد دعا البابا في نفس الجلسة التي أعلنت فيها الحملة الصليبية على مصر إلى حملة صليبية أخرى على فردريك بإعتباره خارجاً على الكنيسة محروماً منها .

(١) انظر : عبد العزيز عبد السلام : بيت المقدس في العصر الأيوبي - القاهرة - دار الثقافة

ومن أسباب خطورة حملة لويس التاسع أنه أتى إلى مصر في الوقت الذي كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضاً خطيراً ولا يقوى على الحركة لمنازلتهم، فاستولى الصليبيون على دمياط بعد أن انسحب الأمير فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة إلى المعسكر السلطاني بأشموم طنّاح ، ونزوح أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين، وتركوا مراكب التعديّة فعبرت جيوش لويس عليها بدون عناء واحتلوا المدينة بسهولة .

أخطأ لويس التاسع بتأخره في التقدّم جنوباً، إذ كان يجب عليه أن يتقدم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان، وقبل أن يفيق المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط، غير أنه أقام في دمياط ستة أشهر منتظراً وصول مراكبه التي بعثتها العواصف، كما أن جهله وجهل قواته بالطريق المؤدى إلى القاهرة جعله يستغرق شهراً كاملاً في قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة مما أتاح للمسلمين الفرصة لجمع شملهم وضم صفوفهم .

وفي الوقت الذي شرع الصليبيون فيه في الزحف من دمياط إلى المنصورة توفي الصالح أيوب (سنة ٦٤٧هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م)، قامت زوجته شجر الدر الأرمينية الأصل والتي كانت على جانب وافر من الذكاء والجمال ، والتي قدرت خطورة الموقف بتدبير شئون الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى ابن زوجها وولى عهده تورانشاه تحثه على الرحيل من ولايته في حصن كيفا بأطراف العراق والقُدوم إلى مصر ليعتلى السلطنة بعد أبيه، واستمرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً .

وعلى الرغم من هذه الإحتياطات علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب فرأى لويس التاسع أن يسرع بتوجيه ضربته قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم

فرحف جنوباً حتى وصل إلى قناة أشموم طنجاح، فصار على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة ولمواصله التقدم جنوباً، تعين على الفرنسيين أن يعبروا أما فرع دمياط أو قناة أشموم، وفي تلك الأثناء تقدم أحد أهالي بلدة سلامور وعرض على الصليبيين أن يدلهم على مخاضة كبيرة جهة أشموم طنجاح في مقابل مبلغ من المال فعبرت الخيالة الصليبية دون أن تلقى مقاومة أثناء عبورها واندفعت في اتجاه المنصورة واقتحمتها مقدمة الجيش الصليبي بقيادة روبرت كونت أرتوا شقيق لويس التاسع Robert Count d' Artois ، وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد فخر الدين يوسف قائد الجيوش المصرية، فانهزم المسلمون وتفرقوا وفي تلك المرحلة الحرجة ظهر المماليك البحرية وثبتوا أمام هذا الهجوم العنيف وحالوا بين الصليبيين وبين ما أرادوا من الاستيلاء على قصر السلطان وحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة، ثم إن المماليك لم يتركوا الصليبيين يعودون إلى دمياط سالمين، وإنما طاردوهم وأنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبي بأكمله تقريباً بين أسرى وقتلى، وتمكن المسلمون من أسر الملك لويس التاسع وأسر من معه من الأشراف والفرسان في قرية منية أبي عبد الله [ميت الخولى عبد الله] بالقرب من المنصورة، ثم سيق لويس التاسع إلى مدينة المنصورة حيث سجن بدار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وهكذا وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة إلى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية، ولم يبق إلا المفاوضات من أجل الصلح .

وفي تلك الأثناء وصل إلى مصر المعظم تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب وقد أعلن تورانشاه سلطاناً في دمشق وهو في طريقه إلى مصر، فتيمن الناس بطبعته وترقبوا خيراً على يديه، ولكن المصادر أجمعت على

أن السلطان الجديد لم يكن رجل الساعة، وعلى أنه جمع بين سوء الخلق والجهل بشئون الحكم والسياسة، كما أنه كان سلطاناً جديداً يريد أن يشعر بسطوته وخطورة منصبه، لذلك وجد تورانشاه فى المماليك البحرية - أصحاب الفضل فى تخليص البلاد من خطر الصليبيين - أنهم يزاحمونه الحكم ويقاسمونه سلطانه فأرتاب فيهم ، وتوجس خيفة من نفوذهم ، فأعرض عنهم وقرب إليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق ، وأحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده ، ولذا تقموا عليه وأضمرُوا له السوء .

ولم يقتصر تورانشاه على مناوأة أمراء جيشه وكبار رجال دولته، بل تنكر لزوج أبيه شجر الدر، التى حفظت له عرشه وملكه بعد وفاة أبيه، فبعث إليها يتهددها ويطالبها بمال أبيه، فكانت تجيبه بأن الأموال صرفت كلها فى شئون الحرب وشئون البلاد العامة، ويقال أنها داخلها منه خوف شديد فمضت إلى القدس حيناً من الزمن مخافة غدره ولما بدا منه الهوج والخفة كما كابتت المماليك البحرية تشكو لهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التى أدتها له من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة وكان المماليك البحرية الصالحية يخلصون لشجر الدر لأنها من حريم أستاذهم الذى اشتراهم، وبحكم رابطة الزمالة (المعبر عنها فى المصادر المعاصرة بالخشداشية) وهى من أقوى الروابط فى التاريخ المملوكى، فأجمع المماليك على أن يقتلوا تورانشاه قبل أن يقتلهم هو، وقام بتنفيذ هذه الخطة أربعة من الأمراء منهم فارس الدين اقطاي، وبيبرس البندقدارى عند نزول تورانشاه فى فارسكور وبعد فراغه من طعام إبطاره، تقدم إليه بيبرس وضربه بالسيف فأطار أصابع يده، وعندئذ أسرع تورانشاه ليحتفى بكشك خشبى كان قد أعد لإقامته فأغلق بابه واحتفى بأعلى البرج، فأضرم البحرية

النار فى البرج، وعندئذ ألقى تورانشاه بنفسه فى النيل وقد اشتعلت النار فى ثيابه أملاً فى أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله دون أن يتقدم لنجدته أحد فمات على قول المقريزى جريحاً غريقاً محترقاً ثم إنتشلت جثة السلطان من النيل، وتركت للقاء فى العراء على شاطئه ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على دفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسى وعندئذ دفنت فى مكانها، ويقتل تورانشاه فى (صباح يوم الإثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ الموافق ٢ مايو سنة ١٢٥٠م) ينتهى عصر دولة الأيوبيين فى مصر، بعد أن حكموا البلاد إحدى وثمانين سنة، واقاموا على العرش شجر الدر التى تعتبر من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك لذلك إعتبرها المقريزى "أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك" فباشرت سلطتها إستناداً على أمومتها لابن متوفى من أبناء السلطان الصالح أيوب واعتماداً على تأييد المماليك الصالحة لها .

شجر الدر أولى سلاطين المماليك :

كانت شجر الدر أرمنية، على جانب وافر من الذكاء والجمال، بعثها الخليفة المستعصم بالله العباسى من بغداد إلى نجم الدين أيوب فى القاهرة فولدت له ابنه خليل وأصبحت أم ولد فى حريمه، وتوطدت مكانتها لديه بمولد ابنها حتى لقد سميت "أم خليل" وصحبتة فى رحيله إلى بلاد المشرق فى حياة أبيه السلطان الكامل، ثم ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر داود صاحب حلب بالكرك سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) ولما اعتلى الصالح أيوب عرش السلطنة الأيوبية فى مصر إرتفع شأن شجر الدر، ثم اعتقها أيوب وتزوجها، ويبدو أن قتلة تورانشاه وجدوا أن الأمور ليست مهياً بعد لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة، فأجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب وأضعين فى الإعتبار

أنها كانت زوج استاذهم الصالح، وأم ولده خليل الذى مات طفلاً، وأنها أبدت استعداداً لتولى السلطنة عندما أوصت بكتمان خبر وفاة زوجها أيوب، وأشرفت بحزمها على إدارة المعركة قبل أن يصل ابن زوجها تورانشاه .

ولكن قيام امرأة فى حكم المسلمين "لم يقع قبلها ولا بعدها"، وقد أحست شجر الدر نفسها بحرج موقفها، فكانت لا توقع باسمها على المناشير، وإنما جعل توقيعها "والدة خليل"، كذلك نقش اسمها على السكة "المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل وكان الخطباء فى المساجد يقولون فى الدعاء لها " واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح" أى أن شجر الدر تخرجت أن تذكر اسمها صراحة فى المناسبات الرسمية .

وكانت أولى المشاكل التى واجهت شجر الدر فى سلطنتها هى مشكلة الصليبيين الذين ما زالوا يحتلون دمياط، فأرسلت الأمير حسام الدين أبو على محمد الهذبانى لإنهاء المفاوضات التى بدأت معهم على عهد تورانشاه، فاتفق مع الملك لويس على تسليم دمياط، وإخلاء سبيله وسييل من معه من كبار الأسرى وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا وقامت ملكة فرنسا مرجريت دى بروفانس Margret de Provence التى رافقت زوجها فى تلك الحملة وبقيت بدمياط تجمع مبلغ نصف الفدية .

وبذلك نجحت شجر الدر فى تخليص البلاد من الحملة الصليبية السابعة التى اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى فى مصر على أن هذا العمل الرائع لم يكف لتدعيم مركز شجر الدر، وقد كان التقليد المتبع فى عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسى وأرسل إليه التقليد بذلك، فكتب أمراء المماليك

إلى الخليفة العباسي المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنة شجر الدر، غير أن الخليفة عاب عليهم إقامة امرأة في السلطنة وكتب إليهم قائلاً : "إن كانت الرجال قد عدت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً" .

ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم - وهو الأمير عز الدين أيك أتابك العسكر السلطنة، ولقب بالملك المعز، وتزوج من شجر الدر التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن ظلت في الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها مهارة نادرة وكفاية ممتازة .

الملك المعز عز الدين أيك التركماني: (٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م)

تولى المعز أيك السلطنة ، وتلقب بـ "الملك المعز" ، ولم يكن أيك أكبر أمراء المماليك سناً، أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي، والظاهر بيبرس مما جعل بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن يتهمه "بضعف النفوذ والشوكة، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا، كذلك يرى بعض المستشرقين مثل بلوشيه Blochet أن أيك كان يحكم بصفتة زوج الملكة .

ورغم ذلك فقد مدحه أبي المحاسن عندما ترجم له في المنهل الصافي ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة ، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق .

كان أيك أحد المماليك الصالحية، ولكنه لم يكن من فرقة المماليك البحرية ترقى في خدمة الصالح أيوب حتى تولى وظيفة الجاشنكير في بلاط السلطان وفي سلطنة شجر الدر صار أيك قائداً للجيش أي أتابكا للعسكر، وقد واجه مشاكل وصعاباً كثيرة منها تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج ، وثورات الأعراب في الداخل ، ثم خطر زملاؤه المماليك في

دخل البلاد وخارجها .

أولاً : الخطر الأيوبي :

تشير بعض المصادر مثل ابن إياس أن كثيراً من المماليك البحرية كانوا لا يزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعى فى عرش البلاد، فلم يرضوا عن سلطنة أيبك، كما أن ملوك الأيوبيين فى الشام وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق كانوا يعتبرون مصر جزءاً من ملكهم الموروث، ويعتبرون ما قام به المماليك من قتل تورانشاه وتولية شجر الدر ثم المعز أيبك نوعاً من العقوق. والخروج يجب معاقبتهم عليه، كما أن المماليك لا ينتمون إلى أسرة مالكة، كما أنهم ليسوا أحراراً ، بل كما قال بعض المؤرخين المعاصرين "قد مسهم الرق" .

لذلك لجأ المماليك إلى حيلة يتحايلون بها على تهدئة بنى أيوب، فاستقر رأى على أن يشترك فى الحكم مع المعز عز الدين أيبك طفل صغير من أبناء البيت الأيوبي اسمه الأشرف موسى - حفيد الكامل محمد وكان عمره ست سنوات، ومن البديهي أن الأشرف لم يكن له سوى الاسم فى هذه الشراكة، وأن جميع الأمور كانت بيد المعز أيبك .

كما أعلن المعز أن مصر تابعة كما كانت قديماً للخلافة العباسية.

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الملك الناصر لم تنطل الحيلة عليهم فوصل الناصر بجيشه واشتبك مع جيش المماليك فى معركة بالقرب من الصالحية، انتصر فيها المماليك، وفر الناصر ومن معه من أفراد البيت الأيوبي إلى الشام، فكان هذا النصر أول نصر أحرزه المماليك ضد الأيوبيين وكان من نتائجه تثبيت أركان دولة المماليك الناشئة ، وقيام المعز أيبك بعزل الطفل الأيوبي - شريكه فى الحكم - واستقل نهائياً بملك مصر وفى هذه

الأثناء كان لويس التاسع بعد أن خرج من دمياط يجر أزيال الخيبة والنشل لم يتجه إلى وطنه فرنسا بل أثر الذهاب إلى فلسطين حيث أقام فيها أربع سنوات، يرقب الموقف بين الأيوبيين والمماليك، دون أن يجاهر بالإنضمام إلى جهة معينة، ويقال أن الناصر صاحب حلب عرض عليه أن يعقد معه حلفاً لمحاربة المماليك ولكن الملك لويس رفض لأنه لم يكن قد نسى بعد مرارة ما ذاقه على أيدي المماليك، كما كان يعلم أنه قد ترك في مصر عشرة آلاف أسير، وأن حياة هؤلاء الأسرى ستكون لا محالة معرضة لالتحاق لو أنه دخل في معركة جديدة مع المماليك .

فلما إنجلي الموقف بانتصار المماليك وهزيمة الناصر يوسف .

بادر المماليك بتجديد إتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والأيوبيين واستغل لويس التاسع الفرصة لتعديل شروط المعاهدة المعقودة بينه وبين المماليك، واستجاب المعز أيك لرغباته ليضمن عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والأيوبيين، ووافق المماليك في الإتفاقية الجديدة سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) على إطلاق سراح بقية أسرى الصليبيين في مصر، وعلى التنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس .

وفي تلك الأثناء توفيت الملكة بلانش Blanche القشتالية والدة لويس التاسع التي كانت تحكم فرنسا في غيابه كوصية على العرش فاضطر لويس إلى الرجوع إلى بلاده فأبحر من عكا في سنة (٦٥٢هـ/أبريل ١٢٥٤م) ووصل إلى فرنسا في يوليو من نفس السنة .

وفي هذا الوقت ظهر خطر جديد أشد من الخطر الصليبي، وهو الخطر المغولي الذي كانت جحافلُه قد اجتاحت الحدود الإسلامية بقيادة جنكيز خان وقضت على الدولة الخوارزمية التي كانت الدرع الحامي لجميع الدول الإسلامية في غرب آسيا والشرق الأدنى من هجمات المغول وغيرهم من

الأسويين، وبدأ الخليفة المستعصم يدرك أمام هذا الخطر الداهم أنه لا بد من توحيد القوى الإسلامية المتجاورة لتقف إلى جانبه في محنته المقبلة، لذلك يادر الخليفة المستعصم بإرسال رسول هو نجم الدين الأيوبي لعقد الصلح بين الملك الناصر صاحب حلب والمعز أيك سلطان مصر، وتمكن من عقد صلح بينهما فى سنة (٦٥١هـ/أبريل ١٢٥٣م) على أن يكون للمماليك مصر حتى نهر الأردن بما فى ذلك غزة وبيت المقدس ولأيوبيين ما وراء ذلك من بلاد الشام ، وأن يتفقا على حرب التتار

وبهذا انتهت العبة الأولى فى تأسيس الدولة المملوكية الناشئة وهو النزاع بين المماليك والأيوبيين، ولكنه لم ينته فى الواقع فقد بقيت له ذبول ستنتهى نهائياً فى عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) عندما حاولوا مهاجمة دولة المماليك الملك المغيث عمر صاحب الكرك، ففضى بيبرس على حركته التى لم تكن الأولى لأنه فى عهد نور الدين على بن عز الدين أيك سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) حاول الإغارة على مصر واستعادتها من المماليك فتصدى له نائب السلطنة سيف الدين قطز عند الحدسية وهزمه هزيمة شنعاء ارتد بعدها إلى الكرك، المهم أن النزاع مع الأيوبيين انتهى مؤقتاً فى عهد أيك ولكن كانت هناك عتبات أخرى أمم أيك معظمها عتبات داخلية من أهمها :

ثانياً : ثورة العربان فى صعيد مصر سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) :

من المعروف تاريخياً أن مصر بعد الفتح العربى استوطنتها قبائل عربية كثيرة، استقرت فى الصعيد وفى بعض محافظات (مديريات) الوجه البحرى وخاصة البحيرة والشرقية، و أن هذه القبائل احترفت الزراعة وكانت

تتمتع بمركز اجتماعى أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التى كانوا يؤدونها للدولة فى وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية، وكان تعسف أمراء المماليك فى جمع الضرائب إلى جانب أنف هذه القبائل أن تخضع للدولة الجديدة ومناداتهم بأنهم أصحاب البلاد وأحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد، وثارت هذه القبائل بزعامة شريف علوى اسمه حصن الدين بن ثعلب وكانوا فى كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل مشاركتهم فى حروب الصليبيين، وإزاء ذلك اضطر السلطان أيبك أن يستعين بالمماليك البحرية وزعيمهم أقطاي، فخرج أقطاي على رأس جيش قوامه خمسة آلاف فارس من خيرة المماليك تمكن من إخضاع هذه الثورة وقتل كبار الأمراء العرب والقبض على زعيمها حصن الدين بن ثعلب حيث سجن فى الإسكندرية، وبذلك تمكن أيبك من التغلب على أحد الصعاب الخطيرة المهددة لقيام دولة المماليك .

ثالثاً : خطر التنافس بين أمراء المماليك :

مما لا شك فيه أنه إذا كان أيبك قد نجح فى التغلب على الخطر الخارجى المتمثل فى الأيوبيين والصليبيين والخطر الداخلى المتمثل فى ثورة الأعراب، فإن ذلك كان بفض مساعدة المماليك البحرية وزعيمهم أقطاي الذى ارتفع شأنه بعد نجاحه فى القضاء على ثورة الأعراب، وكان أيبك يخشى من طائفة المماليك البحرية لعلمه بقوتها وخطرها، فعمل على تقوية نفسه بإنشاء فرقة من المماليك عرفت بالمعزية نسبة إلى لقبه "الملك المعز" كما عين مملوكه قطز المعزى نائباً للسلطنة .

ورأى أقطاي نفسه أحق بالسلطنة من أيبك، فصار لا يظهر فى مكان إلا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين، وكان خشداشيته (زملاؤه) يلقبونه

فيما بينهم بالملك الجواد، وأخيراً خطب أقطاي إحدى أميرات البيت الأيوبي وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة مما يجعل له سنداً شرعياً إذا ما طالب بالحكم، ثم حدث أن طلب أقطاي من أبيك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل - المقر الرسمي للحكم - لكونها من بنات الملوك، فبدأ الملك المعز أبيك يستشعر خوفاً منه وراح يدبر الأمر لقتله قبل أن يشتد بأسه ويفكر في عزله وتولى السلطنة مكانه، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في أمر من الأمور، فلما وصل إلى القلعة أمر أبيك بغلق أبوابها، ومنع ممالك أقطاي من الصعود معه، ثم لم يلبث أن قبض عليه وقتله، وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة، فذهب نحو سبعين من أصحابه إلى القلعة ظناً منهم أنه سجن ولم يقتل وكان على رأسهم بيبير بن البندقداري وقلادون الألفي وسنقر الأشقر وبيسري، فلما وصلوا إلى القلعة أتى إليهم المعز أبيك برأس أقطاي، وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم أت عن قريب فقررروا الفرار إلى الشام، وعلم أبيك بنيةهم فأمر بإغلاق أبواب القاهرة على وجوههم إلا أنهم استطاعوا أن يحرقوا باب القراطين - الذي عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق - والفرار منه إلى ملوك البيت الأيوبي في الشام مثل الناصر يوسف صاحب حلب، وانمخت عمر ملك الكرك، كما التجأ مائة وثلاثين من أتباعهم إلى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيخسار بن كيخسر وصاحب قونية بأسيا الصغرى.

ومما لا شك فيه أن خروج المماليك البحرية وزعمائهم إلى الشام واتصالهم بملوك البيت الأيوبي وتحريضهم على مهاجمة مصر جعل المعز يخشى على عرشه فسعى للتحالف مع أمير مجاور من أمراء المسلمين، وهو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأعلنه أبيك برغبته في التزوج من ابنته، لكن مشروع الزواج جر على المعز الوبال الكثير فقد أثار شعور الغيرة في

قلب يشجر الدر التي ساءها جحود أيبك، فدبرت مؤامرة لقتله فى سنة (٦٥٥هـ/٢٥٧م) وثارت مماليك المعز لمقتله فودبروا مؤامرة أخرى انتهت بقتل شجر الدر وإلقاء جثتها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، إلى أن حملت فى قفة ودفنت بعد عدة أيام [وضريحها يقع بشارع الخليفة] وهكذا انتهت حياة أيبك وشجر الدر جميعاً .

السلطان الملك المنصور نور الدين على بن أيبك :

(٦٥٥هـ/٢٥٧م - ٦٥٧هـ/٢٥٩م)

تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم "على" فأقاموه سلطاناً فى (ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/٢٥٧م) ولقبوه بالملك المنصور نور الدين على، رغم أنه غلام صغير فى نحو الخامسة عشرة من عمره، ورغم أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثه العرش، ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم، الأمر الذى جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً للتناقص والمنازعات بين كبار أمراء المماليك عقب وفاة كل سلطان، وكان كل سلطان من سلاطينهم يعنى عناية كبيرة بتوريث ابنه السلطنة فيأخذ له الأيمان ويوصى له بولاية العهد، فإذا توفى احترم الأمراء المماليك هذه الأيمان مؤقتاً، وأقاموا الصغير على العرش، ولكنه لايمكث سلطاناً إلا ريثما يصفى الأمراء ما بينهم من حساب، وينجلى الموقف بينهم ويظهر الأمير القوى الذى يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الأمراء، فيعزل الصبى الصغير دون جلبة ويأخذ منصب السلطنة لنفسه.

ومعنى ذلك أن الدولة المملوكية لم تعرف النظام الوراثى، وإن كانت قد حاولته فإنها لم تفلح فى التمكين له أو الأخذ به، وذلك باستثناء حالات قليلة حدثت لأبناء قلاوون.

ويبدو أن سبب عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك هو ضعف معانى الصلات الأسرية، لأنهم قوم اشتروا من أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الجروب ونشأوا وربوا تربية واحدة أوجدت عندهم صلات وروابط أخرى مثل الرابطة التي تربطه بزملائه في الرق والعنق والتي عرفت في المصطلح المملوكي باسم الخجداشية أو الخشداشية مفرد دخجداش أو خشداش معرب اللفظ الفارسي خواجاتاش وهي تعنى الزميل في الخدمة أو الرق أو العنق .

كما كانت هناك علاقات بين المملوك الصغير والمملوك الأكبر سناً، الذى كان يعهد إليه برعاية الصغير فى الطباق والذى جرى العرف على تسميته باسم أغا [مفرد أغوات] أما المملوك الصغير فكان يعرف فى المصطلح المملوكي باسم إنى مفرد إنيات وكانت العلاقة بين الأغا وإنياته تظل وثيقة بعد عتقهم ومغادرتهم الطباق إذ كان الأغا يحرص دائماً على مساعدة إنية ويوصى بترقيته فى الوظائف والرتب هذا فضلاً عن العلاقة بين المملوك وأستاذه الذى اشتراه وأعتقه [سلطاناً كان أو أمير] والتي عرفت فى المصطلح المملوكي باسم - صلات الأستاذية - فيظل المملوك وفيأ مخلصاً بأستاذه حتى آخر يوم فى حياته .

المهم أن الأمراء إختاروا الملك المنصور نور الدين على بن أيك، إختيار أحد الأمراء نظراً لصغر سنه ليكون أتابعاً له وهو - سيف الدين قطز - ولم يكن منتظراً من هذا الصبى أن يصمد فى وجه كبار الأمراء ، أو يتمكن من مواجهة الأخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى عندئذ فكان يقضى معظم وقته فى اللهو واللعب بالحمام ومناقرة

الديرك ومناطقة الأباش وبرابراي، نديسير والطواف، بينها داخل أسوار المنية،
ولهذا تركت السلطة كلها في يد أتاكبه نائب السلطنة سيف الدين قطز .
وأهم حدث جرى في عهد نور الدين على هو أن الأمراء البحرية الذين
كانوا بالشام بعد مقتل كبيرهم أقطاي أدركوا عندئذ أن فرصتهم قد حانت
للعودة إلى مصر فاتجهوا إلى الكرك حيث أطعموا المغيث عمر الأيوبي في
ملك مصر، وكان أن استجاب المغيث عمر للبحرية، وخرجت الحملة لغزو
مصر عن طريق الشرقية سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، فتولى الدفاع عن مصر
وعن دولة المماليك الناشئة سيف الدين قطز الذي استطاع صدهم وإنزال
الهزيمة بهم عند الصالحية .

وفي ذلك الوقت وصلت الأخبار إلى مصر بأن هولاء حفيد جنكيز
خان المغولي استولى على بغداد (صفر ٦٥٦هـ/فبراير ١٢٥٨م) قلعة
الإسلام وحاضرة العباسيين، وأعملوا فيها معاول التخريب والسيوف والنار
سبعة أيام ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته .
وبهذا قرب الخطر المغولي من الشام ومصر قرباً شديداً، ولم يكن في
الشام ملك قوى يستطيع الوقوف أمام هذا الخطر الداهم ومقاومته، فالناصر
يوسف الأيوبي بدلاً من أن يتدبر الأمر، إذا به يرسل ابنه الملك العزيز إلى
هولاءكو يطلب مساعدته في الاستيلاء على مصر من المماليك، ويقال أن
هولاءكو استجاب لتلك الدعوة ، وقرر إرسال قوة من عشرين ألف فارس إلى
الشام. فعقدت الأموال كلها على مصر وعلى سيف الدين قطز فوجد قطز
فرصته لعزل السلطان الصبي نور الدين على الذي لم يكن له من السن أو
المقدرة ما يؤهله لتحمل هذا العبء فجمع الأعيان والأمراء بالديار المصرية
وقال لهم "لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي
صغير لا يعرف تدبير المملكة" فأجابه الجميع ليس لها غيرك. فقبض على

الملك المنصور وأخيه قاقان ابن أيبك وأمهما وبذلك انتهى حكم المنصور على الذى ظل سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام -

المظفر سيف الدين قطز : (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م)

كان قطز شاباً أشقر كبير اللحية ويقال أن اسمه الأصلي محمود بن مودود، وأنه ينتسب إلى البيت المالك الخوارزمي، فيقال إن أمه كانت أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأن أباه كان ابن عم ذلك السلطان، وأنه حذر المعارك الأخيرة التي قضا فيها المغول على الدولة الخوارزمية، وتدأسر في أعقابها وحمل مع بعض السبايا إلى دمشق حيث بيع بيع الرقيق للسلطان أيبك التركمانى وأتى إلى مصر حيث ترقى فى سلك الجندية إلى أن أصبح نائباً للسلطنة وقطر كلمة تركية معناها الكلب الشرس .

ونتيجة لقرب الخطر المغولى من الشام ومصر والخوف من الملك الناصر قام قطز بعزل المنصور نور الدين على مبرراً ذلك من أنه "لابد من سلطان قاهر يقاقل هذا العدو، والملك المنصور صبنى صغير لا يعرف تدبير المملكة وعندما غضب لعزل المنصور على بعض مماليك أيبه هدأهم بقوله : "إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم" .

ولم يلبث المغول بعد أن أستولوا على بغداد وقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها فى مذبحه رهيبه استمرت أربعين يوماً، ثم اشعلوا النار فى المدينة فأنت على كثير من تراث الحضارة الإسلامية، وقتلوا الخليفة المستعصم العباسى وكل من وجدوه حياً من العباسيين، ولم يكن منتظراً أن يقنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد.

لذلك تقدم هولاكو إلى الشام بجيش قوى، وحاصر ابنه يشموط

ميفارقين التي كان يحكمها الكامل محمد الأيوبي الذي استشهد بعد أن دافع دفاعاً باسلاً ثم استولوا على حلب في (صفر سنة ٦٥٨هـ/ ٢٤ يناير ١٢٦٠م) ليعملوا في أهلها قتلاً وأسراً، وأمام ذلك الخطر الداهم رأى بعض أمراء الأيوبيين في الشام أن يخضعوا للغزاة حرصاً على كياناتهم مثل الأشرف موسى، كما أخذ الأمير زين الدين الحافظي يعظم من شأن هولاءكو ويؤيد مبدأ الاستسلام له، ولكن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري - أحد امراء المماليك البحرية الذين فروا من مصر بعد مقتل أقطاي - لم يعجبه ذلك القول، فقام وسبه وضربه، وقال له: "أنتم سبب هلاك المسلمين"، ولم يرضى بيبرس ومن معه من البحرية عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام، فساروا إلى غزة، وأرسل بيبرس إلى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر المغول، وقد رحب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه، وأحسن استقباله بدار الوزارة، وأقطعته قلوب وأعمالها، وبذلك توحد المماليك جميعاً بحرية وغير بحرية لمواجهة خطر المغول الذي يعتبر أقدح خطر هدد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر.

وهذه ظاهرة أمتاز بها المماليك وتكرر ظهورها طوال تاريخهم أكثر من مرة، فهم دائموا النزاع فيما بينهم حتى إذا داهمهم خطر خارجي تناسوا ما بينهم من خلف ووقفوا أمام هذا الخطر صفاً واحداً وذلك بدافع الشعور الغريزي للدفاع عن كياناتهم وبعد الاستيلاء على دمشق أرسل هولاءكو سفاره إلى قطز ومعها كتاب يطلبون فيه منه الاستسلام ويذكرونه بما فعله المغول وينذرونه سوء العاقبة إذا حدثته نفسه بالمقاومة .

ولكن قطز لم يهتز لحرب الأعصاب التي دأب التتار على شنّها والإفادة منها وقام بدافع من الشجاعة وحبّه للدفاع عن العالم الإسلامي وكرهه الشديد للمغول بتمزيق الخطاب، وقتل سفراء هولاءكو وعلق رءوسهم على باب

زويلة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول .

وحدث في ذلك الوقت أن توفى منكوخان خاقان المغول العظيم أخو هولاکو وأسند هولاکو قيادة جيوشه إلى قائده كتبغانوين ورحل مسرعاً إلى القور لتاي - مجمع زعماء التتر - في العاصمة قرة قورم، حيث تجرى الانتخابات لإختيار خاقان المغول الجديد. واعتقد هولاکو أنه سوف يختار خاقاناً للمغول لأهمية فتوحاته وإتساعها ، ولكنه علم في تبريز أن الإختيار وقع على أخيه قوبيلای (١٢٦٠ - ١٢٩٤م/٦٥٩ - ٦٩٣هـ) .

المهم أن عودة هولاکو إلى قراقورم ومعه جزء كبير من جيشه كما لها أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي أخذ السلطان قط يعد عدته لمواجهة خطرهم .

وأنفذ قطز طلائع جيشه بقيادة بيبرس لملاقاة المغول فتقابلوا وإياها عند مدينة غزة، وانتصر بيبرس على طلائع المغول لأول مرة وردهم ع غزة، وبعد قليل وصل قطز ومعه بقية الجيش، ثم تقدم الجيش المملوكي كما نحو الشمال إلى أن التقى بجيش المغول قرب مدينة بيسان في موضع يقال عين جالوت ولجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة، فأخفى معظم جيشه بين الأحرش والأشجار وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس تتابع سيرها وحدت تجاه التتار وفي موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) تفوق المغول في أمر، ولكن قطز ثبت في القتال، ويقال أنه ألقى خودته عن رأسه إلى الأرض وصاح "والإسلاماه" وحمل بنفسه على العدو، فالتف المماليك حو ثانية، وانتصروا على عدوهم وقتل قائد المغول بعد أن ظل يقاتل في شجاعة وعناد - وقتل كثير من رجاله وولى من نجا من المغول الأدبار .

فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبله وصلى ركعتين شكر لله .

وبعد هذه الهزيمة التي لحقت بالمغول في عين جالوت فروا من دمشق، ثم من شمال الشام كله فاستولى عليه قطز، وأقام قطز والياً من قبله على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي وأعاد بعض ملوك الأيوبيين إلى ممالكهم مثل الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص، وكذلك الملك المنصور الثاني صاحب حماه الذي أعاده إليها وأعطاه المعرة وبعرين، أما حلب التي كان قد وعد بها بيبرس البندقداري فقد أقطعها قطز للملك السعيد علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتتبع حركات المغول وأخبارهم .

أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبيبة الذي كان قد تواطأ مع التتار وانضم إليهم يوم عين جالوت في محاربة المسلمين ، فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال .

وبذلك انتهت موقعة عين جالوت التي تعتبر الحلقة الأولى في سلسلة الوقائع بين المغول ودولة المماليك أقوى العناصر المحاربة، وتعتبر تجربة حربية خطيرة بين أسلوبين وفنيين من فنون الحرب في العصور الوسطى .

وتعتبر عين جالوت من المواقع الفاصلة في التاريخ نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة فالتتار منذ خروجهم من موطنهم الأصلي لم يذوقوا طعم الهزيمة ولم تستلح القوى الإسلامية كلياً الوقوف أمامهم فبالخوارزميون رغم قوتهم الحربية هزموا أمامهم، وكذلك هزمت الخلافة العباسية وقضى عليها نهائياً هناك، ثم هزمت جيوش الأيوبيين في الشام، وانتصر المماليك فأنقذوا مصر والشام من همجية المغول وبدأ العالم الإسلامي ينظر إليهم نظرة عطف وإكبار مما ساعد على تدعيم ملك المماليك وكانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك الذين ظهروا في صورة الدرع الواقى للوطن الإسلامي في الشرق الأدنى والقوة الوحيدة التي استطاعت الصمود في وجه الخطر المغولي .

ويعترف المؤرخون الأوروبيون أن إنتصار المماليك لم ينتقد العالم الإسلامي وحده من خطر المغول، بل أنفذ العالم المسيحي الأوربي والمدنية الأوربية، لأنه لم يكن فى أوربا المسيحية وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا على المماليك وتقدموا فى اتجاههم الطبيعى نحو أوربا عن طريق الصحراء الغربية - الطريق الطبيعى المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو أوربا من الجنوب فى العصور المختلفة مثل هانيال وموسى بن نصير وطارق بن زياد والأغالبة والفاطميون وغيرهم من قبل، وكما سلكه القائد الإنجليزي منتجو، رى من بعد فى الحرب العالمية الثانية .

ومع اعترافنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم فى عين جالوت فإنه يجب أن نشير إلى بعض العوامل التى ساعدتهم على تحقيق ذلك النصر .
فبالرغم من أن غزو المغول لبلاد المسلمين إتخذ طابعاً صليبيياً، لأن زوجة هولاکو وأمه كانتا مسيحيتين على المذهب النسطورى مما جعله يعطف على المسيحيين ويقسو على المسلمين، هذا بالإضافة إلى أن بعض القوى الصليبية فى الشرق الأدنى وفى الغرب الأوربي سعت لتحويل المغول إلى المسيحية فإتصلوا بهم وإستثاروهم ضد المسلمين مثل ملك أرمينية الصغرى، إلا أن جمهرة الصليبيين بالشام وقفت موقفاً صليبيياً من الصراع بين المماليك والمغول.
بالإضافة إلى عودة هولاکو ومعه جزء كبير من جيشه إلى قراقورم مما أدى إلى إضعاف قوة المغول، وأخيراً الحقيقة التاريخية التى تقول أن لكل غزوة أو هجرة مهما يبلغ عنفها وقوتها نهاية حتمية تتوقف عندها نتيجة لظروف طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

كان لإنتصار قطز فى عين جالوت وقع جميل على المصريين فأقيمت الزينات فى الطرقات والحوانيت بالقاهرة، ودقت البشائر بالقلعة وأخذ الناس

يستعدون لإستقبال قطز عند عودته. ولكن الأمور تطورت بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس فى السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس الذى أظهر شجاعة فى عين جالوت لا تقل عن شجاعة السلطان قطز نفسه، كان يطمع فى نيابة حلب، وطلبها فعلاً من قطز الذى وعده بمنحها إياه، ولكن قطز أقطعها للملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ. صاحب الموصل - مكافأة له على ما أداه أبوه للدولة المملوكية الناشئة من خدمات جليلة، فقد دل سلاطينها على حركات المغول وعلى أسرار مشروعاتهم التعريبية للتقدم نحو الشام. فتكرر له بيبرس ، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه ، وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية فى طريقه إلى القاهرة ، فقد خرج قطز للصيد وفى أثناء رجوعه من صيده يريد الدهليز السلطاني، وثب به بيبرس والمؤتمرون معه وقتلوه بسيوفهم فى (١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ / ٢٢ أكتوبر سنة ١٢٦٠م) وتقدم أحد امراء المماليك - وهو الأمير أقطاي المستعرب - عندما انتشر خبر مقتل قطز وسأل المؤتمرين : "من الذى قتل السلطان ؟"

فقال بيبرس : "أنا قتلته" .

فقال الأمير أقطاي : "يا خوند، اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه" .

وهكذا اغتيل السلطان قطز، صاحب الفضل فى تدعيم الدولة المملوكية من الناحية الخارجية، ويروى أبو المحاسن "أن قطز بقى ملقى بالعراء، فدفعه بعض من كان فى خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله فلما بلغ بيبرس ذلك، أمر بنيشه، ونقله إلى غير ذلك المكان، وعفى أثره، ولم يعف خبره" .

بينما يذكر المقرئى "أن قطز حمل بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب

من زاوية، الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود". ويرى البعض أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم بين المماليك البحريةية الصالحية الذي شارك قطز في قتل كبيرهم أقطاي من أيبك والمماليك المعزية.

السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري :

(٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) :

انتقل الملك بعد قطز إلى قاتله بيبرس في ١٥ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) وهو بالصالحية ، واستدعت الجند فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز ثم بايعه فارس الدين أقطاي وتبعه بقية الأمراء على اختلاف طبقاتهم، وحلفوا له جميعاً أن لا يخونوا ولا يئثوا عليه، وتم ذلك الحلف على المصحف الشريف، كل ذلك وبيبرس لم يصل بعد إلى القاهرة، ثم قال له أقطاي : "لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل"، فركب بيبرس وصحبته الأمراء قاصدين القاهرة، فلما دخلها لم يكن أهلها قد علموا بما حدث للسلطان الملك المظفر قطز، وكانت القاهرة قد زينت أبهج زينة واستعد الناس لإستقباله بمظاهر الحفاوة والتكريم، وخرج الأمير عز الدين أيدير الحلبي نائب السلطنة بمصر إلى ظاهر القاهرة لإستقبال قطز ، ولم يكن قد وصل إلى علمه ما حل به، فأعلمه بيبرس بما حدث، فحلف هو أيضاً لسلطانه الجديد وفي (ليلة الاثنين ١٩ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) وصل بيبرس ومعه الأمراء إلى القلعة وتسلمها. وفي اليوم التالي نودي في القاهرة أن "ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس".

ولما جلس بيبرس بالإيوان بقلعة الجبل "أقيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمعتمدين على تفاوت اقدارهم، وكتب إلي صاحب

المغرب وصاحب اليمن وملوك الشام وتغور الإسلام بما قرر الله له من القيام بأمر عباده، وإيالة بلاده" وخفف عن الأهالي عبء الضرائب، وألغى الأموال التي كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة المغول، كما عفى "عن بالحبوس من أصحاب الجرائم وأفرج عنهم".

وكان لقب بيبرس في أول الأمر "القاهر" فقال له الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، وكان فاضلاً في الأدب والترسل وعلم التاريخ، ما لقب به أحد فأفلح وأشار بتغيير هذا اللقب إلى "الظاهر" فوافق بيبرس.

وشغل بيبرس منصب السلطنة سبعة عشر عاماً، وهي مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام بعد فترة القلق وعدم الاستقرار التي تعرضت لها دولة المماليك لمدة عشر سنوات تعاقب فيها على منصب السلطنة أربع سلاطين قبل بيبرس.

لم يصف الجو تماماً لبيبرس على أثر اعتلائه دست السلطنة، إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم، وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه الملك المظفر قطز بدمشق، فلما علم بمقتل قطز نادى بنفسه سلطاناً عليهما في (ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وتلقب بالملك المجاهد، وخطب له على منابرها وضرب السكة باسمه، كما طلب من أصحاب حماة وحمص الدخول في طاعته، ولكنهما امتنعا عن إجابة طلبه.

ولم يتوان بيبرس في القضاء على هذه الثورة التي هددت نفوذه في الشام، فجهز جيشاً مع علاء الدين أيدكين البندقداري لمحاربتها، فوصل هذا الجيش إلى دمشق في (صفر سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، والتقى بجيش الحلبي

بظاها فتغلب عليه وفر الحلبي وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق، حتى إذا ما جنى الليل خرج لا يلوى على شئ قاصداً بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وأحضروه إلى القاهرة فاعتقل بها .

وولى الظاهر مولاه علاء الدين البندقدارى على دمشق وعاد صاحباً حمة وحمص إلى بلديهما، ومن ذلك الوقت دخلت هذه البلاد فى حزوة الملك الظاهر .

وكان بيبرس على تخوف دائم من أن يثور عليه المغيـث عمر الأيوبي صاحب الكرك فخرج من مصر فى (ربيع الآخر سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م) فلما وصل إلى غزة حضرت إليه أم الملك المغيـث شافعة فى ولدها وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها فى العودة ، ثم تحايل بيبرس واستدعى المغيـث لمقابلته فى بيسان ولم يرع عهده له وقبض عليه وبعثه إلى القاهرة مقيداً ليحتقل بقلعة الجبل ثم قتله بعد ذلك .

كما قامت ثورة شيعية ضد بيبرس فى القاهرة تهدف إلى إعادة إحياء الخلافة الفاطمية فشق الثوار القاهرة وهم يصيحون "يآل على"، ولكن بيبرس نجح فى القضاء على حركتهم فى سهولة .

وبذلك نجح بيبرس فى القضاء على الثورات الداخلية التي واجهته فى بداية حكمه وصفاً الجور تماماً له، ولم يعد ينقص حكمه إلا السند الذي، أى الحصول على تقليد من صاحب الحق الشرعى فى حكم المسلمين الخليفة العباسى، غير أن الخلافة العباسية فى ذلك الوقت كانت قد سقطت فى أيدي المغول وقتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين هو وولده أبو العباس أحمد، وأبو الفضائل عبد الرحمن، وكثير من رجال البيت العباسى .

ولا يخفى علينا أن الممالك نظر إليهم المعاصرون منذ اللحظة الأولى التى ولوا فيها حكم البلاد أنهم انتزعوا لأنفسهم ملك سادتهم بنى أيوب ،

فتحايلوا على ذلك بأن اشركوا معهم فى الحكم طفل من سلالة الأيوبيين ، كما سبق أن أوضحنا كما نظر المعاصرون إلى بيبرس أنه اغتصب العرش من قطز قاهر المغول هذا بالإضافة إلى تجريح المعاصرين للمماليك بأنهم "قد مسهم الرق" ولا ينتمون إلى أسرة مالكة، لذلك تحمس بيبرس لإحياء الخلافة العباسية فى مصر ليتخذ منها سندا يسند إليه حكم المماليك .

بيبرس وإحياء الخلافة العباسية فى مصر :

لم يكن الظاهر بيبرس أول من فكر فى نقل الخلافة العباسية إلى مصر ولكنه كان أول من نجح فى تنفيذ هذا المشروع، وقد سبقه إلى التفكير فى ذلك أحمد بن طولون أثناء صراعه مع ولى عهد الخلافة أبى أحمد طلحة الموفق فقد فكر فى استدعاء الخليفة العباسى المعتمد للإقامة بمصر ليستعيد كرامته وحرية بعد أن ضيق عليه أخوه الموفق، ولكن أمر الخليفة أكتشف وأعيد إلى العاصمة تحت حراسة رجال الموفق ثم فكر فى نقل الخلافة إلى مصر محمد بن طنج الأخشيد فقد دعى الخليفة المتقى للقعود إلى مصر أثناء صراع الخليفة مع توزون أمير الأمراء وخاصة بعد أن قنط الخليفة من مساعدة الحمدانيين، وبعد أن تغلب توزون على النجدة التى أرسلها الحمدانيون لنصرة الخليفة وأجبر توزون الخليفة على العودة إلى بغداد، فعاد الأخشيد إلى مصر وفشل المشروع .

وكان الأيوبيون يسعون دائماً لاستصدار التقاليد من الخليفة العباسى بالموافقة على توليتهم ، حيث أن المسلمين فى تلك العصور كانوا لا يحترمون حاكماً لا يحظى بعطف الخلافة وتأييدها، وكانت الخلافة لا تمنع وإلا سوف يودى الأمر إلى ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق الإكراه لا

عن طريق التقليد ، ولم يكن هذا تفنكاً وانحلالاً للدولة الإسلامية ، لأن هؤلاء الحكام دانوا بالطاعة للخلافة واعترفوا بنفوذها الروحي، يدعون للخليفة على المنابر ، ويكتبون اسمه على السكة، ويشاركون في الجهاد .

وعندما قامت الدولة المملوكية سعى سلاطينها للحصول على التقليد من صاحب الحق الشرعى فى حكم المسلمين الخلافة العباسية لتدعيم مركزه أمام إدعاءات أمراء البيت الأيوبى ومحاولتهم لاسترجاع مصر، فقد بدأ بتتصيب شجر الدر سلطنة على مصر، وأرسلوا يطلبون من الخليفة العباسى موافقته وإرسال التقليد والخلع والألوية ولكن الخليفة لم يقر أن يسلم زمام الحكم لامرأة وأرسل يقول للمماليك : "إن كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً" .

فاضطر المماليك إلى خلع شجر الدر وتولية المعز أيك الذى أمر بأن ينادى بأن "البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وإن الملك المعز نائبه بها" وبعد أن تصالح المعز أيك والناصر الأيوبى بوساطة رسول الخليفة نظراً لقرب الخطر المغولى من بغداد، أرسل المعز إلى الخليفة "يلتمس تشريفة بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر" سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) .

وبعد ذلك بسنتين سقطت الخلافة العباسية فى أيدي المغول سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) وقتلوا خليفة المسلمين وأحرقوا الجوامع وهدموا المساجد، لذلك حاول بعض حكام المسلمين فى البلدان المجاورة وسط ذلك الفراغ الكبير الذى أحدثه قتل الخليفة أحياء الخلافة فى بلادهم، مما يعود على من ينجح فى ذلك بالمكانة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بعطفها وبيعتهها . وقيل السلطان المملوكى قطز يقال أن صاحب حلب ودمشق الناصر يوسف الأيوبى فكر بعد سقوط الخلافة العباسية فى أحيائها فى دمشق بهدف الحصول

على كسب سياسى يمكنه من الصمود فى وجه المماليك بمصر، ولكنه لم يتمكن من ذلك .

أما قطز فبعد انتصاره على المغول فى عين جالوت علم وهو فى دمشق بوصول أحد أمراء بنى العباس الفارين واسمه أبو العباس أحمد فبايعه بالخلافة، واتجه هذا الخليفة إلى بغداد وفى صحبته جماعة من العرب فافتتح عانة والحديثة والأبنار، غير أن العمر لم يمهل قطز لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية فى بغداد .

وتولى بيبرس فاستدعى أبو العباس أحمد لمقابلته فى القاهرة غير أنه سبقه إلى القاهرة أمير آخر من بنى العباس هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر، فآثر أبو العباس العودة إلى الشام وسار إلى حلب حيث بايعه بالخلافة أميرها شمس الدين أقرش البرلى الخارج عن طاعة السلطان بيبرس، وأمدّه بسبعمائة فارس من التركمان، فقادهم ووصل بهم إلى عانة .

ولما وصل أبو القاسم أحمد خرج بيبرس إلى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر، واليهود يحملون التوراة، والنصارى يحملون الأنجيل وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته، وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصل إلى قلعة الجبل .

ثم عقد مجلساً عاماً فى قاعة الأعمدة حضره كبار رجال الدولة، وشهد جماعة من العربان أمام الحاضرين بصحة نسب هذا العباسى، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وبايع أبا القاسم ، ثم تبعه السلطان وجميع الحاضرين، ولقبوه بالمستنصر بالله كما أخذت البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم،

ويعد ذلك قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس ما بيده من ملك، وما قيد يضيفه إليها أو يفتحه من بلاد الكفار .

وفى (٤ شعبان سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م) ضربت خيمة كبيرة في المطرية قرأ فيها صاحب ديوان الإنشاء القاضى فخر الدين بن لقمان تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر وكان بيبرس حتى ذلك الحين لا يزال يتجه الاتجاه القديم الذى بدأه قطز وهو محاولة إحياء الخلافة العباسية وإعادتها إلى بغداد، فرتب له بعض الأمراء والعساكر وانفق فى اعدادهم ألف ألف دينار ، وخرج بيبرس مع الخليفة إلى دمشق وكان فى عزمه أن يزوده بجند آخرين من جيش الشام ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان فى بغداد قد تكون خطراً عليه. فأرغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من ثلاثمائة فارس فقط، وفى الرحبة انضم إليه اربعمائة فارس من عرب العراق ثم لحق به ستون مملوكاً من الموصل وثلاثون من جند حماه وعند مشهد على تقابل مع أبى العباس أحمد الذى كان معه قوة من سبعمائة فارس من التركمان، وإتقفا على أن يعملوا معاً لإعادة الخلافة العباسية ، وقرب مدينة هيت التقى جيشهما بجيش التتار بقيادة قرابغا، ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم واستشهاده ، ولم ينج من هذا الجيش إلا عدد قليل فيه أبو العباس أحمد .

قدم أبو العباس أحمد إلى مصر، فعقد بيبرس مجلساً عاماً بالإيوان الكبير بقلعة الجبل حضره القضاة والأمراء وأرباب الدولة، وقرئ نسب أبو العباس أحمد بعد ما ثبتت صحته لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الذى بايعه على أثر ذلك، ثم تلاه السلطان فبايعه "على العمل بكتابات الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء الله" .

فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده "أمور البلاد والعباد".
ولقب الخليفة الجديد "بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين" وبذلك أعيدت الخلافة
العباسية إلى مصر، غير أن بيبرس لم يفكر في تزويد هذا الخليفة الجديد بجيش
لإستعادة بغداد، وإنما أبقاه في القاهرة ليكون قريباً منه وتحت عينه ، فالظاهر
بيبرس لم يشأ أن يخلق قوة ثانية إلى جانبه، وإنما أراد أن يكتسب سنداً شرعياً
أمام الرأي العام يقوى به مركزه ومركز دولته، وهكذا أصبحت القاهرة
المركز الجديد للخلافة العباسية، وظل الخلفاء العباسيون يتعاقبون واحد بعد
آخر في مصر حتى الفتح العثماني سنة (١٥١٧م/١٠٩٢٣هـ) وأصبح الخلفاء
العباسيون بمصر سلطتهم مقصورة على الأمور الدينية، وكما قال المقرئ
عن هذه الخلافة "ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين".

بيبرس والمغول :

من المعروف تاريخياً أن دولة المغول قسمت بعد وفاة جنكيز خان إلى
أربعة أقسام، وقد قامت بين دولة المماليك وبين أقرب قسمين علاقات، أما
الفرعين أو القسمين البعيدين اللذين لا يربطهما حدود مع دولة المماليك وهما
القسم الشرقي الذي حكمه أوجوتاي (١٢٢٧ - ١٢٤١هـ) والقسم الأوسط الذي
حكمه جغتاي (١٢٢٧ - ١٢٤١م) فلم يقم بينهما وبين دولة المماليك علاقات

أما الفرعين اللذين ربطتهما بدولة المماليك علاقات فهما أصحاب القسم الغربي الذي كان يحكمه باتوبين جوجى (١٢٢٧-١٢٥٥م) مغول القفجاق، أو مغول القبيلة الذهبية، وكانت العلاقات بينهما علاقات ود وصداقة، وسبب ذلك أن خان هذا الفرع المعاصر لبيبرس وهو بركة خان بن جوجى (١٢٥٧-١٢٦٧م/٦٥٥-٦٦٦هـ) كان أول من أسلم من خانات المغول، لذلك تبودلت السفارات التي بلغ عددها أربعين سفارة طوال عهد دولة المماليك البحرية منها تسع سفارات في عهد الظاهر بيبرس نفسه كلها تحريض على هولاكو وحث بركة على الجهاد، وكانت رسائل بركة خان وخليفته منكوتيمور (١٢٦٧ - ١٢٨٠م/٦٦٦ - ٦٧٩هـ) يعربون فيها عن شكرهم لبيبرس لنجاحه في إقامة خليفة عباسي، ويذكرون له عدد من أسلم من بيوت التتار وعشائرهم ويخبرونه بأنهم أعداء لأعداء السلطان، وأنهم مقيمون على محبته. المهم أن بيبرس أرسل ست سفارات إلى خانات مغول القفجاق وأرسلوا هم ثلاث سفارات كلها تعبر عن أواصر الصداقة بين الدولتين، وتحريض على دولة مغول فارس المعادية .

ونتيجة لهذه الصداقة لجأ إلى مصر في عهد بيبرس عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية الفارين من هولاكو، فأكرمهم بيبرس، فاعتنقوا الإسلام، وأدخل عدداً منهم جنوداً في جيشه، مما شجع على قدوم أعداداً أخرى كونوا فرقة خاصة عرفت باسم "الفرقة الوافية" التي كان غالبيتها من المغول وكان عهد الظاهر بيبرس وعهد السلطان كبتغا المغولي الأصل والذي لم تدم سلطنته غير عامين (٦٩٤ - ٦٩٦هـ/١٢٩٤ - ١٢٩٦م) من أكثر العهود التي قدمت فيها أعداد من المغول، ويقال أن بيبرس كان من أشد المعجبين بالنظم المغولية، وتشير المصادر إلى أن الفرقة المغولية التي قدمت زمن السلطان العادل كتبغا كانت تعرف باسم الأويراتية وكان نساءها في غاية

الحسن والجمال فتزوج منهم بعض أمراء المماليك .

أما عن علاقة بيبرس بفرع خانات فارس :

فى الواقع أن المغول لم ينسوا ما حل بهم فى موقعة عين جالوت فظلوا يوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها، أما عن المسلمين عامة والمماليك بوجه خاص فكانوا يكرهون مغول فارس بوصفهم وثنيين، ولأنهم الذين أسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد، وقد أدرك بيبرس منذ اللحظة الأولى لتولية السلطنة، أن المغول لابد مقدمون على الأخذ بثأرهم، لذلك كان على استعداد دائم لمنازلتهم، وكان نضاله ضد المغول متصلاً بنضاله ضد البقايا الصليبية فى الشام، وذلك حتى لا يدع فرصة للتقرب أو التحالف بين الفريقين ولم يكد يعلم المغول بموت قطز حتى أشارت فلولهم بقيادة بيدرا على مدينة البيرة سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) ومنها تقدموا إلى حلب وحماة، ولكن بيبرس نجح فى ذلك الوقت فى عقد تحالفاً مع بركة خان مغول القفجاق، وهادن الصليبيين، وأرسل جزءاً من جيشه إسترد البيرة، ثم أمر السلطان بيبرس بعمارة ما خرب من البيرة ويحمل آلات القتال إليها من مصر والشام، وبإعداد كل ما يحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين، وكلف صاحب حماة وبعض الأمراء بإخلاء خندق البيرة من الحجارة التى رماها التتار فيه.

ومات هولاء سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م) وخلفه ابنه أباغا (٦٦٣هـ - ٦٨١هـ/١٢٦٥ - ١٢٨٢م) الذى سار على سياسة أبيه فى منبأوة المماليك ومصادقة الصالبيين، فقد تزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجاس (١٢٥٩ - ١٢٨٢م) ومن ثم كان يعطف على المسيحيين، وعلى الرغم من العداء المستحكم بين المغول والمماليك فقد حاول أباغا أن يسعى لمصالحة بيبرس وتوسط له فى ذلك صاحب سيمس وفى دمشق وصل رسول

أباغا يحمل خطاباً في هذا المعنى لبيبرس، غير أن الخطاب كان ذا لهجة تهديدية، ولهذا رفض بيبرس المصالحة ورد عليه بخطاب أكثر تهديداً مما أدى إلى قيام مفاوضات عديدة بين جيوش التتار وجيوش المماليك .

فقد أغار التتار على السناجور فأرسل إليهم بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار، فارتد التتار وولوا منهزمين، وفي سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) هاجم التتار عين تاب وعمق الحارم، فأرسل إليهم بيبرس الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى فهزمهم وقدمت رسل التتار إلى بيبرس في دمشق تطلب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغا .

وعلى الرغم من هذه السياسة الودية فإن مغول فارس أغاروا في العام التالي (٦٧١هـ/١٢٧٢م) على البيرة وكان بيبرس مقيماً في دمشق، فخرج بنفسه وحمل معه بعض السفن المفككة إلى نهر الفرات حيث أعاد تركيبها، وعبر بجنوده إلى الشاطئ الشرقى حيث انتصر على المغول الذين هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق، فأخذ بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها ولم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاهاً آخر في مناوأة بيبرس وهو منطقة آسيا الصغرى حيث كانت دولة سلاجقة الروم المتاخمة للحدود الشمالية للدولة المملوكية قد ضعفت وخضعت للمغول منذ عهد هولاكو وكان سلطانها المعاصر لبيبرس هو معين الدين سليمان البرواناه، لذلك صمم بيبرس على مهاجمة دولة سلاجقة الروم ليقضى على نفوذ المغول بها .

وفي موقعة أبلستين حلت الهزيمة ساحقة بالمغول وحلفائهم السلاجقة ودخل بيبرس قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة، وجلس على عرش سلاجقة الروم. بعد أن فر معين الدين سليمان البرواناه زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد ضخم من رجاله ومن المغول .

ويشير أحد المؤرخين إلى أثر هذه الواقعة في تحطيم دولة سلاجقة الروم وإتاحة الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى سيكون لها دور كبير مثل دولة بنى قرمان، ودولة بنى عثمان ودولة ذى القدرية، المهم أن يببرس عاد إلى الشام، ولما علم أبغا بما حدث لرجاله فى أبلستين أسرع إلى هناك سنة (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) واشتد حنقة عندما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من المغول وتأثر تأثراً عميقاً أسال دموعه عندما لم ير أحداً من السلاجقة قتلى، كما تغير على البرواناه عندما علم أنه كان السبب فى حمل الملك الظاهر على القدوم إلى بلاد الروم. لذلك أمر بقتل مائتى ألف من المسلمين السلاجقة، وصحب أبغا البرواناه معه عند عودته، ثم قتله بتحريض خوندات البيت المغولى، لأنه كان السبب فى قتل رجالهم وجنودهم فى موقعة أبلستين، وكان من المنتظر أن يعود ببيرس لطرده المغول من آسيا الصغرى ولكنه لم يلبث أن عاجلته منيته فى دمشق سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردهم على أعقابهم .

جهود ببيرس ضد الصليبيين :

بما لا شك فيه أن نجاح المماليك فى انزال الهزيمة بلويس التاسع وجيشه فى المنصورة، وانتصارهم على التتار فى عين جالوت كانت من العوامل التى حققت لهم نوعاً من المجد أضفى عليهم قسطاً من الأهمية ونوعاً من الشرعية الأمر الذى تطلب منهم أن يبذلوا جهداً متواصلأ فى صد الأخطار الكبرى التى هددت المسلمين عندئذ فى الشرق الأدنى لتبرير حكمهم وضرورة بقائهم فى الحكم أمام رعاياهم. وكان أكبر خطرين يهددان المسلمين فى الشرق الأدنى عند قيام دولة المماليك هما الخطر المغولى الذى سبق أن تحدثنا عنه والخطر الصليبي ولم يقدم ببيرس على مهاجمة الصليبيين والمغول

إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل على ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة، وكانت هذه الخطة عبارة عن عقد مجموعة من التحالفات من القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين ليمنع هذه القوى من إرسال أو السماح بمرور أى مدد للصليبيين وليستعين أيضاً باليولوجس بهذه القوى لمنع حدوث أى تحالف بين المغول والصليبيين فحالف الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس، لعلمه أن الإمبراطورية البيزنطية كانت دائماً العدو اللدود للصليبيين بالشام، وحالف منفرد هو هنشتاوفن - امبراطور الدولة الرومانية الغربية وملك صقلية، وكان بيت هو هنشتاوفن تربطه بمصر صداقة قوية منذ أيام ايوبيين - فردريك والملك الكامل - وكان سفير بيبرس إلى منفرد المؤرخ جمال الدين بن واصل، كذلك حالف بيبرس بركة خان مغول القعجاك الذين اعتنقوا الإسلام واشتدت العداوة بينهم وبين مغول فارس الوثنيين .

وقد قضى بيبرس عشر سنوات كاملة (٦٥٩ - ٦٦٩هـ/١٢٦١ - ١٢٧١م) فى نضاله ضد الصليبيين ، فلم تمضى سنة من هذه السنوات دون أن يهاجم فيها مدينة أو حصناً من حصونهم ، فلم ينهزم قط فى معركة من معاركهم .

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين فى وقت مبكر سنة (٦٦٠هـ/ نوفمبر ١٢٦١م) عندما هاجم امارة أنطاكية الصليبية لعقاب أميرها بوهيمند السادس ، الذى أعلن عطفه على المغول، ثم كرر الهجوم عليها فى صيف (٦٦١هـ/١٢٦٢م) وأوشك على الاستيلاء عليها، لولا استتجاد هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى بالمغول وتدخله لإتقاذ انطاكية، فاضطر المماليك إلى ترك حصارها بعد أن اسروا أكثر من ثلاثمائة .

ولم تبدأ حرب بيبرس الشاملة ضد الصليبيين إلا فى سنة

(١٢٦٣هـ/١٢٦٥م) فقد قاد حملة بنفسه لمهاجمة مدينة قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففر أهلها إلى قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام ثم هدمت أسوارها، وبعد انتهاء هذه المعركة اتجه بيبرس إلى يافا وعثليث وأوقع التخریب فيهما، ثم حول وجهته نحو قلعة سوف البحرية الواقعة جنوب قيسارية، ودافع عنها سكانها - الفرسان - وسبائليين - مدة أربعين يوماً وأخيراً أجبرهم بيبرس على تخریب حصونهم بأيديهم .

وفي العام التالي (١٢٦٤هـ/١٢٦٦م) اتجه بيبرس إلى قلعة صفد التي سقطت بعد حصار دام ثلاثة أسابيع واضطر رئيس الداوية إلى التسليم، وأمن بيبرس من بها على أن يرحلوا إلى عكا بغير سلاح، على أن الفرنج لم يلبثوا أن تقضوا أمان وحملوا معهم أسلحتهم ومتاعهم، بل صحبوا معهم بعض أسرى المسلمين بعد أن البسوهم ملابس الصليبيين، فأمر بيبرس بالتبض على حامية صفد وضرب أعناقهم على تل قريب من صفد، ثم خرب قلعتها، ولكن نظراً لأهميتها الحربية أعاد بنائها في العام التالي وسجل ذلك في نص نقش على أسوارها .

كما استولى بيبرس على هونين وتبينين ومدينة الرملة بدون مقاومة وفي سنة (١٢٦٥هـ/١٢٦٦م) أراد أن يعاقب ملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول لمخالفته المغول ضد المسلمين ، فإتتهز بيبرس فرصة غياب هيثوم الأول في زيارة لمغول فارس فهاجمها وأنزل بها الهزيمة قرب دربساك، ودمر مدن أرمينية الصغرى أذن وطرسوس والمضيضة وأشعل النار في عاصمتها سيس، وقتل أحد أبناء هيثوم وأسز الابن الآخر وعاد إلى الشام محملاً بالغانم والأسرى وفي سنة (١٢٦٦هـ/١٢٦٨م) توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية، إذ غادر القاهرة واتجه نحو الشام وهدفه

إمارة أنطاكية فاستولى في طريقه على يافا حيث كانت المعاهدة التي بينه وبين صاحبها قد انتهت بعد وفاته، ثم استولى على البشقيف أرنون التي كان يمتلكها الفرسان الداوية بعد تسعة أيام من حصارها، ثم سار إلى حمص ومنها إلى حماة التي اتخذها قاعدة لهجومه، فقسم جيشه إلى فرق ثلاث، وتولى هو قيادة إحداها ثم زحف على أنطاكية وظل محاصراً لها إلى أن عجزت عن المقاومة واستسلمت وكانت أنطاكية كبرى الإمارات الصليبية بالشام، لذلك جاء سقوطها إيداناً بإنهيار البناء الصليبي بالشام، فلم يبق للصليبيين من المدن الكبرى بعدها سوى عكا ونيابلس .

وفي سنة (١٢٧٠هـ/١٢٧٠م) جاءت الأخبار لبيرس وهو بالشام بأن لويس التاسع يعد حملة جديدة لمهاجمة الشرق الإسلامي إنتقاماً للهزيمة التي منى بها في حملته السابقة، لذلك أسرع ببيرس بالعودة إلى القاهرة ليحصن الثغور ويرمم الأسوار ويستعد حربياً، ولكن شارل دانجو ملك صقلية شقيق لويس التاسع حول الحملة إلى تونس ليؤمن ملكه في صقلية ، وليحقق بعض مشروعاته ضد الدولة البيزنطية .

ولكن لويس أصيب بالحمى وتوفي في تونس ولم يستطع أخوة شارل دانجوا أن يحقق أى نصر، فاتفق مع ملك تونس بعد مفاوضات على الجلاء على أن يدفع ملك تونس مبلغاً من المال، وأن يحصل الفرنسيون على بعض الامتيازات في تونس .

وبعد أن اطمأن ببيرس على نتيجة حملة لويس التاسع اتجه إلى الشام سنة (١٢٧٠هـ/١٢٧١م) وأخذ يهاجم إمارة طرابلس فاستولى على صاقيتا من الداوية، وعلى حصن الأكراد وحصن عكار من الإيبترية، وبدأت طرابلس تحس أنها الهدف التالي بعد أنطاكية، فأرسلت إلى ببيرس تطلب المفاوضات والصالح، واستجاب ببيرس لطلبها، وأرسل وقداً لمفاوضة صاحبها ويقال أن

بيبرس رافق سفراءه متخفياً في زى خادم ليتعرف على أحوال طرابلس وتحصيناتها تمهيداً لحصارها، وفي طريق عودة بيبرس من طرابلس استولى على حصن القرين - إلى الشمال الشرقي من عكا - فأرسل صاحب عكا يطلب المفاوضات للصلح ولكن شروط المفاوضات حين عرضت عليه لم تلق منه قبولاً .

وفي تلك الأثناء كان بيبرس ناقماً على ملك قبرس هيو الثالث لوزنيان لتهديده لسفن المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط، ولجهوده في توحيد قوى الصليبيين بالشام، لذلك أسرع بيبرس في سنة (٦٦٨هـ/١٢٧٠م) بأعداد أسطول من سبع عشرة سفينة لتأديب جزيرة قبرص وملكها، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطئ الجزيرة، وعاد البعض الآخر دون نتيجة .

ولم تقتصر جهود بيبرس على محاربة الصليبيين وإنما امتدت إلى تقليص أخطار الباطنية، التي قامت بدور في إحلال بلاد الشام في ذلك العصر، بمحاربة الصليبيين ودفع الأموال لهم رمزاً للتبعية، وقاموا بإغتيال كثير من زعماء الجهاد من المسلمين، فعزل مقدمهم نجم الدين الشيرازي، واستولى على معاقلم بالشام، وأقطعهم بدلاً منها أراضي في مصر .

ويذكر المؤرخون أن بيبرس قضى السنوات القليلة الباقية من حياته بالنضال ضد المغول الذي انتهى بانتصاره عليهم ودخوله قيصريّة فعاد إلى دمشق حيث توفي بها سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) .

منشآت بيبرس :

يقال أن بيبرس قام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف، كما أمر سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) بإرسال الصناع والأت لعماره قبه الصخرة بالقدس،

وحدد مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام، كما أمر ببناء مشهد على عين جالوت عرف بمشهد التصبر .

وفي ربيع آخر سنة (١٢٦٠هـ/١٢٦١م) بدأ في بناء مدرسته المشهورة بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير، وتم بناء هذه المدرسة سنة (١٢٦٢هـ/١٢٦٣م) وبالرغم من تهم تلك المدرسة في عهد المقرئ نفسه، فإن الجزء الأكبر منها ظل باقياً حتى سنة ١٨٧٤م، عندما إخرقها الشارع الممتد من ميدان بيت القاضي إلى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون، وتهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٨٨٢م ولم يبق منها اليوم إلا كتلة مساحتها ١١/٥ متراً.

كما بنى بيبرس بجوار هذه المدرسة كتاباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ثم شرع في سنة (١٢٦٥هـ/١٢٦٦م) في بناء الجامع الظاهر بجهة الحسينية وانتهى من عمارته سنة (١٢٦٧هـ/١٢٦٨م) .

كما قام بتعمير الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين، فحمر الواهي من أركانه وسقوفة وجدرانه، وأستجد به مقصورة ومنبراً .
كما بنى برجاً بقلعة الجبل، وشيد قناطر السباع على الخليج المصري، وأصلح منارتي رشيد والإسكندرية، وجدد سور الإسكندرية، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة من العبور إذا أرادوا الاغارة على مصر.

أولاد بيبرس :

لم يكن المماليك يؤمنون بمبدأ الوراثة، فهم كانوا يؤمنون بالمساواة لأنهم جميعاً نشأوا نشأة واحدة، وكان بيبرس بوصفه أحد المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التي أدت إلى عزل على بن أيبك وقيام قطز في السلطنة إلا أن غريزة الأبوة غلبت عليه، فأراد أن يتحدى

طبيعة المماليك ونظامهم الذي كان يقوم على علاقة الأستاذية، وعلاقة الخشداشية أو الزمالة، وسعى لتوريث السلطنة لابنه البكر بركة خان ، ففي سنة (١٢٦٠هـ/١٢٦٢م) أعلنه ولياً لعهدده وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة له وجعله نائباً عنه في مصر أثناء خروجه لحرب الصليبيين والمغول، وفي سنة (١٢٦٢هـ/١٢٦٤م) احتفل بسلطنة ابنه الملك السعيد احتفالاً كبيراً وقرى تفويض عهد السلطنة، ومع ذلك كان بيبرس يعتقد أن الملك لن يصفو لابنه بعد موته في يسر وسهولة، وأن الأمراء لم يبايعوا ولده بولاية العهد إلا رهبة وخوفاً منه، لذلك قام بتزويج ابنه من غازية خاتون ابنة كبير الأمراء سيف الدين قلاوون ليضمن ولاءه وولاء أمراء المماليك الصالحية لابنه ، كما أوصى ابنه وهو على فراش الموت بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء فقال له: "إنك صبي، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي، فمن بلغك عنه يشوش ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته، ولا تعتقله، ولا تستشر أحداً في هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك" .

وبعد وفاة بيبرس بايع القضاة والأمراء الملك السعيد ودعا له الخطباء في الجوامع وكان عمره وقتذاك تسعة عشر عاماً، وهي سن كانت تمكنه من تحمل أعباء السلطنة لو أنه احتذى حذر والده، ولكنه كان شاباً مستهتراً يميل لمجالس اللهو والشراب مما أدى إلى إزدياد نفوذ مماليكه الخاصكية مما أغضب كبار الأمراء الصالحية وفي مقدمتهم صهريه قلاوون، وتآمروا فيما بينهم على عزله واضطروه إلى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والأمراء سنة (١٢٧٨هـ/١٢٧٩م) بعد سنتين من حكمه وعينه نائباً على الكرك تنفيذاً لرغبته .

وعرض كبار الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون، وكان قلاوون ماكرأ فلم يشأ أن يلي السلطنة مباشرة بعد عزل بركة خان، لأنه كان يخشى بأس كبار الأمراء وبأس المماليك الظاهرية، ورشح الابن الثاني لبيبرس - الأمير بدر الدين سلامش - وكان طفلاً في السابعة من عمره، فعين قلاوون أتابكاً له كما عين الأمير عز الدين الأفرم نائباً للسلطنة . واستغل قلاوون وصايته للإستئثار بالسلطة والتخلص من المماليك الظاهرية فلم يحكم سلامش سوى مائتي يوم أعلن قلاوون بعدها أنه " لا فائدة من بقاء ذلك الصبي الصغير، لإنتشار السمعة فى البلاد ، وإمتهان الحرمة فى أنفس الحواضر والبواد" فوافقه الأمراء وعزل سلامش وأبعد إلى الكرك ليكون قريباً من أخيه بركة، أما الإبن الثالث لبيبرس وهو خضر فقد عين نائباً على حصن الشوبك، وهكذا زال الملك من بيت بيبرس على يد قلاوون الذى اصطنعه وارتبط معه برباط المصاهرة .

المنصور سيف الدين قلاوون الألفى :

(٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م)

كان قلاوون - كسابقه بيبرس - واحداً من المماليك البحرية الصالحية اشتراه الأمير علاء الدين أقتنقر - أحد مماليك العادل أبى بكر الأيوبي - بألف دينار وهو مبلغ ضخم يدل على ما فيه من مواهب فعرف بالألفى، ولما مات علاء الدين انتقل قلاوون إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد أسهم فى الأحداث التى صحبت قيام دولة المماليك، فخرج من مصر مع المماليك البحرية الذين رحلوا إلى الشام عندما اشتدت وطأة عز الدين أيبك على البحرية بعد مقتل أقطاي، ثم عاد إلى مصر مع بيبرس ليقدم المعونة إلى قطز

عند إعداد جيشه لمقاتلة التتار، وفي سلطنة الظاهر بيبرس برز الأمير قلاوون في صورة أقوى أمراء الدولة فاعتمد عليه بيبرس في كثير من أعماله الحربية والسلمية .

وتعرض المنصور قلاوون في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها غيره من سلاطين المماليك، ونقصد بهذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على السلطان الجديد، فقد اعتقد كبار امراء الصالحية ان لهم أمجاداً حربية لا تقل عن أمجاد قلاوون وأن لهم مثله الحق في تولية السلطنة، كما غضب الأمراء الظاهرية لعزل بركة وسلامش ابني أسنآهم .

من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام رفض الاعتراف بالمنصور قلاوون سلطاناً ، وأعلن نفسه حاكماً على الشام وتلقب بالملك الكامل وخطب له على منبر الجامع الأموى بدمشق، وزاد من خطورة الموقف انضمام أولاد بيبرس خضر وسلامش إلى سنقر - وكان بركة قد توفي - .

غير أن سنقر لم يجد تأييداً من أهل دمشق، واضطر قلاوون بعد أن فشلت وسائل اللين والسياسة إلى استعمال العنف، فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر الذي اتصل بالتتار وأغراهم على غزو الشام، وأخيراً خضع سنقر الأشقر وطلب الصلح بشروط خاصة قبلها قلاوون، وعاد سنقر إلى القاهرة فعفا عنه قلاوون وأكرمه .

وتشير المصادر إلى أنه في العام التالي تأمر بعض الأمراء الظاهرية - من مماليك الظاهر بيبرس - على السلطان قلاوون، واتصلوا بالصليبيين سراً فعلم السلطان قلاوون بأسرار المؤامرة وعاقب المتآمرين بالإعدام والسجن، وهذا الموقف من جانب المماليك الظاهرية جعل قلاوون يفكر جدياً في انشاء عصبية من المماليك يكونوا عوناً له ولأولاده من بعده في تثبيت

عروشهم، لذلك أكثر قلاوون من شراء الممالك وخاصة الجراكسة الذين يقطنون المرتفعات الجنوبية من بلاد قبجاق بين البحر الأسود وبحر قزوين ورياهم بأيراج القلعة إمعاناً في ابعاد العناصر الشمالية من القبجاق التتازيين الذين تألفت منهم الظاهرية ، ممالك بيبرس وأولاده من الجيش المملوكى .
وبذلك زالت المتاعب الداخلية، وبدأ قلاوون يركز جهوده لإستئناف الجهاد ضد العدوين التقليديين الصليبيين والمغول .

علاقة المنصور قلاوون بالمغول :

أولاً : مغول فارس : شجعت الأحداث الداخلية التى تعرض لها المنصور قلاوون وخاصة ثورة سنقر الأشقر نائب الشام، وتآمر بعض الأمراء الظاهرية المغول فبدأوا يهددون حدود الدولة المملوكية، ونظراً لصعوبة مجابهة الصليبيين والمغول فى وقت واحد، ورغبة قلاوون فى أن يبدأ بمواجهة الخطر المغولى ، لهذا جدد الهدنة التى كان بيبرس قد عقدها مع الصليبيين ، ليضمن عدم تحالفهم مع المغول أو استجادهم بقوى أوربية ، كما جدد الاتفاقات مع مغول القفجاق ، وامبراطور بيزنطة ، وقشتالة ، والمدن الإيطالية .

وكان أن بدأ أبغا وجيوش المغول فى اجتياح الحدود السورية مرتكبين نفس الفظائع التى ارتكبوها منذ عشرين عاماً سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م) واستطاعوا أن يستولوا على بعض المدن المحيطة بطنب، غير أنهم أسرعوا بالعودة إلى قواعدهم بالعراق عندما علموا أن السلطان قلاوون وصل غزة فى طريقه لمنازلتهم .

وفى السنة التالية (٦٨٠هـ/١٢٨١م) أعاد أبغا الهجوم على الشام، وتحالف مع المغول فى غزوتهم هذه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى،

فخرجت جيوش قلاوون وتقابل الجيشان عند حمص، وحلت الهزيمة ساحقة بالمغول وولوا الأدبار إلى العراق حيث توفى أيبغا سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) .

ولما توفى أيلخان خلفه أخوه تكودار الذى اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام قبل سلطنته (٦٨١ - ٦٨٣هـ/٦مايو ١٢٨٢ - ١٠ اغسطس ١٢٨٤م)، وفى عهده بدأت العلاقات تتحسن بين المغول والمماليك، وقد بعث تكودار أحمد نبياً اعتناقه الإسلام إلى المنصور قلاوون مع رسولين هما الشيخ قطب الدين محمود الشيرازى قاضى سيواس وأتابك الموطن مسعود، سلطان السلاجقة الروم، وأعلن رغبته فى خدمة الإسلام وحقق دماء المسلمين، وإقامة العلاقات الطيبة بينه وبين إخوانه وجيرانه المسلمين .

وقد رد قلاوون على إيلخان المغول تكودار أحمد بكتاب رحب فيه بدخوله الإسلام وبزوال الأحقاد وإستعداده للتعاون على خدمة الإسلام والمسلمين .

على أن المغول سرعان ما تقموا على تكودار أحمد - لإعتناقه الإسلام وإرغامهم على التدبير به ، فدبر نيلوهم المؤامرات لخلعه وتولية ابن أخيه أرغون الذى تمكن من قتل عمه تكودار سنة (٦٨٣هـ/١٠ اغسطس سنة ١٢٨٤م) .

وتولى أرغون (٦٨٣ - ٦٩١هـ/١٢٨٤ - ١٢٩١م) إيلخانية مغول فارس، فأضطهد المسلمين فى بلاده وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى مصر، فعادت العلاقات بين دولتى المماليك والمغول فى فارس أسوأ مما كانت عليه.

علاقة قلاوون بمغول القفجاق :

استمرت العلاقة بين دولة المماليك فى عهد قلاوون ومغول القفجاق -القبيلة الذهبية- على ما كانت عليه من الود والمحبة وتبادل الهدايا والسفارات ليكون سلاطين المماليك عوناً لهم على أعدائهم من بنى هولاكو وقد تبادلت بين الدولتين فى عهد قلاوون أربع سفارات .

الأولى سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م من قلاوون إلى منكوتمر (١٢٦٧ - ١٢٨٠م) والثانية سنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) من تودا منكو (١٢٨٠ - ١٢٨٧م) والثالثة سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) من قلاوون إلى تودا منكو والرابعة والأخيرة سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م من تودا منكو إلى قلاوون .

علاقة قلاوون بالصليبيين :

اضطرت الظروف الداخلية وخطر أيغا المغولى المنصور قلاوون فى بداية حكمه أن يعقد هدنة فى سنة (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية فى بلاد الشام، بوهيموتد السابع أمير طرابلس، والداوية ، والإستبارية ، ولكن ما أن أنزل الهزيمة بالمغول فى موقعة حمص وأجبرهم على مغادرة أرض الشام حتى فكر فى مهاجمة الصليبيين على الرغم من أنه لم ينقضى سوى أربع سنوات فقط من الصلح السابق الذى كانت مدته عشر سنوات وكان هجومه الأول سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) على الإستبارية فى حصن المرقب - وهو من أقوى حصون الصليبيين- وقد استسلم الحصن بعد حصار دام ثمانية وثمانين يوماً، وفى هذا الموقف الخطير الذى هدد الصليبيين بالشام لم يتعبه الصليبيون إلى حقيقة الخطر الذى تهددهم، وأستمروا فى منازعاتهم الداخلية، وانتهز قلاوون الفرصة واستولى على اللازقية سنة (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) وكانت آخر بقايا إمارة انطاكية الصليبية

وشاعت الظروف أن يموت أمير طرابلس بوهيموند السابع فى ذلك الوقت دون وريث، فقام نزاع داخل الإمارة بين الصليبيين حول وراثة الحكم، ويقال أن بعض الأحزاب داخل طرابلس استجذبت بالسلطان قلاوون ، فوجد قلاوون فى ذلك فرصة سانحة لأخذ طرابلس، فخرج من مصر على رأس جيش ضخم حتى وصل إلى طرابلس، فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً، فلم تستطع طرابلس مقاومة الحصار وسقطت سنة (٦٨٨هـ/أبريل ١٢٨٩م) .

ودمرت مدينة طرابلس القديمة، وبنى السلطان قلاوون طرابلس الجديدة فى الداخل بعيداً عن شاطئ البحر خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية. وبذلك سقطت إمارة طرابلس آخر الإمارات الصليبية الأربعة ، ولم يبق إلا عكا - البقية الباقية من إمارة بيت المقدس - ولم يكن فى نية السلطان قلاوون مهاجمة عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، ذلك أن قلاوون إتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين وجدد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات غير أن أهل عكا الصليبيين استعجلوا نهايتهم بأيديهم ، فاعتدوا على المسلمين الذين كانوا يعيشون فى أمان بالقرب من عكا بمقتضى الاتفاقية السابقة فرأى قلاوون أنه لا بد من الإجهاز عليهم والاستيلاء على مدينتهم، وأخذ يستعد للقيام بعمل حربي كبير ضد عكا، غير أنه توفى فجأة فى ذى القعدة سنة (٦٨٩هـ/١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠م) تاركاً لابنة الأشرف خليل القيام بهذه المهمة .

منشآت قلاوون :

بالرغم من أن المنصور قلاوون قضى فترة حكمه البالغة أحد عشر عاماً فى مقاتلة المغول والصليبيين إلا أنه لم يغفل أمور البلاد الداخلية وكان أغلبها منصبياً على الجيش فكون فرقة جديدة من الجراكسة وأسكنهم أبراج

القلعة فعرفوا بالبرجية أو الجراكسة لكى تختصه بولائها .
هذا بالإضافة إلى كثير من المنشآت والمباني التى أقامها فى القاهرة
مثل القبة العظيمة التى دفن فيها، والمدرسة، والبيمارستان، ولا زالت هذ
المباني الفخمة الجميلة موجودة حتى ان بشارع المعز لدين الله [النحاسين
بين القصرين] بالقاهرة .

الأشرف خليل بن قلاوون :

(٦٨٩ - ٦٩٣هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣م)

فكر المنصور قلاوون فى نفس السنة التى تولى فيها السلطنة فى تعيين
ابنه الأكبر علاء الدين ولياً لعهدده، ولم يكتف كما فعل بيبرس بذلك بل منح
لقب السلطنة حتى تكون له الهيبة فى نفوس الأمراء والأهالى ، وكان الداف
لقلاوون على اقامة ابنه سلطاناً فى حياته أنه كان دائم السفر إلى بلاد الشام
لمحاربة المغول فرأى أن يقيم ابنه مكانه فى إدارة شئون مصر ومنحه لقب
السلطنة ولقب بالملك الصالح غير أنه توفى فى حياة أبيه بعد أن قضى ف
دست السلطنة ثمانى سنوات (٦٧٩ - ٦٨٧هـ / ١٢٨٠ - ١٢٨٨م) وتر
القول أن أخاه خليلاً دس له السم لتكون ولاية العهد له وقضى قلاوون بق
حياته حزيناً على ولده، ولم تكن له رغبة فى التوصية بولاية العهد لابي
خليل، لأنه كان مكروهاً من الأمراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمس
بقواعد الدين، غير أنه كتب تقليداً بولاية العهد لخليل، ولكنه توفى قبل
يوقع عليه بسبب انشغاله بأمر الصليبيين .

وكان قلاوون قد أناب ابنه خليل عنه فى الحكم عندما خرج إلى ع
فى السنة التى توفى فيها، وكان الموقف يتطلب قيام سلطان جديد بسر
ليقود الحملة التى كان المنصور قلاوون قد أعدها للثأر من الصليبيين ؛

عكا، ولهذا أقام خليل نفسه سلطاناً وأقسم الأمراء له الأيمان ولقب بالأشرف . وكان كبار الأمراء على علم بكره قلاوون لابنه خليل لذلك أخذوا يسيئون معاملته ويثيرون والده عليه، ولهذا لم يكد يلى السلطنة حتى راح ينتقم لنفسه ويضطهد أمراء أبيه وأعوانه، وبدأ الأمراء يحيكون المؤامرات التقليدية التي تعرض لها بقية سلاطين المماليك، فحاول الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة إقصاء خليل عن العرش، ولكن السلطان خليل اكتشف المؤامرة في الوقت المناسب وقبض على الأمير طرنطاي وقتله وصادر أملاكه، كما منح إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا الذي فوض إليه نيابة السلطنة، كذلك عزل السلطان الملك الأشرف خليل علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة، وولى مكانه أميراً من أمرائه هو شمس الدين محمد بن السلعوس، الذى زاد نفوذه فى الدولة بعد أن ألقى إليه السلطان مقاليد أمرها وجعل من اختصاصه الإشراف على شئون الأمراء، فكثرت حوادث القتل والقبض والمصادرة بتحريض وتشجيع من ابن السلعوس، ولم يعد أحد من الأمراء يأمن على نفسه. وفى عهد السلطان الملك الأشرف خليل عاث العربان فساداً فى الوجه القبلى وتعرضوا للمارة فى الطرق، فصمم على إخماد قنتهم، وتقدم الوزير ابن السلعوس السلطان إلى تلك البلاد لإستقباله، وهناك تبين له أن أملاك بدر الدين بيدرا قد اتسعت وأن ثروته قد زادت، فأخذ الوزير يوغر قلب السلطان على بيدرا حتى تغير عليه واستعاد بعض الأراضى التي كان قد استولى عليها وضمها إلى أملاكه .

وعلى الرغم من أن السلطان حاول استرضاء بيدراً خوفاً من بأسه، وأرسل إليه بألف دينار ، ولكن محاولة السلطان زهبت أدراج الرياح . وبدأ بيدراً يحيك للأشرف خليل المؤامرات المملوكية التقليدية، واشترك معه بعض الأمراء الذين أقدموا على لاجئين الدولة ، بمبادر

المنصوري وانتهزوا فرصة خروج السلطان خليل للصيد في مديرية البحيرة عند كوم تروجة (بالقرب من ابي المطامير الحالية) وتبعوه إلى هناك وانقضوا عليه وقتلوه في (يوم الأثنين ١٢ محرم سنة ٦٩٣هـ / ديسمبر ١٢٩٣) وظل جثمان السلطان الملك الأشرف خليل ملقى في المكان الذي قتل فيه يومين كاملين حتى حمله والى تروجة الأمير عز الدين أيدمر العجمي إلى بيت المال بدار الولاية، ثم نقل الأمير سعد الدين كوجبا الناصري تابوته إلى القاهرة ودفنه بمدرسته التي أنشأها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة (أثر رقم ٢٧٥) .

الأشرف خليل والصليبيين :

سبق أن أشرنا إلى أن المنصور قلاوون توفى وهو يعد العدة للزحف على عكا، وهال الصليبيون لوفاة المنصور قلاوون معتقدين أن تلك الوفاة جاءت إرادة الله لإتقاذ عكا، وزاد من تهليلهم تأمر الأمير حسام الدين طرنتاي ضد السلطان الجديد الأشرف خليل، ولكن سرعان ما خاب ظنهم عندما تغلب السلطان على الصعاب التي واجهته وخرج فعلاً على رأس الجيوش التي أعدها أبوه إلى الشام، وحاول الصليبيون ثنيه عن عزمه، فأرسلوا إليه سفارة "يسألون العفو" ولكن السلطان لم يقبل منهم ما اعتذروا به واجتمعت جحافل الجيوش الإسلامية من مصر وبلاد الشام. أمام عكا سنة (٦٩٠هـ/ابريل ١٢٩١م) ومعها العتاد والسلاح ومدفعية ضخمة تتكون من اثنين وتسعين منجنيقاً، ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، وسقطت عكا في أيدي المسلمين بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة ، وسرعان ما استولى المسلمون في سهولة على المدن الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وأنطربوس وعتليت وهكذا زالت دولة الصليبيين بالشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون.

علاقة الأشرف خليل بمغول فارس :

سبق أن اشرنا إلى أن أرغون الذى خلف تكودار أحمد اتبع سياسة عنيفة مع المسلمين فى بلاده، مما أساء إلى العلاقة بين تتر فارس وسلطنة المماليك، واشتداد الشعور فى جولة المماليك بضرورة إجلاء التتر عن العراق، ولكن هذا المشروع كان لا يمكن أن يتحقق فى عهد الأشرف خليل الذى لم يتجاوز الثلاث سنوات وشهرين فى الوقت الذى استنفدت فيه الحروب ضد الصليبيين الكثير من جهده فاكفى الأشرف خليل بالاسيلاء على قلعة الروم سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٢م) عزبى الفرات التى كان المغول يتخذونها قاعدة للوثوب منها على بلاد الشام .

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الأولى]

(٦٩٣ - ٦٩٤هـ/١٢٩٣ - ١٢٩٤م)

بعد قتل الأشرف خليل عند كوم تروجة وقع اختيار الأمراء المتآمرين على بيدرا نائب السلطنة ليكون سلطاناً ولقبوه "الملك الرحيم" وقيل " الملك الأمجد" أو "الملك القاهر" أو "الملك الأوحده" ، ولكن لم تكذب أخبار مقتل السلطان تصل إلى القاهرة حتى هب المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - بزعامة الأمير زين الدين كبتغا للثأر لأستاذهم، وطاردوا بيدرا وأعدائه حتى لحقوا بهم فى الطرانة من قرى كوم حمادة بالبحيرة وتمكنوا من قتل بيدرا، ثم عادوا إلى القاهرة، ونادى زين الدين كبتغا بنفسه سلطاناً فى القلعة، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كان السلطان الأشرف خليل قد أنابه عنه فى قلعة الجبل قبل خروجه للصيد - حال بين كبتغا وبين دخول القاهرة، وانتهى الأمر بين الأمراء على اختيار الابن الأصغر لقلاوون

"محمد"، ولم يكن اتفاقهم عن إيمان بمبدأ الوراثة، فالمماليك لم يكونوا يؤمنون بهذا النظام من نظم الحكم - كما سبق أن ذكرنا - ولكن كان اتفاقاً مؤقتاً إلى أن ينجلي الموقف ويدبر كل أمير أمره ويجمع أعوانه ثم يكون الفوز للأقوى. كان الناصر محمد بن قلاوون حين أختير لتولى السلطنة صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره، ولم تدم سلطنته الأولى هذه غير سنة واحدة كانت اسمية، وتركزت السلطة الفعلية في أيدي مجموعة من الأمراء في مقدمتهم الأمير زين الدين كبتغا نائب السلطنة، وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير، وسعى كل من هذين الأميرين لإنتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير، وانتهت المنافسة بينهما بالتجاء سنجر الشجاعى إلى القلعة ومحاصرة كبتغا ورجاله للقلعة وقطع الماء عنها يوماً كاملاً إلى أن تمكن كبتغا من القبض على سنجر الشجاعى وقتله، وبذلك أصبح كبتغا صاحب الكلمة الأولى فى شئون الدولة، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه، ولم ينقص كبتغا سوى لقب السلطنة وشعارها .

ولجأ كبتغا إلى استصدار أمر من الملك الناصر بالعفو عن بعض الأمراء الذين اشتركوا فى قتل الأشرف خليل مثل الأمير حسام الدين لاجين والأمير قراسنقر فادى ظهورهما إلى ثورة المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف خليل - فى القاهرة فنهبوا الأسواق واتجهوا إلى القلعة لمحاصرتها، ولكن جنود كبتغا تمكنوا من إخماد ثورتهم .

واستغل حسام الدين لاجين هذه الثورة وحررض كبتغا على عزل الناصر محمد وإعلان نفسه سلطاناً بدله، قال له إن الناصر متى كبر لا يبقيك، واقتنع كبتغا بهذا رأى، فجمع الخليفة والأمراء والقضاة للتشاور ، وقال لهم: "لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية" وأوضح لهم ضرورة أن يلى السلطنة رجل قوى تهابه الجند وتخشاه

الرعية، وضرب لهم مثلاً بثورة المماليك الأشرفية وقال انها لم تكن لتحدث لو كان السلطان رجلاً كبيراً .

واقتمع الحاضرون برأيه ووافقوا على خلع الناصر محمد بعد سنة إلا ثلاثة أيام من تولية الحكم، وأعلن كبتغا سلطاناً فأمر بإسكان الناصر مع أمه فى بعض قاعات القلعة وحجبه عن الناس .

السلطان العادل زين الدين كبتغا :

(٦٩٤ - ٧٦٦هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦م)

كان كبتغا مغولى الأصل أسرة السلطان المنصور قلاوون فى واقعة حمص الأولى وجعله فى زمرة مماليكه حتى شب وتحرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة. وقد بدأ كبتغا حكمه بتعيين الأمير صاحب فخر الدين الخليلى فى منصب الوزارة، وحسام الدين لاجين، نائباً للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة، ومن ثم صار كبتغا يقرب إليه الأمراء وينعم عليهم بالإقطاعات حتى قويت شوكته وعظمت منزلته عند جميع الناس، غير أنه لم يكن موفقاً فى حكمه لا لضعف فى شخصيته، وإنما لأسباب خارجة عن إرادته، فقد اقترن عهده بأحداث كثيرة أثارت غضب الشعب وكرهه وأصبحوا يتمنون زوال ملكه، من أهمها وصول طائفة من المغول الأويراتية وترحيبه بهم لأنهم من بنى جنسه ومنحهم الإقطاعات وأجرى عليهم الأرزاق وأنزلهم بالحسينية، وكره الشعب هؤلاء الوافدية لأن الكثيرين منهم كانوا لا يزالون على وثنييتهم لم يعتنقوا الإسلام بعد، فكانوا يخالفون أوامر الدين ولا يصومون شهر رمضان .

كما تشامع الناس من كبتغا وحكمه لأنه جاء مصحوباً بانخفاض النيل

واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء وكثر موت الناس حتى كان يخرج من باب من أبواب القاهرة كما تشير المصادر كل يوم ما يزيد على سبعمئة ميت وتزايد الأمر فصارت الناس تدفن بغير غسل أو كفن، وعجز الناس عن مواراة الأموات في القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم، وقرن الناس بين هذا البلاء الذي أصابهم وبين توليه كتبغا للحكم .

واستغل حسام الدين لاجين الصديق القديم لكتبغا عوامل الكراهية التي أخذت تتجمع ضد كتبغا، وبدأ ياتمر به ويعمل على إبعاده وتولييه السلطنة مكانه ونفذت المؤامرة في طريق عودة كتبغا من زيارة الشام وفي صحبته لاجين سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٦م) فعند اللجون - قرب طبرية أحس كتبغا بالمؤامرة ففر إلى دمشق ولجأ إلى قلعتها واحتتمى بها - إلى أن عينه حسام الدين لاجين بعد أن تسلطن نائباً على قلعة صرخد بعد أن أخذ عليه التعهد بأن لا يكتب أحدًا أو يشاور أحدًا - فذهب إليها معزراً ، وفي عصر سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م) نقل حاكماً على حماة فظل بها إلى أن توفي في سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) .

هكذا انتهت سلطنة العادل كتبغا التي لم تدم غير سنتين .

السلطان المنصور حسام الدين لاجين :

(٦٩٥ - ٦٩٨هـ/١٢٩٦ - ١٢٩٨م)

كان لاجين مملوكاً من ممالك السلطان المنصور قلاوون، ثم اعتقه ونقله إلى الخدمة ومر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى أصبح أميراً، وزوجه إحدى بناته، وعينه نائباً على دمشق، فلما ولي السلطنة الأشرف خليل عزله عن نيابة دمشق، فأثار هذا العزل الحقد في نفسه ودفعه إلى الاشتراك في المؤامرة التي دبرت في كوم تروجة ضد خليل عند خروجه للصيد وانتهت

بقتله، واختفى لاجين خوفاً من انتقام المماليك الأشرف فيه في جامع ابن طولون .
إلى أن استصدر كبتغا وقت أن شغل منصب السلطنة للناصر محمد بن
قلاوون أمراً بالعفو عن حسام الدين لاجين، ثم حرض لاجين كبتغا على إبعاد
الناصر والاستيلاء على العرش، ثم أخذ لاجين يتآمر على صديقه القديم كبتغا
طمعاً في السلطنة، ونفذت المؤامرة في سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٦م) بينما كان
السلطان كبتغا في زيارة للشام وفي صحبته لاجين، ففى طريق العودة إلى
مصر وعند اللجون - قرب طبرية - أحس كبتغا بالمؤامرة ففر إلى دمشق .
هكذا اتاحت الفرصة للأمير حسام الدين لاجين لإعتلاء عرش السلطنة
فإستولى على خزائن السلطان كبتغا، وضم إلى جانبه العساكر التي كانت في
ركابه ، ثم قابله الأمراء وشرطوا عليه أن يكون معهم كأحدهم وأن لا يستقل
برأى دونهم، ولا يطلق العنان لمماليكه، وأقسم لاجين لهم ألا يستبد برأيه في
أمر من الأمور بل يستشيرهم في مهام الدولة، كما تعهد بالأل يقدم مماليكه
وخاصة منكوتر على واحد منهم، فوافق الأمراء على توليته ، وحلفوا له
على السمع والطاعة، ثم تلقب بالملك المنصور وركب بشعار السلطنة .
وانتهت مشكلته مع كبتغا بتعيينه نائباً على قلعة صرخد، على أن مشكلة
كبتغا لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت السلطان حسام الدين لاجين في
أوائل حكمه، إذا كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذي نظر إليه الناس
بوصفه صاحب الحق الشرعي الأول في السلطنة، وكان لاجين قد اتخذ من
زواجه من ابنة قلاوون ذريعة لأحقيقته في تولى العرش ، لذلك عمل على
إبعاد الناصر محمد إلى قلعة الكرك قائلاً له "أنا أحفظ لك الملك، وأنت
ان تروح إلى الكرك إلى أن تفرع وتترجل وتتخرج وتجرب الأمور تعود
إلى ملكك".

وتشير المصادر إلى أن حسام الدين لاجين أثناء نيابته في دمشق كان،

يحيا حياة كلها لهو وإنصراف إلى شرب الخمر والبحث عن الملذات، ولكنه بعد توليه السلطنة انقلب رجلاً آخر، فأقبل على العبادة وحرص على أن يسود العدل بين الناس، وكان يجالس عامة الشعب ويشاركهم في طعامهم وانفق المبالغ الطائلة في تجديد جامع ابن طولون وقيامه ببناء نذره أثناء اختفائه فيه بعد مقتل الأشرف خليل، كما عمل الروك الحسامي سنة (٦٨٩هـ / ١٢٩٠م) وهي عملية قياس الأرض ومسحها، وما يتبعها من فك الزمام وتعديله - وراعى المصلحة عند إعادة توزيع الإقطاعات، وكان سبب قيامه بهذه العملية - الروك - هو أنه لاحظ أن الأمراء يأخذون الكثير من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية، مما يجعلها مغنماً لأعدائهم ومستخدميهـ .

وفي عهده علا فيضان النيل، وكثرت المحاصيل، وانخفضت الأسعار، وانقطعت الأوبئة، فزاد حب الناس له، وكان من الممكن أن تطول فترة سلطنة لاجين، ولكن حنثه بالوعد الذي أخذ على نفسه أمام الأمراء عندما اختاروه لتولى السلطنة هو ألا يسلط عليهم مماليكه أو يتركهم يعبثون بمصالح الغير، ألا أنه قرب نفر من مماليكه إليه ورقاهم إلى مرتبة الإمارة، كما قام بعزل شمس الدين قراستقر نائب السلطنة وعين بدلاً منه مملوكه منكوتر، وأطلق له العنان يتصرف وفق هواه فاستبد بالحكم وحجب السلطان حسام الدين لاجين عن الخاصة والعامة، مما كان بداية للمتعاب التي واجهت السلطان لاجين .

ويبدو أن منكوتر أعد نفسه لأن يخلف لاجين في منصب السلطنة، الأمر الذي أثار حنق الأمراء وجعلهم يفكرون في القضاء على منكوتر والسلطان لاجين معاً وتزعم المؤامرة الأمير كرجي مقدم البرجية .
وفي يوم الخميس العاشر من ربيع ا خر سنة (٦٩٨هـ / ١٢٩٨م) أنقض

الأمير كرجى على السلطان بالقلعة فضربه بسيفه، وأكمل عليه بقية الأمراء، ثم اتجهوا إلى منكوتر فأجهزوا عليه كذلك، وبذلك انتهت سلطنة حسام الدين لاجين التي استمرت سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوماً .

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثانية] :

(٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م)

بعد مقتل لاجين ومنكوتر خلا دست السلطنة من سلطان، واجتمع الأمراء للتشاور، فنهض الأمير كرجى - قاتل السلطان لاجين - ورشح زميله الأمير طغجى ليتولى دست السلطنة، كما رشح نفسه لنيابة السلطنة .

غير أن الأمراء لم يرحبوا بهذا الترشيح ، وأنقض المجلس دون الوصول إلى اتفاق، ولم يلبث أن كثر الطامعون واشتد الشقاق، وشارت الفتنة في البلد وانتهت بقتل الأميرين كرجى وطغجى، ورؤى حسماً للخلاف استدعاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ليلى السلطنة، لا إيماناً من الأمراء باحقيقته ولكن حتى ينجلي الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوى الذى يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرس نفسه سلطاناً .

وعندما تأكد الناصر محمد من صدق دعوة الأمراء - لأنه كان يخشى أن يكون وراءها مكيده - خرج من الكرك فى موكب حافل، واستقبل فى القاهرة استقبالاً حماسياً إلى أن صعد قلعة الجبل، وجلس على العرش وجدد الأمر له البيعة وأصدر الخليفة التقليد بإنابته عنه فى الحكم وتعيينه سلطاناً، وكان عمر الناصر محمد فى بداية سلطنته الثانية أربعة عشر عاماً .

أخذ الناصر يباشر سلطانه، فعين الأمير سيف الدين سلاز (التترى) نائباً للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (الجركى) استاداراً وقد استغل هذان الأميران صغر سن السلطان واستبدا بالأمر، وضيقا على

الناصر محمد، حتى أنهما تدخلتا في أبسط أموره الشخصية مثل المصروف والمأكل والمشرب ، ونتيجة للسياسة التي سار عليها كل من بيبرس وسالار في الإستئثار بالسلطة أن بدأت مظاهر الإختلاف تظهر بينهما، ولكن تأجل النزاع المرتقب بينهما قليلاً بسبب تجدد هجمات المغول على بلاد الشام.

الناصر محمد بن قلاوون ومغول فارس :

خرج غازان إيلخان مغول فارس إلى بلاد الشام بجيوشه سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٨م) يريد الإنتقام من المماليك والأخذ بثأر الهزائم السابقة، ولما وصل إلى الناصر محمد نبأ عبور غازان نهر الفرات عهد إلى بعض الأمراء بالخروج إلى بلاد الشام ثم تبعهم على رأس جيش كبير بعد أن أناب عنه في مصر الأمير ركي الدين بيبرس المنصوري الدوادر، وعند غزوة قامت فرقة الأويرانية بفتنة لإعادة كبتغا إلى العرش، وبالرغم من القضاء على هذا الفتنة إلا أنها أخرجت زحف الجيش المملوكي وأصابته بالفوضى والإرتباك وأدت إلى فقده كثير من معداته الحربية فنزلت الهزيمة بالمماليك عند مجمع المروج بين حماة وحمص ، واكتفى غازان بذلك وعاد إلى بلاده بعد أن عين نائباً عنه في دمشق وعادت فلول الجيش المملوكي إلى مصر لتعيد تكوين جيش جديد.

وفي تلك الأثناء وصل وفد من قبل غازان يعرض الصلح ويحمل رسالة في هذا المعنى، وإستجاب الناصر، ولكن هذا العرض كان خدعة من غازان يقصد به كسب الوقت للتعرف على أحوال المماليك فخرج غازان من بلاده سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م). قاصداً غزو الشام من جديد وكان ذلك في الوقت الذي خرج فيه جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر محمد يدفعهم الحماس والرغبة في الإنتقام لمسح عار الهزيمة السابقة وفي مرج الصفر بالقرب من دمشق دارت موقعة كبيرة حلت فيها الهزيمة قاسية

بالمغول ، الأمر الذى جعل الناس يفرحون بالناصر محمد رغم صغر سنه ويستقبلونه استقبالا حافلا فى دمشق والقاهرة .

الناصر محمد بن قلاوون والأعراب :

وبعد عودة الناصر إلى عاصمة ملكه، وبعد أن هدأت احتفالات النصر على المغول فى مرج الصفر وصلت الأنباء بأن الأعراب يعيثون فسادا فى الوجه القبلى وأنهم أخذوا يقطعون الطرق على التجار ويفرضون عليهم ضرائب فادحة من المال والغلال، وقد بلغ من تفاقم خطرهم أن استخفوا بالولاة وامتنعوا عن أداء الخراج، وهجموا على السجن وأخرجوا المساجين، وأعلنوا عصيانهم. ولما اشتد خطر هؤلاء الأعراب ، استدعى الأمراء القضاة والفقهاء واستفتوهم فى قتالهم ، فأفتوا بجواز ذلك .

ووضعت خطة حكيمة مآكرة، فأصدرت الأوامر لوالى الجيزة أن يمنع الناس من السفر إلى الصعيد، ثم أشيع فى البلاد أن الأمراء سيسافرون إلى الشام وتقرر بعد ذلك أن تخرج أربع فرق من الجيش إلى الصعيد، سار وبيبرس كل على رأس جيشه ويكون أحدهم فى البر الشرقى واخر فى البر الغربى، وسار الأمير بكتاش بمن معه من الجند إلى الفيوم ، وخرج بيبرس الدوادار مع بعض الأمراء إلى السويس والطور، كما قطع حاكم قوص بمساعدة بعض الأعراب الموالين طرق الصحراء، وبذلك نجح الأمراء فى محاصرة العربان المتمردين بالوجه القبلى على حين غفلة منهم، ثم انقضوا عليهم فى مخابئهم وتعقبوهم بسيوفهم حتى أبادوا كثيرين منهم، وبذلك تخلصت الدولة من شرورهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة وأمن الناس فى الصعيد على أرواحهم وأموالهم .

وبعد أن انتهى الناصر محمد بن قلاوون من هذين الخطرين، الخارجى

المغول والداخلي وهو الأعراب، بدأ يحاول معتزلاً بإنتصاراته أن يباشر بنفسه شئون الحكم . ولكن الأميران سلار وبيبرس ضيقا الخناق عليه، وحالا بينه وبين الإتصال بانناس أو التصرف في أمواله، لذلك فكر الناصر محمد في الهروب من السلطنة فتظاهر برغبته في أداء فريضة الحج وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق الكرك، ولكنه لم يكد يصل إلى الكرك سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م) حتى أعلن أنه عدل عن الحج، ورغب في المقام بالكرك، وأرسل الناصر كتاباً إلى الأمراء في مصر يخبرهم فيه بنيته ، فوجئ ببيبرس وسنلار بهذا القرار ، فأرسلا إلى الناصر يتهددانه ويطلبان منه العودة إلى القاهرة وإلا حرموه من السلطنة ومن الإقامة في الكرك، ولكنه صر على موقفه .

وبذلك خلا دست السلطنة مرة ثانية، وانتهت سلطنة الناصر محمد ثانية التي استمرت نحو عشر سنين ونصف سنة .

سلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير :

(٧٠٨ - ٧٠٩هـ/١٣٠٨ - ١٣٠٩م)

بعد أن صمم الناصر محمد على عدم مغادرة الكرك واعتزل الحكم، نزع الأمراء للتشاور فاقترح عليهم بيبرس الجاشنكير معاودة الكتابة إلى ناصر ورجائه في العودة إلى ملكه، فلم يقبل الأمراء منه هذا الرأي "لأنه متى حصل التردد والمراجعة والتقليد والمفاوضة نخشى من اضطراب الأمور وعتت الجمهور ونفاق العريان وثورة أهل العصيان" واستقر رأيهم على أن يبعثوا بالملك إلى الأمير سلار بوصفه نائب السلطنة، ولكنه امتنع عن قبوله . سب وخاف أن يحل به ما حل بكتبغا ولاجين، ويبدو أن سلار الذي كان

زعيم الممالك الترك أحس بعدم رضا المماليك الجراكسة عن ترشيحه، للسلطنة وأنه لم يبق "إلا أقامتهم الفتنة" فتقدم وخاطب الأمراء قائلاً: "والله يبا أمراء ما أضلح للملك ولا يصلح له إلى أخى هذا" وأشار إلى بيبرس الجاشنكير الجركسى فوافق الأمراء وتسارع البرجية بأجمعهم قائلين: "صدق الأمير سلار وأخذوا بيد الأمير بيبرس وأقاموه كرهاً وصاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه" وبذلك وقع اختيار الأمراء على الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وبويع له بعد أن عرض كتاب السلطان الناصر محمد - الذى يقول فيه انه خلع نفسه من الملك على فضاة مصر، فاستقر على دست السلطان فى (٢٣ شوال سنة ٧٠٨هـ/٣٠٨م) ولقب بالمظفر، وعين الأمير سلار نائباً للسلطنة "على عادته".

ولم تطل سلطنة بيبرس غير سنة واحدة (٧٠٨ - ٧٠٩هـ/١٣٠٨ - ١٣٠٩م)، ولم تستقر له الأمور خلالها، فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار، ونسب الشعب هذا كله إلى بيبرس، فكرهوه وكرهوا عهده وخاصة أنه اتبع سياسة العنف فى معاملته للناس والأمراء، فقد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه.

أما الناصر محمد نفسه فكان كلما تقدم به الوقت تنبه إلى حقوقه فى الملك وإلى سلطانه المسلوب فقد أصبح الصبى الصغير فتى يافعاً واكتسب قدراً كبيراً من التجربة وبخاصة فى معاملة الأمراء، وأخذ يتصل بأمراء

الشام لجمعهم حوله والإنتصار بهم ، ثم مهاجمة مصر لإبعاد بيبرس وسلار واستخلاص العرش ثانية لنفسه، فعلاً استجاب أمراء الشام لدعوته، وترك كثيراً من الأمراء جانب بيبرس الجاشنكير وهربوا إليه، عند ذلك خرج الناصر بجنده إلى دمشق فاستقبله أهلها بالحفاوة والترحيب ودعى له على منابرها .

وحاول المظفر بيبرس بعد أن انفض عنه معظم رجاله أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسي المستكفي بالله أبي الربيع سليمان، وفي تلك البيعة حث الناس على طاعة بيبرس وتأييد ملكه، ولكن دون جدوى .

وأخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه في موقف لا يحسد عليه، بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء، فجمع من بقى حوله من الأمراء وتشاور وإياهم في الموقف فنصحه الأمير سلار نائب السلطنة بالتنازل عن العرش وإن يكتب إلى الناصر يرجوه العفو، فوافق على رأيه ، وأرسل إلى الناصر يستعطفه أن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون أو حماة، ثم أعلن خلع نفسه من السلطنة بحضور قضاة مصر الأربعة بعد أن استولى على ما فى خزائن مصر من الأموال وفر هارباً من القلعة ومعه مماليكه قاصداً أطيح، واتصل خبره رويه بالعامه "فأدركوه وهو خارج من القلعة وتبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة" وأوشكو على الفتك به لولا أن شغلهم بما رماه إليهم من مال. وبذلك انتهت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير.

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثالثة] :

(٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤١م)

يعتبر المؤرخ أبو الفداء شاهد عيان لرحلة الناصر محمد من الكرك حتى وصل إلى القاهرة، إذ أنه رافق الناصر في رحلته حتى دخل القاهرة، ولم يعد إلى الشام إلا بعد أن جلس على العرش، فقد دخل الناصر قلعة الجبل مساء الأربعاء أول أيام عيد الفطر سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) وجلس على تخت الملك وسرير السلطنة وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للهناء. وكان الناصر في هذه المرة قد جاوز سن الطفولة، فقد كان عمره وقتذاك خمسة وعشرين عاماً، وقد صقلته الأحداث وحكته التجارب فلم يترك لأحد من الأمراء شيئاً من النفوذ، بل جمع السلطة كلها في يديه، ورسم خطة للإنتقام الهادي البطي من كل الأمراء الذين أساءوا إليه، وبدأ يبغرس الجاشنكير فقبض عليه عند غزة وهو يحاول الفرار، وأعدمه بعد أن عنقه وذكره بمواقفه منه .

أما سائر فقد القي به في السجن في قلعة الجبل، وصودرت كل أمواله، فقد كان من أغنى الأمراء محباً لجمع المال، وقد ترك سجيناً دون طعام أو شراب لمدة سبعة أيام، ثم مات بعد أن أكل أحد أصابعه، ودفن في التربة التي كان قد انشأها لنفسه بالقرب من جامع بن طولون .

وهكذا فعل الناصر بكل الأمراء الذين أساءوا إليه في الماضي أو الذين حاولوا التآمر ضده، ولم يتساهل مع أي أمير - في مصر والشام - شك في ولائه واخلصه له .

وقد استمر حكم الناصر محمد في تلك المرة الثالثة إحدى وثلاثين سنة نعمت فيها مصر بالهدوء والاستقرار، وبلغت الذروة من التقدم والرخاء وال عمران والنفوذ، وقد بدأ الناصر بإلغاء كثير من المكوس وهي الضرائب

غير الشرعية التي استحدثتها الولاة والسلاطين لسد الحاجات الطارئة للدولة، مثل مكس ساحل الغلال، ومقرر السجون، ومقرر طرح الفراريج، ومقرر الأقباب ومقرر المعاصر، ومقرر رسوم الأفراح، وكان هدفه من الغاء هذه المكوس اضعاف الأمراء لأنهم كانوا أول المنتفعين بها .

كما قام بعمل الروك الناصري - والروك كلمة من أصل قبطى تطلق على عملية قياس الأرض ومسحها وتقدير ما عليها من خراج - فأعاد توزيع الإقطاعات بحيث يحد من قوة الأمراء وسلطانهم، واستغرقت هذه العملية خمسة وسبعين يوماً وشارك السلطان الناصر نفسه فيها .

ولا أدل على موجة الرخاء التي عمت مصر فى ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانقاوات وسبل وقصور، وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة فى مصر والشام ومن أهم منشآته فى القاهرة الميدان العظيم على النيل وهو المعروف (الميدان الناصري) وموقعه الآن حى جاردن سيتى، وكان مخصصاً لسباق الخيل .

ومنها القصر الأبلق الذى أحضر الناصر له مهرة الصناع من دمشق ليشاركوا مع زملائهم المصريين فى بناءه وزخرفته، وسمى بالأبلق نظراً لأن واجهته كانت مكونة من أشرطة عريضة متوازية ذات لون أسود وأصفر على التوالي نتيجة لإستخدام نوعين من الصخور لهما هذان اللونان .

ومنها الإيوان الذى كان موقعه موقع مسجد محمد على الحالى فى القلعة، وكان والده المنصور قلاوون هو الذى بناه، وجدده أخيه الأشرف خليل، فأعاد بناءه الناصر محمد، وأنشأ به قبة عظيمة، ووضع فى صدره سرير الملك، وكان مصنوعاً من العاج والأبنوس .

ومنها مسجد القلعة الذى لا يزال موجوداً حتى الآن، وكذلك شيد

الناصر خانقاة للصوفية بالقرب من سرياقوس، وقد عمر ما حول الخانقاه حتى أصبحت قرية تعرف اليوم بإسم "الخانكاه" كما أعاد الناصر حفر خليج الإسكندرية مما ساعد على نمو الأراضى المنزرعة، ونمو النشاط التجارى بالإسكندرية وازدياد العمران بها .

ونظراً لهذا الإستقرار والرخاء الذى نعمت به مصر فى عهد الناصر محمد أن اعتبر ذلك العصر بالذات أعظم عصور التاريخ المصرى زمن المماليك مما أدى إلى رفع مكانة مصر فى العالم الخارجى، فسعت معظم الدول الإسلامية والمسيحية إلى خطب وده، وعمل هو من جانبه على تحسين علاقاته بهذه الدول ومما ساعده على ذلك انتهاء الخطرين الكبيرين اللذين كانا يهددان مصر وهما المغول والصليبيين .

وقد حاول الصليبيون الذين استقروا فى قبرص ورودس فى سلطنته الثانية مهاجمة جزيرة أرواد المواجهة لشواطئ الشام ولكنه أرسل إليهم أسطولاً نجح فى هزيمتهم وابعادهم عن الجزيرة .

أما عن علاقة الناصر محمد فى سلطنته الثالثة بمغول فارس فإنها قد تحسنت وخاصة بعد أن اعتنقوا الإسلام، قبعد وفاة غازان سنة (١٢٧٠هـ/١٢٧٠م) سنة ١٣٠٤م) خلفه على العرش أولجايتو (٧٠٤ - ٧١٧هـ/١٣٠٤ - ١٣١٧م) الذى تحسنت العلاقات فى بداية عهده بين دولته وبين المماليك فى مصر، فأوفد إلى الناصر محمد السفراء تؤكد له حرصه على توثيق عرا الصداقة به ، وخاطب السلطان المماليك فى خطابه بالأخوة وسأل اخماد الفتن وطلب الصلح، على أن أولجايتو ما لبث أن أظهر عداوه للماليك السنيين بعد أن اعتنق مذهب الشيعة وعمل على نشره فى الجهات الغربية من دولته، ومما ساعد على توتر العلاقات لجوء بعض أمراء المماليك مثل قراسنقر والأفرم إلى أولجايتو خشية أن ينكل بهم الناصر، ويقال أنهما حرضا أولجايتو على

بجبهة بلاد الشام، مما أدى إلى حدوث بعض المناوشات بين المغول والمماليك كان النصر فيها للمماليك .

ولما توفي أولجايتو خلفه ابنه أبو سعيد بهادر (٧١٧ - ٧٣٦هـ/١٣١٧م - ١٣٣٥م) وكان في الثالثة عشرة من عمره، فقام بالوصاية عليه الأمير جويان، وفي عهده أرسل الناصر سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) ثلاثين رجلاً من طائفة الحشاشين في سوريا إلى فارس لإغتيال قراستقر وغيره من الأمراء المماليك، مما أضاف المغول إلى حد كبير، لأنه ذاع بينهم أن هؤلاء الحشاشين - الإسماعيلية - حضروا لقتل السلطان "أبو سعيد" وأمراء المغول، واحتجب "أبو سعيد" بخيمته خوفاً على نفسه وأرسل إلى الناصر يفاوضه لعقد معاهدة صداقة تنص على تسليم هؤلاء الأمراء للناصر، وان يسلم إليه الناصر كذلك بعض الأمراء المغول الذين كانوا قد فروا من بغداد ولجأوا إلى مصر. وبذلك حل الوئام بين المغول والمماليك وظلت مصر بآمن من غارات المغول إلى عهد تيمورلنك .

وبعد وفاة أبو سعيد سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) قامت المنافسات بين الأمراء وانقسمت دولة المغول بفارس بين ثلاث سلاطين، موسى خان، ومحمد شاه الذي أقامه الشيخ حسن الجلايري واتخذ تبريز مقراً لحكمه، وتوغاي تيمور الذي استدعاه الأمراء من مازندران بعد تولية محمد شاه ولوه سلطاناً بخراسان وكان الشيخ حسن الجلايري المعروف بحسن بوزرج أبا حسن الكبير" قد أسنقل بالعراق ، وأسس بها أسرة تعرف باسم الأسرة الجلائرية وقد طلب حسن من الناصر أن يمدّه بالمساعدات الحربية ليستعين بها على حرب فرع الدولة المغولية الآخر بفارس، فوعده الناصر بالمساعدة . . . بل أن يخطب باسمه على منابر بغداد ، وان ينقش اسمه على نقودها .

أما عن علاقة الملك الناصر بمغول القفجاق فظلت على ما كانت عليه قائمة على أساس المصافاة والمسالمة لدولة المماليك في عهد تغتو ، غياث الدين _"طقطاي" (٦٨٩-٧١٢هـ/١٢٩٠-١٣١٢م) المعاصر للناصر محمد، وفي عهد خليفته أوزبك خان، غياث الدين محمد (٧١٢ - ٧٤٢هـ/١٣١٢ - ١٣٤١م) استمرت العلاقات الودية وتبودلت المراسلات والهدايا، كما تزوج الملك الناصر بإحدى بنات بيت أوزبك خان وهى الخاتون "دلنبيه" أو "طولونية" التى قال الملك الناصر بشأنها لكبير رسل الملك أوزبك "نحن ما نريد الحسن، وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخى ونكون نحن وإياه شيئاً واحداً" .

وفى عهد الناصر لجأ إلى مصر أبو زكريا اللحيانى. أخذ ملوك الحفصيين فى تونس فساعدته الناصر على العودة لعرشه، فخطب للناصر على منابر تونس وفى عهد الناصر أقيم أول ملك مسلم على بلاد النوبة وهو عبد الله برشنبوا وأخذت بلاد النوبة تتخذ طابعاً عربياً إسلامياً .

وكذلك كان الناصر على علاقة طيبة بملوك بنى رسول فى اليمن، والسلطان محمد بن طغلق فى الهند، والدول الإسلامية فى غرب إفريقيا - الكانم، وبورنو والتكرور، وكذلك الدول المسيحية الكبرى كانت تخطب وده او تطلب صداقته او مساعدته ، وكما يقول المؤرخ ابن إياس عن الناصر محمد "وخطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك، وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه، وصار جميع مصر فى قبضته" .

أولاد الناصر محمد وأحفاده ونهاية دولة المماليك البحريةية :

ظل ملك مصر فى نيت السلطان الناصر محمد بن قلاوون مدة أربعين

سنة نظراً لما تمتع به بيت قلاوون من حب الناس و إخلاصهم لما لمسوه من الهدوء والإستقرار الذى مكنهم من مباشرة حياتهم العادية دون أن تقلقهم فتنة أو أزمة نتيجة للمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم. الذى كان دائماً ما يحدث بمجرد أن ينتشر خبر مرض السلطان أو وفاته أو مقتله .

وكان لشخصية الناصر وأبيه قلاوون ولطول المدة التى حكما فيها أثر قوى فى تعلق أمراء المماليك بالأسرة ، ولهذا أجمعوا بعد وفاة الناصر على إبقاء السلطنة فى إبنائه، فولى السلطنة فى الأربعين سنة التالية لوفاة الناصر (٧٤١ - ٧٨٤هـ/١٣٤٠ - ١٣٨٢م) إثنا عشر سلطاناً من أولاده وأحفاده، ثمانية منهم من أولاده حكموا نحو العشرين سنة، وأربعة من أحفاده حكموا فى العشرين سنة الثانية .

وبعض هؤلاء الأبناء والأحفاد تولى منصبه السلطنة وهم أطفال صغار فلم يكن لهم من الأمر شئ، بل كانت أمور الدولة كلها فى أيدي كبار الأمراء فشغلوا بالمؤامرات والمنافسات عن النظر فى صالح البلاد والرعية، فساءت الأحوال الإقتصادية وعمت الفوضى، وزاد الطين بلة حدثان خطيران وقعا فى تلك الحقبة أولهما انتشار الوباء الأسود سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) وثانيهما غزوة القبارصة لمدينة الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) .

والعجيب أن أحداً من الأمراء لم يجزء على التقدم لتولية العرش ووضع حد لحكم أسرة قلاوون رغم ضعف أبناء الناصر وحفدته وصغر سنهم، ويبدو أنهم قنعوا بما فى أيديهم من سلطان فعلى وتركوا للسلطين الصغار من بيت قلاوون المنصب والاسم .

ولكن هذا الوضع المتدهور مهد السبيل لإزدياد قوة المماليك البرجية أو الجراكسة ونفوذهم حتى نجح أحدهم وهو الأمير برقوق فى خلع آخر سلطان من حفدة الناصر وهو زين الدين أمير حاج الذى لم يحكم غير سنة واحدة،

وفى تولى السلطنة فكان ذلك نهاية لحكم أسرة بنى قلاوون ودولة المماليك البحرية وبداية دولة جديدة هي دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

أبناء الناصر محمد

(٧٤١ - ٥٧٦٢هـ / ١٣٤١ - ١٣٦١م)

١ - الأمير ناصر الدين أنوك : (٧٣١ - ٥٧٤٠هـ / ١٣٣١ - ١٣٤٠م)

كان أنوك في التاسعة من عمره عندما عهد له أبوه بالملك من بعده في حياته، ووافق الأمراء على ذلك ووزعت عليهم وعلى كبار رجال الدولة الخلع، وركب الأمير أنوك بشعار السلطنة، ولكن أنوك لم يقدر له أن يلى السلطنة، فقد توفي في سنة (٥٧٤٠هـ / ١٣٤٠م) في حياة أبيه، في الوقت الذي اشتد المرض بالناصر محمد نفسه، فجمع كبار الأمراء وأخذ عليهم المواثيق بتولية سيف ابنه الدين أبي بكر سلطاناً من بعده ، فتعهدوا له بذلك .

٢ - المنصور سيف الدين أبي بكر :

(٧٤٠ - ٥٧٤١هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١م)

بعد وفاة الناصر محمد صدق الأمراء وعودهم وولى سيف الدين أبي بكر السلطنة، وكان في العشرين من عمره، ولكنه لم يلى السلطنة غير ثلاثة شهور دب فيها الخلاف بينه وبين كبار الأمراء أتاك العسكر الأمير قوصون، الذي استنار بقية الأمراء ضده فقبضوا عليه ونفوه إلى قوص، ثم قتلوه بعد قليل .

٣ - الأشرف علاء الدين كجك : (٧٤١هـ / ١٣٤١م)

عينه الأمير قوصون بعد خلع وقتل أخيه السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر وكان عمره خمس سنوات، ولذا لم يكن منتظراً منه أن يكون له رأى

مسموع فى إدارة شئون البلاد، وأمضى فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام، لم يكن له فيها أمر ولا نهى، وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون، وخلع كجك وعين الأمراء أخاه .

- الناصر أحمد : (١٣٤٢/٥٧٤٢م)

كان يقيم بالكرك وقت تعيينه سلطاناً، فاستدعى إلى مصر ولكنه بعد فنيل عاد إلى الكرك وفضل الإقامة بها تاركاً مصر والشام للأمراء فإضطربت الأحوال وعمت القوضى، وعندما طلب منه الأمراء الحضور إلى عاصمة ملكه رفض فإضطروا إلى خلعه وقتله فيما بعد واختاروا مكانه أخاه إسماعيل .

٥ - الصالح إسماعيل : (٧٤٣ - ١٣٤٢/٥٧٤٦ - ١٣٤٥م)

شارك فى قتل أخيه الناصر أحمد بعد أن ساءت سيرته فى الكرك، ولم يكن خيراً من أخيه، بل كان أسوأ منه سيرة، فأعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين، ولم يعمر الصالح إسماعيل فى الحكم غير ثلاث سنوات مرض بعدها وتوفى .

٦ - السلطان الكامل شعيبان : (٧٤٦ - ١٣٤٥/٥٧٤٧ - ١٣٤٦م)

لم يكن أقل من أخيه عيباً ومجوناً، أهمل شئون الدولة والحكم فإغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين، وانتهى الأمر بالقبض عليه قتلته أخوه حاجى وتولى السلطنة مكانه .

٧ - المظفر زين الدين حاجى : (٧٤٧ - ١٣٤٦/٥٧٤٨ - ١٣٤٧م)

كان طفلاً فى الحادية عشر من عمره عندما تولى السلطنة، فإتشغل

باللعب واللهو وتطبير الحمام مع "الأوباش" الأمر الذى أغضب الأمراء فثاروا عليه وخلعوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه السلطنة .

٨ - السلطان الناصر حسن : (٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥٤م)

تولى السلطنة وهو فى الحادية عشر من عمره، وبالرغم من طول مدة حكمه قليلاً، إلا أنه لم يستطع لصغر سنه مباشرة الحكم بنفسه، فاستبد بالأمر كبار الأمراء، بل بلغ بهم الأمر أن حددوا له مبلغاً لمصروفه اليومى لا يتعداه وعندما اختلف مع الأمراء قبضوا عليه وسجنوه وعينوا مكانه أخاه .

٩ - السلطان الصالح صلاح الدين : (٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م)

استمر فى السلطنة ثلاث سنوات، لم يكن له فيها إلا مجرد الاسم لغلبة الأمراء شيوخون وطاز وصرغتمش وانتهى أمره بأن قبض عليه الأمراء وحبسوه بالقلعة، وأعادوا إلى السلطنة أخيه الناصر حسن .

١٠- السلطان الناصر حسن [سلطنته الثانية] :

(٧٥٥ - ٧٦١هـ/١٣٥٤ - ١٣٦٠م)

استمرت سلطنة الناصر حسن الثانية أكثر من ست سنوات استطاع فيها أن يشرف بنفسه على شئون الدولة وأن يدير دفة الحكم، لأنه كان قد بلغ سن الرشد، فكان أفضل اخوته جميعاً الذين تولوا السلطنة وكان له شغف خاص بالعمارة، وفى عهده بنيت المدرسة التى تحمل اسمه "مدرسة" السلطان حسن، التى تعتبر فخر العمارة الإسلامية بشهادة الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر .

وبالرغم من ذلك فإن الناصر حسن لم يسلم من تدخل كبار الأمراء فى شئونهم ويطشهم به، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير يلغا وقام معاليه. يلغا بقتله من غير مشاورة بعضهم لبعض .

ولم يلى السلطنة بعده أحد من أولاد الناصر ، بل انتقل الحكم بعد ذلك إلى أحفاد الناصر .

وفى سلطنة الناصر حسن الأولى اصيبت مصر بالوباء الأسود (١٣٤٩هـ/١٣٤٩م) الذى لم يصب مصر وحدها، وإنما بدأ فى بلاد المغول فى المشرق الأقصى وانتقل منها عن طريق طرق التجارة غرباً إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتقل عبر آسيا الصغرى إلى أوروبا حتى عم العالم كله فى وقت واحد ولم يسلم منه حيثان البحر وطيير السماء ووحش البر .

وكانت علامات هذا الوباء أن يظهر للإنسان خراج وراء أذنه أو تحت أبطه ثم لا يلبث أن يبصق دماً ثم يموت بعد قليل .

فبادر السلطان حسن والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا إلى جهة سرياقوس. ونتيجة لأن الناس كانوا يموتون كل يوم بالآلاف أن فتج عن ذلك قلة الأيدى العاملة، فأغلقت الأسواق، ووقفت حركة البيع والشراء، واقفرت الأرض لعدم وجود من يفلحها، بل لقد تعطل صيد السمك من البحيرات لكثرة موت الصيادين، ونتج عن ذلك اضطراب أحوال مصر الاقتصادية، وتعطل نواحى الإنتاج المختلفة، ونقص القوى البشرية واضعافها، وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز، وبطلت الأفراح والأعراس من بين الناس مما أدى إلى تدهور الدولة المملوكية وضعفها .

أحفاد الناصر محمد

(٧٦٢ - ٥٧٨٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٨٢م)

بعد أن عزل الأمير يلبغا السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد وقتله أختار لمنصب السلطنة :

١ - صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد :

(٧٦٢ - ٥٧٦٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٦٣م)

تولى السلطنة وهو فى الرابعة عشرة من عمره، مما أدى إلى ازدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم، وتحكمهم فى مصالح البلاد والعباد وازدياد التناحر والعداء بين طوائف المماليك وبين كبار الأمراء، مما أغرق البلاد فى حالة شديدة من الفوضى، وقيل أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد كان لا يفيق من السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدقون بالطارات عند الصباح والمساء، كما أنه كان يفسق فى حريم الناس ويخل بالصلوات .

٢ - الأشرف زين الدين أبو المعالى شعبان :

(٧٦٤ - ٥٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م)

تولى السلطنة وهو فى العاشرة من عمره واستمرت سلطنته ثلاثة عشر عاماً وانتهى أمره بأن قبض عليه وقتل .

٣ - المنصور علاء الدين على : (٧٧٨-٧٧٨٣هـ/١٣٧٦-١٣٨١م)
تولى السلطنة وهو فى السادسة من عمره وظل فى الحكم حتى وفات
سنة (٧٧٨٣هـ/١٣٨١م) .

٤ - السلطان الصالح زين الدين أمير حاج :

(٧٨٣ - ٧٨٤هـ/١٣٨١ - ١٣٨٢م)

تولى السلطنة وكانت سنة إحدى عشرة سنة ولم يحكم غير سنة واحدة،
لم يكن له فيها أمر ولا نهى لأنه كان لا يستطيع الوقوف فى وجه الأمير
برقوق الذى أخذ فى التكلم فى الدولة على عادته من غير معاند وانتهى الأمر
بأن نجح المماليك البرجية الذين سبق أن جلبهم المنصور قلاوون وأسكنهم
أبراج القلعة وكبيرهم الأمير برقوق إلى عزل أمير حاج أخر سلالة قلاوون
والقضاء على دولة المماليك البحرية ، وانشاء دولة جديدة هى دولة المماليك
البرجية أو الجراكسة .

حملة بطرس لوزجان على الإسكندرية : (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)

كما أصيبت مصر فى عصر اولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الأسود
الذى أصاب اقتصاديات مصر فى الصميم، فإن عصر أحد أحفاده وهو
الأشرف شعبان إيتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى نزلت على مدينة
الإسكندرية، ولم تفلح إلا بعد أن خربت المدينة تخریباً كاملاً، وسلبتها كل ما
فيها من غال وثمانين وقضت على البقية الباقية من ثروة مصر التجارية .

فالحروب الصليبية لم تنته بخروج آخر جندي صليبي من عكا وسواحل الشام سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م)، وإنما استمرت ذبول تلك الحروب فى صورة أخرى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأصبحت جزيرة قبرص تحت حكم اسرة لوزجنان، وجزيرة رودس تحت حكم الفرسان الإسبتارية مركز هذا النشاط الصليبي وظل الهدف هو استعادة بيت المقدس.

وركز دعاة الحروب الصليبية جهودهم ومشروعاتهم على مصر باعتبارها الحصن الحصين لمنطقة الشرق الأدنى كلها، وعلى حكامها المماليك باعتبارهم السياج القوي الذى يحمى هذا الحصن، وكانت خطتهم تهدف إلى فرض الحصار الإقتصادي على مصر والعمل على إفقارها بحرمانها من المكوس والضرائب التى تجنيها على التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب عبر مصر .

وكانت جزيرة قبرص قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الإسلامية فى شرق البحر المتوسط، فضلاً عن القيام منها بغارات جريئة على بعض الموانئ الإسلامية وموانئ دولة المماليك بوجه خاص، وساعد ملوك قبرص من آل لوزجنان على تنفيذ هذه السياسة أنه كان لديها قوة بحارية مرنت حرب المسلمين من الصليبيين الذين أقاموا بالجزيرة بعد طردهم من الشام .

وفى عهد ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان الذى اشتهر بقوة شخصيته وحماسه الدينية، ففكر فى القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية ولكنه وجد أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى أموال كثيرة ورجال عديدون فخرج من جزيرته وطاف بممالك أوروبا المسيحية يثير حماسهم ويطلب المساعدات لإعداد حملة صليبية جديدة على مصر، فأمدته

فرسان الإستبارية فى رودس وجمهوريةنا جنوة والبندقية ببعض النون، أما بقية ملوك الغرب الأوربي فقد شغلوا بأنفسهم ومصالح دولهم .

وخرج بطرس الأول لوزجنان بأسطول ضخم تجمع فى جزيرة رودس يحمل جيشه الكبير قاصداً الإسكندرية فوصل إلى مياهاها (يوم الخميس ٢١ محرم سنة ٧٦٧هـ / ٩ أكتوبر ١٣٦٥م) .

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة إلا أنه "لم يكن من الدولة اهتمام" واقتحم القبارصة أبواب المدينة ودخلوها رغم ما كان يحيط بها من أسوار حصينة وأبراج منيعة، ومع أن خزائن أسلحتها كانت عامرة بالعدة والعتاد بسبب وجود سلطان طفل فى الحادية عشرة من عمره على عرشها هو السلطان الملك الأشرف شعبان، وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلغا الخاصكى فى حين كان نائب الإسكندرية وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام متغيباً فى أداء فريضة الحج، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير أقل مرتبة ودراية هو الأمير جنغرا .

أمضى القبارصة فى الإسكندرية ثلاثة أيام يقتلون وينهبون ويخربون حتى إذا أحسوا قرب وصول جيش الدولة من القاهرة لإتقاذ الإسكندرية فروا مسرعين إلى سفنهم التى أثقلت بالمنهوبات حتى اضطروا إلى إلقاء بعضها فى البحر خوفاً على سفنهم من الغرق ، فضلاً عن خمسة آلاف اسير منهم "المسلم والمسلمة ، واليهودى واليهودية ، والنصرانى والنصرانية" وهكذا نجح بطرس لوزجنان فى تخريب الإسكندرية، ونهبها ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على مصر أو البقاء فى الإسكندرية وسرعة جلته جعلت المؤرخون المسلمون المعاصرون يصفونه

بأنسه "جاء إلى المدينة لصناً وخرج منها لصـ
وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى على رأس جيشه إلى الإسكندرية ليشهد
ما حل بها من دمار وخراب على أيدي الصليبيين فأمر بدفن جثث القتلى
وترميم ما خرب وأحرق .

دولة المماليك الجراكسة

أُتصف عصر المماليك بصفة العصبية، فلكل سلطان عصبية من المماليك السلطانية ولكل أمير عصبية من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولى نعمتهم، وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليكه بقدر ما يستطيع الصمود في وجه منافسات الأمراء ومؤمراتهم، وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من مغالبة زملائه وأقرانه من الأمراء، بل من مغالبة السلطان نفسه وانتزاع دست السلطنة منه .

لذلك كان كل سلطان بعيد النظر وكل أمير حريص على تحقيق مطامعه يقوم بالإكثار من شراء المماليك الصغار وتربيتهم ليصيروا في المستقبل عدته وأمله في البقاء والوصول وكان مبعوثو المماليك يذهبون إلى كل الأماكن التي يستطيعون الحصول منها على الرقيق حتى من البلاد المسيحية، ثم يعتقون الإسلام، وإن كانوا أحياناً كثيرة يفضلون الرقيق من الأقطار الإسلامية في وسط آسيا، وكانت أهم البلاد التي يجلب منها الرقيق الأبيض بلاد الروم، وبلاد خوارزم، وحول بحر البلطيق، ويقال أن ما كان يصل إلى بلاد التركستان من الروايات والقصص عن أحوال المماليك في مصر، وما يذاع عن ثروة الناس بالقاهرة كان باعثاً لكثير من أهل تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية السلطان المنصور قلاوون الذي أراد أن يكون فرقة جديدة من المماليك، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين، ورأى أن تكون فرقته الجديدة من جنس

غير الأجناس التي أنتمى إليها ممالك عصره، وأختار قلاوون عنصر الجركس الذين ينتشرون شمالي بحر قزوين وشرقي البحر الأسود بسبب توافرهم في أسواق الرقيق لتعرض بلادهم لغزوات المغول وتشريدهم من بلادهم. ونتيجة لكثرتهم في أسواق الرقيق انخفض ثمنهم على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة وقوة البدن والشجاع، فكان متوسط ثمن المملوك منهم مائة وخمسة عشر ديناراً، في حين كان متوسط المملوك التركي مائة وخمس وثلاثون ديناراً، وبلغ عدد ما اشتراه قلاوون منهم ثلاثة آلاف مملوك، أسكنهم بجواره في أبراج القلعة مما جعل اسم "البرجية" يلصق بهم في التاريخ تمييزاً عن الممالك البحرية الذين أقاموا في جزيرة الروضة، وأعلن قلاوون في صراحه أنه كون فرقة الممالك البرجية ليكونوا كالحصون المانعة له ولأولاده وللمسلمين ونجحت الخطة فازدادت اعداد هذه الطائفة الجديدة وتعهدها أبناء قلاوون وأحفاده بالرعاية والعطف فاشترى الأشرف خليل بن قلاوون أثناء حكمه القصير ألفي مملوك منهم .

وحقق البرجية الغرض المقصود منهم فدافعوا عن مصالح أبناء المنصور قلاوون فعندما قتل الأشرف خليل بن قلاوون ثار الممالك الأشرفية - من البرجية - وانتقموا له بقتل قاتله بيدرا وغيره من الأمراء الذين شاركوا في قتل الأشرف خليل وبفضل تأييدهم أختير الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً رغم صغر سنه، ووقفوا بالمرصاد لجميع المحاولات التي استهدفت عزله .

. وهكذا أصبح الممالك البرجية أو الجراكسة [نسبة إلى موطنهم الأصلي جورجيا وبلاد جركس] على درجة من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك مما جعلهم يشقون طريقتهم بسهولة نحو دست السلطنة وبدءوا يظهرن على مسرح الحوادث وساعدهم على ذلك تطور الأحداث الداخلية

في مصر عقب وفاة السلطان المنصور قلاوون في سنة ١٣٠٩م، فارتفعت نفوسهم في
العزلة حول الماليك الزمعة حتى لا يتمكنوا من الخروج من القاهرة، والتركز وينفذوا
بأوضاعهم وروحهم التي تطرق إليها الفساد. كما تم السماح لهم بمغادرة
أبراجهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة، وساعدته قلة أعداد المماليك البرجية.
على تنفيذ سياسة العزلة هذه، ولكن عندما زادت أعدادهم في عصر خلفاء
قلاوون حتى بلغوا خمسة آلاف مملوك في أوئل عصر الناصر محمد لم
يستطع السلاطين فرض هذه العزلة، فسمح لهم الأشرف خليل بمغادرة
أبراجهم وطباقهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة، وبمصر بشرط أن يتم ذلك
أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة. وبذلك وقفوا عنى مركز
من الإتجاهات والأوضاع الداخلية الخاصة بالبلاد وبدأت خيرتهم بالحياة
العامّة تزداد .

ونتيجة لعناية السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل بالبرجية من حيث
التعليم الدينى والحربى وحرصهما على إلياسهم زياً جديداً حسناً تسهل فيه
حركتهم، والإغداق عليهم فيما كانوا يتقاضونه من رواتب وجوامك، وقصر
الوظائف الكبرى عليهم .

مما أدى إلى إثارة البغضاء العنصرية والتعصب العنصرى بين الجراكسة
والأترك نتيجة لهذا التمييز فى المعاملة .

وأدى دفاع الجراكسة عن مصالح أبناء المنصور قلاوون بطول
المنازعات التى كانت لا تهدأ لها ثائرة فى ذلك العصر إلى تحول الأمر من
نزاع بين الأمراء بعضهم وبعض أو بين أنصار بيت قلاوون وخصومه إلى
نزاع عنصرى بين الجراكسة والأترك .

وإذا كان الجراكسة قد أحسوا فى دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاوون
وأن واجبهم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت، فإن هذه النظرة تبدلت

عندما وصل الجراكسة إلى مراتب الأمرة وأحسوا بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاوون وليس عرش بيت قلاوون هو الذى يحميهم وأخذوا يعملون لحسابهم الخاص ويفكرون فى مصالحهم قبل مصالح الناصر محمد بن قلاوون، وصارت لهم الحمايات الكبيرة وتردد الناس إليهم فى الأشغال. وأصبح لهم رأى فى اختيار السلاطين، وفى سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م) أعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير دست السلطنة فكان أول واحد من البرجية [الجراكسة] يلى هذا المنصب .

وفى عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون استطاع أحد الجراكسة [البرجية] أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٨م) وهو الأمير برقوق [أى القائد العام للجيش المملوكية] وبذلك أصبح أهم شخصية فى الدولة فى عهد السلطان الطفل علاء الدين على الذى لم يتجاوز سنه ست سنوات وحكم ست سنوات حتى توفى (٧٧٨-٧٨٣هـ/١٣٧٦-١٣٨١م) وهو فى الثانية عشر من عمره، وكان فى استطاعة برقوق أن يلى عرش السلطنة بعد وفاة السلطان المنصور علاء الدين على مباشرة ولكنه رأى أن يتربث قليلاً، فأقام فى السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج حفيد الناصر محمد وكان فى الحادية عشرة من عمره وخاصة بعد أن أحس بأن له معارضون من كبار الأمراء .

ومن البدهى أن السلطان الطفل كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة فجاء كتاب ولايته السلطنة مقروناً بشرط إشتراك برقوق معه فى تدبير أمور الدولة، واستغل برقوق ذلك الوضع ليتمكن لنفسه ويملاً الوظائف الكبرى باتباعه وانصاره ومماليكه، كما أخذ يتحجب إلى عامة الناس فخفف عنهم الضرائب بإلغاء بعض المكوس، وتحسين النقد بسك نقود جديد جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التى كان الأمير جركس قد سكها، الأمر الذى أنعش

الحالة الإقتصادية .

وفى تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون إزدياد نفوذ برقوق ويحسون خطورة إذا نجح فى الوصول إلى السلطنة فدبروا بعض المؤمرات لإغتياله ولكنه اكتشف الخطر قبل وقوعه، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشاركين فيها، مما اعتبر إعلاناً لزوال سلطان العنصر التركى وإيداناً بقرب قيام دولة المماليك الجراكسة .

وأخيراً أصبحت الأمور مهيأة لكى يعلن برقوق نفسه سلطاناً فسلك فى ذلك الطريق المألوف فى دولة المماليك وهو عقد مجلس يضم كبار الأمراء والخليفة وقضاة القضاة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، وهو قاضى القضاة الشافعية وكان الخليفة وتذاك المتوكل وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى وفى المجلس نهض كاتب السر الشريف القاضى بدر الدين فضل الله وأخذ يشرح له ما عليه الأحوال الامبراطورية من فوضى واضطراب بسبب صغر سن السلطان القائم وهو نفس العذر الذى سبق أن تحجج به الطامعون فى الحكم من امراء المماليك وبعد مداوات استقر رأى على خلع حاجى وتولية الأتابك برقوق العرش وتم ذلك فى (رمضان سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م) .
ورأى شيخ الإسلام أن يلقب السلطان الجديد بالملك الظاهر بمصادفة بيعته السلطنة وقت الظهر بعد الصلاة، وتفاعل الناس بسلطنته حين أمطرت السماء مطراً خفيفاً وقت المبايعة ولبس برقوق شعار السلطنة وركب فى الموكب السلطانى وإزدانت القاهرة سبعة أيام .

وبعزك أمير حاجى من السلطنة انتهى بيت قلاوون، كما تنتهى الدولة المملوكية الأولى. ويقام الظاهر برقوق فى الحكم سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م)
تبدأ الدولة المملوكية الثانية، وهى دولة الجراكسة (البرجية) .

خصائص ومميزات دولة المماليك الجراكسة :

بلغت الدولة المملوكية الأولى من العمر نحو ١٣٢ سنة من (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ/١٢٥٠ - ١٣٨٢م)، بينما بلغت الدولة المملوكية الثانية من العمر ١٣٤ سنة من (٧٨٤ - ٩٢٢هـ/١٣٨٢ - ١٥١٧م) فالدولتان إذن متقاربتان في عمرهما. الزمنى ولكل منهما تراثه وآثاره ومتقاربتان في عدد سلاطينهما فبلغ عدد سلاطين الدولة الأولى خمسة وعشرون سلطاناً وبلغ عدد سلاطين الدولة الثانية ثلاث وعشرون سلطاناً وأعظم سلاطين الدولة الثانية تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات وارتبط بهم تاريخ الدولة وهم برقوق وشيخ وبرسباى وجقمق وإينال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى وطومان باى الأخير .

وتتميز دولة المماليك الثانية أو البرجية أن سلاطينها كانوا جميعاً جراكسة الجنس ما عدا اثنين يرجعان إلى أصل يونانى هما الظاهر خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢هـ/١٤٦١ - ١٤٦٧م) والظاهر تمرغنا (٨٧٢هـ/١٤٦٧ - ١٤٦٨م) ونشير إلى أن سلاطين جراكسة الدولة الثانية لا يرجع إلى الجراكسة المعروفين على عهد قلاوون، فجميع الجراكسة الذين وصلوا إلى العرش خلال الدولة المملوكية الثانية يرجع قدومه إلى مصر إلى ما بعد عهد قلاوون وليس معنى غلبة عنصر الجراكسة على سلاطين وامراء الدولة المملوكية الثانية أنه لم توجد عناصر أخرى مثل الأكراد والأتراك واليونان بل دخلت هذه العناصر ووجد أيضاً في هذه الدولة عناصر مملوكية من صقلية وأرجونة وقطالونيا ومن المجريين الذين أسره العثمانيون في حروبهم في شبه جزيرة البلقان وأرسلوا لبيعوا في أسواق الرقيق بالقاهرة، ومنهم من قد هدأيا للسلاطين المماليك .

وتختلف الدولة المملوكية الثانية البرجية (الجركسية) عن الدولة المملوكية الأولى البحرية في نظام ولاية العرش أو مبدأ الحكم الوراثي الذي نجح في حالات كثيرة خلال الدولة المملوكية الأولى ولا سيما في أسرة قلاوون، هذا النظام لا نجد له أثراً في عصر دولة المماليك الجراكسة. والواقع أن الدولتان تشابهتا في عدم الإقتناع بهذا المبدأ، فلم يرض به الأمراء إلا مؤقتاً من باب الإحترام لأساتذتهم المتوفين ورعاية لحقهم ولأيمان التي أخذت عليهم، وكان بقاء ابن السلطان في دست السلطنة يرجع في الغالب إلى عدم استطاعة أحد الأمراء التغلب على منافسيه من الأمراء والإستيلاء على العرش، وكان هذا المبدأ يطبق بصورة أكبر في الدولة الثانية منه في الدولة الأولى، لذلك يلاحظ أن بقاء ابن السلطان المتوفى في دست السلطنة كانت مدتها أطول في الدولة الأولى منها في دولة الجراكسة، باستثناء سلطنة فرج بن برقوق التي كانت طويلة نسبياً (٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٩-١٤٠٥م).

فكانت السلطنة حقاً مشاعاً للقادر منهم على انتزاعه وهو حق لا يؤخذ إلا قسراً ويتوقف على قدرته الحربية وعدد وقوة من يملك أو يستخدم من المماليك والأنصار وما يتصف به من مكر وخديعة ودبلوماسية في توجيه كبار الأمراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض، فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة، فإن ابنه كان يخلفه عادة ولكن لعدة أشهر حتى يتضح الموقف بين كبار الأمراء ويستطيع أحدهم التغلب على أقرانه وعندئذ لن يجد صعوبة في عزل ابن السلطان والحلول محله في دست السلطنة وبعد ذلك يحصل على موافقة الخليفة والقضاة بعد استقرار الأمر بين المماليك لتبرير الطريقة التي سلكها السلطان الجديد .

ولم تكن رغبات سكان مصر في اختيار السلطان وتعيينه لها أي احترام

واشتهر بعض سلاطين الدولة المملوكية الثانية مثل برقوق وشيخ وجفمق وقايتباي وقانصوة الغورى بحبهم للأدب ومجالس العلم واشتهارهم بالتقوى والورع واقامة المنشآت الخيرية مثل المدارس والمساجد والأسبلة والبيمارستانات. ولكن يبدو أن هذه المنشآت كانت وسيلة لجأ إليها السلاطين للتكفير عن ذنوبهم وما قاموا به من أعمال ضد خصومهم .

وقاست مصر كثيراً فى عصر دولة المماليك الثانية البرجية من المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك فى شوارع القاهرة مما أدى إلى قلق وعدم الإستقرار وزاد الطين بلة أن السلاطين عجزوا فى ذلك العصر عن كبح جماح مماليتهم مما جعلهم لا يجدون وسيلة للإحتفاظ بمراكزهم سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، ومثال ذلك ما فعله السلطان خشقدم من تأليب الظاهرية على الأشرفية ، وتأليب الناصرية على المؤيدية فيخلو الجو للسلطان ومماليكه فيعيثون فى الأرض فساداً .

وعلى الرغم من ذلك فإن سلاطين الدولة الثانية البرجية عملوا على حصر تلك المنازعات داخل دائرة داخلية بحتة، فلم يمكنوا قوة خارجية من التدخل فى شئون البلاد أو الإنتقاص من سيادتها، صحيح أن المماليك كانوا دائموا النزاع فيما بينهم حتى إذا دهمهم خطر خارجى تناسوا ما بينهم من خلف ووقفوا أمام هذا الخطر صفاً واحداً وذلك بدافع الشعور الغريزى للدفاع عن كيانهم فاستطاعت دولة المماليك فى ذلك العصر الصمود فى وجه تيمورلنك فى وقت اهترت فيه جميع الدول القائمة فى غرب القارة اسيوية أمام هجماته .

السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٨٨٠١/١٣٨٢ - ١٣٩٦م) :

هو برقوق بن أنس بن عبد الله العثماني، من بلاد الجركس جلبه إلى مصر التاجر الخواجا فخر الدين عثمان الخوارزمي، وإليه نسب برقوق فعرف بالعثماني، واشتراه الأمير يلغا الخاصكي (من ممالك السلطان الناصر حسن) حوالي عام (٨٧٦٤/١٣٦٢م)، ثم أعتق يلغا مملوكة برقوق فصار من جملة ممالিকে البارزين، ويعد مقتل يلغا تفرقت ممالিকে، فخرج برقوق سجيناً إلى الكرك وبقي في سجنه سنوات عديدة، ومعه زميله بركة الجوباني، ولما أفرج عن برقوق توجه إلى دمشق حيث خدم عند نائب الشام الأمير منجك اليوسفي، ثم عاد برقوق إلى القاهرة في عهد السلطان شعبان وخدم ولديه علي وحاجي، ولم يلبث أن ارتقى برقوق إلى مرتبة أمير أربعين دفعة واحدة دون أن يمر في امرة عشرة بفصل الأمير أيك البدرى أتاك العسكر زمن السلطان علي بن شعبان بعد مضي شهرين على هذه الترقية اشترا. برقوق في ثورة على صاحب الفضل عليه الأمير أيك البدرى، ورقى بع هذه الثورة هو وزميله القديم بركة الجوباني إلى امرة مائة وتقدمه ألف، وهي أسمى درجات الإمارة في نظام الممالك ثم شغل منصب الأخرية الكبرى [وهي وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعايت ما فيها من خيل وحيوانات] ثم خطا برقوق خطوة جديدة نحو الأمام فتولى منصب أتاك العساكر مما مكنه من توطيد سلطانه بأن اختص زملائه وانصاره من الممالك اليلغاوية بالوظائف الرئيسية في الدولة، وكسب محبة الناس بتخفيف الضرائب عنهم، وسك عملة جديدة جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التي كان الأمير جركس قد سكها، وتخلص من مؤامرات المماليات الأتراك التي حيكت ضده، وأخيراً أخذ موافقة الأمراء والعلماء والخليفة العثماني لكونه كز علي، شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني على خلع

السلطان أمير حاج بعد حكم دام سنة ونصف وأعلن برقوق سلطاناً وتلقب
بأنظاهر كما سبق أن وضحنا .

أظهر برقوق حكمة كبيرة في أول حكمه فلم يضطهد المماليك الأتراك
بل حرص على استرضائهم بتعيينهم في بعض المناصب فعين الأمير سودون
الفخرى نائباً للسلطنة وعين الأمير يلبغا الناصري في نيابة حلب، ولكن بعد
أن هدأت الأمور أخذ يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على
حساب المماليك الترك مما أدى إلى قيام كثير من الثورات ضده من جانب
بعض المماليك الأتراك مثل ثورة نائب أبلستين أظنبحا السلطاني ولكنها انتهت
بدمشق وفراره إلى بلاد التتار لعدم تأييد نواب الشام له .

ثم دبر أمراء الترك قبل مضي عام على سلطنة برقوق مؤامرة في
القاهرة لقتله وإحلال الخليفة المتوكل على الله العباسي بدله، ولكن برقوق
اكتشف المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله
خليفة آخر لقب بالوائق بالله، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد
الترك فطرد عدد كبير منهم من وظائفهم ، ونفى بعضهم إلى الشام .

وبالرغم من هذه الشدة التي عامل بها برقوق المماليك الأتراك فإنهم
قاموا بثورة ضده سنة (٥٧٩١هـ/١٣٨٩م) في شمال الشام تزعمها منطاش
نائب ملطية ويلبغا الناصري نائب حلب، وانضم إليهم عدد كبير من الأمراء
وجموع غفيرة من التركمان والمغول وعربان الشام فاستولوا على حماة
وزحفوا تجاه دمشق. فاستشار برقوق ذوى الرأي من أمرائه فأجمعوا على
ارسال حملة لحرب الثائرين، غير أن أفراد هذه الحملة اثاروا الدمشقيين
بأفعالهم السيئة مما أدى إلى انتصار يلبغا وحلفائه ودخلوا دمشق واحتلوا
قلعتها، ثم زحفوا على القاهرة حيث ساء موقف برقوق وإيقن بزوال أمره بسبب
خيانة ونفاق الأمراء له، فغادر القلعة ماشياً واختفى في منزل أحد الخياطين

حتى قبض عليه وجيء به إلى بليغا فأكرمه، ثم بعث به سجيناً إلى الكرك.
أعاد الثوار إلى العرش أمير حاجي ابن الأشرف شعبان حفيد الناصر
محمد بن قلاوون سنة (٧٩١ - ٧٩٢هـ/١٣٨٩ - ١٣٩٠م) حتى ينجلي
الموقف بين الأميرين الثائرين منطاش وبليغا .

ولكن النزاع لم يلبث أن اشتد بين الأميرين الثائرين منطاش وبليغا، فقد
استبد بليغا بالسلطة وحجر على السلطان حاجي وعين لنفسه أجود الاقطاعات
وأوفرها غلة، بينما لم يعط حليفه منطاش سوى اقطاع لا تزيد غلته في السنة
على ستمائة ألف درهم، لم يطق منطاش صبراً على هذا الإستبداد وأخذ في
التدبير ضد بليغا ورفض وساطة المتوكل في الصلح بينهما، مما أعطى
برقوق فرصة لإسترداد مكانته فخرج من سجن الكرك بموافقة نائبها حسام
الدين حسن الكجكني، وجمع جيشاً بالشام .

أما في القاهرة فكان منطاش قد تغلب على بليغا الناصري ولما سمع
أخبار ما فعله برقوق عقد مجلساً حضره الخليفة المتوكل وشيخ الإسلام
والقضاة منهم المؤرخ ابن خلدون، واستصدر منهم فتوى شرعية في أمر قتال
برقوق ثم أخذ يعد العدة للحرب، وفي الموقعة التي دارت بين الطرفين عند
دمشق، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجي معه، إذ وقع السلطان
والخليفة في قبضة برقوق وهزم منطاش واحتفى بدمشق وتنازل السلطان
حاجي لبرقوق عن السلطنة، وعاد برقوق إلى القاهرة ظافراً حيث رحب به
الأهالي واستقبلوه استقبالاً حافلاً .

وامتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة (٧٩٢-٨٠١هـ/١٣٩٠-١٤٠٠م)
امتازت بجهود برقوق في تثبيت حكمه، فقد قبض على بليغا وأعوانه وأعدمهم
رغم أنه كان قد عفا عنه وأخرجه من السجن وعينه في وظيفة أمير سلاح
كاتب أمير التركمان ليمهول فرار منطاش إلى بلاد العثمانيين، وظل برقوق في

العامين التاليين يطارد منطاش في بلاد الشام حتى قتله نائب حلب وأرسل رأسه إلى برقوق فأمر بتعليقها على باب زويلة.

ولم يكذب برقوق يفرغ من تلك المتاعب الداخلية حتى دهمه خطر جديد هو تيمورلنك والمغول، وتيمورلنك (٧٣٦ - ٨٠٧هـ/١٣٣٥ - ١٤٠٥م) من سلالة أحد وزراء المغول، ومولده بإحدى قرى سمرقند فيما وراء النهر، التحق بخدمة حاكم سمرقند، ولم يلبث أن أخضع سمرقند نفسها لحكمه، ومن ثم بدأ نجمه يزدهر، فضم خوارزم وهراة وسستان (٧٨٥هـ/١٣٨٣م)، وكذلك شمالي فارس بعدها بسنة، ثم أذربيجان وجورجيا (٧٨٨ - ٧٩٠هـ/١٣٨٦ - ١٣٨٨م)، وبلاد طقتمش خان، خان القبيلة الذهبية في حوض نهر القلجا، وهي المعروفة ببلاد الدشت ثم تحرك نحو العراق فاستولى على بغداد سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٣م)، وأطراف الامبراطورية المملوكية فاستولت جيوشه على بعض البلاد التابعة للمماليك مثل ماردين، مما جعل برقوق يشعر بالخطر وأخذ يعمل على تلافيه .

فخرجت تجريدة من القاهرة عام (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) وتوجهت إلى حلب، ومنها زحفت نحو ديار بكر بقيادة الأمير الطنباغا الجوباني نائب الشام حيث لقيت بعض فلول جيش تيمور واستطاع قرة يوسف أمير الشاة السوداء التركمانية أن يهزم فرقة من جيش العدو يقودها ابن تيمورلنك وأسر أبرع قواده وهو اطلاميسن وأرسله إلى برقوق، ثم عادت الحملة المملوكية إلى القاهرة عام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) .

هذا في الوقت الذي كان تيمور منشغلاً في محاربة أخطره أعدائه طقتمش خان القبيلة الذهبية ، ثم شغل تيمور بعد ذلك في فتح الهند .

وحاول تيمور الدخول في مفاوضات مع برقوق لإطلاق سراح الأسرى وخاصة قائده اطلاميشن، ولم يكن برقوق يطمئن إلى نوايا تيمور لذلك عمل

حلفاً سريعاً بينه وبين القوى التي أحست بخطر تيمورلنك مثل صاحب سيواس القاضى برهان الدين، وزعيم التركمان - الشاة السوداء - قره يوسف، وخان القبيلة الذهبية طقتمش ، وسلطان الدولة العثمانية بايزيد الأول.

ولم يلبث تيمور أن أرسل إلى برقوق رسالة تشبه تلك التي بعث بها هولاء سابقاً إلى السلطان قطز سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م فى الدولة المملوكية الأولى يطلب منه التسليم السريع، ولكن برقوق أظهر ثباتاً، ورد على تيمورلنك بنفس أسلوبه وختم خطابه له قائلاً: "وما لكم عندنا إلا السيف بقوة الله تعالى" وطرد رسول تيمورلنك من القاهرة .

وفى العام التالى (٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م) خرج برقوق على رأس حملة حربية لإعادة أحمد بن أويس إلى بغداد ومحاربة تيمورلنك كما كتب لأحمد بن أويس تقليداً بنبياة السلطنة فى بغداد ، أى يكون نائباً عن السلطان برقوق فى حكم بغداد ، فضرب السكة باسمه ، مما أضفى مكانة كبيرة على سلطنة المماليك .

ولكن حدثت بعض العوامل التى أدت إلى تأجيل الصدام بين تيمورلنك ودولة المماليك ، أهمها انشغال تيمورلنك بتوطيد نفوذه فى دولته الواسعة وفتح جبهة جديدة لجيوشه فى الهند، ولما وجد برقوق أن تيمورلنك عاد إلى بلاده، رجع هو ا خر إلى القاهرة حيث توفى سنة (٨٠١هـ/ ١٣٩٩م) دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته فى محاربة المغول وتأجلت المواجهة وعندما أحس برقوق بدنو أجله جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم، واختار مجلساً للوصاية برئاسة الأمير أيتمش البجاسى أتابك العسكر ويخلفه فى الرئاسة الخليفة المتوكل .

أما عن أهم منشآت السلطان الظاهر برقوق فهى المسجد (مدرسة) أثر

١٨٧٧ بالنحاسين المصنوعين بقرعة الإدارة الناصر محمد بن شاذليون من الجهة البحرية وكان كبير مهندس هذا المسجد "ابن الطولوني" وهو عبارة عن صحن مكشوف قائم الزوايا تحيط به إيوانات أربعة أكبرها إيوان المحراب .

وتربة برقوق (أثر ١٤٩) ذات الخانقاة وتقع في الجزء البحري من قرافة المماليك بجوار "قبة يونس الدوادر" بدأ في انشائها الناصر فرج بن برقوق سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) وفرغ منها سنة (٨١٣هـ/١١١١م) وشاركه في بعض كمالياتها أخوه المنصور عبد العزيز وهي أضخم تربة وجدت في جميع جبانات مصر والقاهرة ، وأكبرها مساحة ، بل وأعظمها نفقة بناء ، وقد وضع تصميمها ونفذ على أن يخدم أغراضاً هامة متعددة، فبينما ترى كمدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية ، إذا بها مسجد جامع فسيح الأرجاء مستكمل جميع معدات الصلاة ، وبينما أعدت لتكون تربة للعائلة الظاهرية إذا بها خانقاة فخمة .

السلطان الناصر فرج بن برقوق :

(٨٠١ - ٨٠٨ هـ / ١٣٩٩ - ١٤٠٥ م) (سلطنة أولى)

(٨٠٨ - ٨١٥ هـ / ١٤٠٥ - ١٤١٢ م) (سلطنة ثانية)

عندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله عهد بالسلطنة لأولاده من بعده وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم، وأنشأ لهم مجلساً للوصاية تم إختياره بحضور الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء على أن تكون رئاسة المجلس للأمير أيتمش الجاسى أتابك العسكر ويخلفه فى الرئاسة الخليفة المتوكل.

المهم أن فرج أكبر الأبناء الثلاثة خلف والده برقوق وكان فى الثالثة عشر من عمره، ولد فرج خلال فتنة منطاش عام (٧٩١هـ/١٣٨٩م) من أم رومية الجنس فسماه أبو "بلفاق" أى فتنة، فلما نجح برقوق فى القضاء على الثورة سمي ابنه هذا (فرجاً) تفاؤلاً بالنصر.

وفى صبيحة اليوم التالى لوفاة برقوق وولاية فرج حدثت بعض المؤامرات والمنافسات من بعض الأمراء مثل الأمير سودون أمير أخور الذى إمتنع عن حضور موكب السلطان الجديد فكان مصيره السجن، وفى السنة التالية (٨٠٢ هـ / ١٤٠٠ م) ثار الأمير تتم نائب الشام وإنضم إليه نواب صغد وطرابلس وحماة وحلب فضلاً عن العربان والتركمان.

كما قام الأمير يشبك الشعبانى فى نفس العام بتحريض السلطان الطفل فرج بن برقوق على أن يقول بأنه أصبح رشيداً ولا حاجة له بالوصاية، مما أثار الأمير أيتمش الجاسى وإنضم إلى تتم بالشام. ولكن القوات المملوكية تجحت فى إخماد هذه الثورة وقبضت على أيتمش وتم .

وفى تلك الأثناء وصلت الأنباء بأن تيمورلنك إجتاح بلاد الشام وإستولى

على مرعش وعنتاب، ولم تسرع حكومة فرج بإعداد ما يلزم من

قوات كافية وإنما اكتفت بجمع قوات النيابات الشامية في حلب، وعقد لواء هذه القوات للأمير سودون نائب الشام، وظلت حلب تقاوم أربعة أيام ثم سلمت لتيمورلنك بعد أن أباد الجيش المملوكي وأوقع في الأسر عدد من كبار الأمراء المماليك. وظل تيمور بحلب نحو شهراً ثم سار إلى دمشق واستولى في طريقه على حمص وبعليك.

فَعقد فرج مجلساً في القاهرة لتوفير المال اللازم للحرب واستطاع يفرض ضرائب إستثنائية على التجار وحل نصف الأوقاف تدبير المال اللازم للجيش وأسرع السلطان الصغير إلى الشام على رأس جيش كبير حيث اشتبك مع تيمور بظاهر دمشق في معركة إنتهت بإصابة الجيش المملوكي بخسارة فادحة فأدرك الناصر فرج حرج موقفه في الشام وخشى على حياته، فعاد إلى القاهرة ليستعد بحملة جديدة، وهكذا اضطرت دمشق إلى التسليم بشروط معينة وإن كان المغول لم يرعوا شروط الأمان الذي منحوه لأهل دمشق فنهبوا المدينة ودمروها وأشعلوا فيها النيران كما دمروا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام .

وتشير المصادر إلى أن تيمور أمر بالقبض على من في دمشق مز أرباب الصنائع والحرف، من النساجين والخباطين والحجارين والبياطرة والخيمية والنقاشين والقواسين والبازدارية وترحيلهم إلى سمرقند، مما جعل كارثة دمشق لا تقتصر على الناحية الحربية بل تعدتها إلى الناحية الحضارية فأنحطت فنونها وتأخرت أجيال.

وعندما سمع السلطان فرج بانتصارات تيمورلنك في آسيا الصغرى وبهزيمة بايزيد الأول العثماني في وقعة أنقرة (٨٠٤هـ / ١٤٠٢م)، رضب للشروط التي أرسل بها تيمورلنك مع الأمير سودون نقيب قلعة دمشق بع. استشارة أمراءه فتبودلت الأسرى ووافق فرج على أن يسك العملة بإسب

تيمورلنك، غير أن هذه العملة لم تكتشف حتى الآن، وفي سمرقند مات تيمورلنك عام (٨٠٧هـ/١٤٠٥م).

ومما لاشك فيه أن رضوخ فرج لطلبات تيمورلنك أفقدته مكانته في نفوس المعاصرين، وقام في بلاد الشام نزاع بين أمراء المماليك إمتد إلى مصر فعمت الفوضى القاهرة، وضاق فرج ذرعاً بثورات الأمراء واضطر إلى هجر القلعة وترك العرش وإختفى في بيت سعد الدين بن غراب لمدة شهرين وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة وتولى بيبرس الأتابك تدبير الأمور لصغر سن السلطان، ولم يمكث عبد العزيز في السلطنة سوى شهرين حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبك الشعباني من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة وإستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات من (٨٠٨ - ٨١٥هـ/١٤٠٥ - ١٤١٢م)، وبدأ عهده الثاني بسجن أخويه عبد العزيز وإبراهيم بالإسكندرية ثم أعيدا جثتين هامدتين ومعهما محضر بأن الوفاة حدثت قضاء وقدرأ، وقد قضى الناصر فرج بقية عهده في إقرار الأوضاع ببلاد الشام التي غدت هي الأخرى مسرحاً للمنافسات بين كبار الأمراء، فثار الأمير جكم العوضى نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعدل، غير أن سلطنته لم تدم أكثر من شهرين فقد قتل على يد أحد التراكمة وما كاد يقتل جكم حتى تحالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلن الثورة على السلطان فرج وزحفاً بجيوشهما نحو مصر سنة (٨١١هـ / ١٤٠٨م) وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام صحبة الخليفة المستعين والقضاء لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة عند اللجون بظاهر دمشق وقبض على فرج ليقتل بعد أن أقتى الخليفة والعلماء بذلك، لأفعاله السيئة، وإدمانه شرب الخمر فقد كان لايصحو من السكر حتى وهو خارج إلى الحرب، وكثرة سفكه للدماء، فقد كان يوصف على قول ابن إياس "بكثرة

الجهل مع قلة الدين"، وظلت جثة فرج ملقاة (بالمزابل) خارج دمشق ثلاثة أيام، ثم دفن بدمشق.

وكانت المشكلة التي نشأت بعد مقتل الناصر فرج هي من يلى
المحنة، فقد كان كل من شيخ ونوروز يتطلع إليها، وإلى أن يتم الفصل في
مشكلة عهد بالسلطنة للخليفة العباسي المستعين على أن يكون شيخ
بمصر، ويكون الأمير نوروز نائب الشام
بالحكم في البلاد اسمية من غزة إلى الفرات، يولى بها من يختار ويعزل
من يختار.

الخليفة المستعين العباسي: من محرم إلى شعبان سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م).
كانت سلطنة الخليفة المستعين إسميه بحثه، وكانت تحمل في طياتها
بذور الثورة لأن الدولة غدت تحكم بثلاثة رموس، الخليفة العباسي وشيخ في
القاهرة، ونوروز في بلاد الشام يحقق مصالحه الشخصية التي كانت
بالضرورة تتضارب مع مصالح شيخ، وتشير المصادر إلى أن شيخ الذي
كان يطمع بالسلطنة لنفسه تلقب "بمنظّم الملك" وكاتبه الأمراء باللقب المبتدع،
ثم منع الخليفة من كتابه أي منشور إقطاعي إلا بمراجعته شخصياً، ولما حاول
الخليفة لعب دور السلطان الحقيقي خلعة شيخ بحجة كثرة الإضطرابات وفساد
العربان وحاجة البلاد إلى سلطان تركي، مع أنه ليس تركياً، وإنما هو
جركسي، والحقيقة أنه يقصد بذلك أن السلطنة يجب ألا تقلت من أيدي هذه
العصبة المتحكمة المتنافسة.

السلطان المؤيد شيخ محمودى: (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)،
جلس شيخ على دست السلطنة فى شعبان سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) وتقب
بلقب المؤيد، وعرف شيخ بالمحمودى نسبة إلى التاجر الخواجا محمود شاه
الذى باعه إلى السلطان برقوق، وكان عمر شيخ عند بيعه إثنين وعشرين
سنة، أى أنه لم ينشأ التتشة المملوكية الحقه.

وكان من الطبيعى ألا يرضى نوروز الرابض فى البلاد الشامية بذلك
الوضع فأعلن الثورة فى بلاد الشام، رافضاً أن يقبل له الأرض أو يخطب
باسمه بل أبقى الخطبة كما هى باسم الخليفة المستعين، وكذلك رفض أن
يضرب السكة باسمه، الأمر الذى دفع السلطان المؤيد شيخ إلى الخروج فى
العام التالى لتوليته إلى الشام والتخلص من نوروز بالقتل.

ويعتبر عهد المؤيد شيخ هادئاً من حيث الفتنة، بالقياس إلى عهدهى فرج
وأبيه برقوق أما أهم الأحداث الخارجية فى عهد المؤيد شيخ فهى حوادث
خروج التركمان بعد زوال خطر تيمورلنك، فقد كثر تمرد الدويلات التركمانية.
قرمان وذو الغادر ورمضان فاضطر المؤيد شيخ إلى الخروج سنة (٨٢١هـ/
١٤٨١م) على رأس جيشه إلى طرسوس فاستولى عليها، كما استولى على
الأبلستين عاصمة دلغابر، وقيل أمير قرمان أن يسك نقوده باسم السلطان
المؤيد وسلمت له القلاع الحصينة فى درنده وكخته وكركر، ثم عاد إلى مصر.
لم ينمى التركمان ما حل ببلادهم من تخريب وتدمير نتيجة حملات
شيخ، فلم يكذب يرجع إلى مصر حتى أخذ التركمان ينفضون الشروط التى
تعهدوا بها، وإحتلوا البلاد التى فتحها السلطان، ومن ثم أرسل المؤيد حملة
كبيرة بقيادة ابنه إبراهيم عام (٨٢٢هـ/١٤١٩م) فاستولى على قيصريه وقونيه
وولى إبراهيم عليها حاكماً موالياً من بيت دلغابر، وتوغل فى أسيا الصغرى
وضرب السكة باسم أبيه المؤيد، ثم توجه إلى لارنده القرمانية وأركلى وعاد

إلى حلب محملاً بالغنائم ومنها إلى مصر حيث استقبل إبراهيم فى القاهرة استقبالاً حماسياً، ولكنه لم يلبث أن مات فى العام التالى، ويقال إنه مات مسموماً بتدبير أبيه الذى نحد عليه لما ناله من تقدير وغار منه. على أن مصر لم تستفد كثيراً من تلك الأعمال فى الوقت الذى لم يستطع المؤيد أن يسيطر على ممالئكه الجلبان أو الأجلاب أو المشتروات الذين يجلبهم كل سلطان جديد وظهور عجز السلاطين عن الضرب على أيديهم، بسبب أن هؤلاء الأجلاب كانوا فى معظمهم عند شرائهم فى سن البلوغ فلم يلبثوا حتى صاروا مصدر قلق وموطن شغب وفوضى بل صاروا خطراً يهدد السلطان نفسه والأهالى الأمنين وتوفى شيخ سنة (٨٢٤هـ / ١٤٢١م).

ويمكن تسمية الفترة التى تلت وفاة المؤيد شيخ مباشرة بفترة حكم الأوصياء واستبدادهم، سواء أكانوا فى منصب الوصاية على أولياء العهد الصغار، أو بعد عزل هؤلاء الصغار وقيامهم بالملك إسمياً وعملياً. فقد خلف المؤيد شيخ ابنه المظفر أحمد سنة (٨٢٤هـ / ١٤٢١م) وعمره عشر سنوات فتولى الوصاية عليه الأمير ططر أتابك العساكر وتزوج من أمة، غير أن استبداد الوصى أثار نواب الشام ضده، فأجابهم ططر بخلع أحمد وسجنه بعد شهر من ولائته وتسلطن مكانه وأخذ الفتنة.

الظاهر ططر : (٨٢٤هـ / ١٤٢١م)

لم يتمتع طويلاً بالعرش فقد دبزت زوجته وهى أم أحمد بن شيخ مقتله، بعد أن طلقها غداة خلع ابنها، خوفاً على نفسه منها، ومع ذلك لم يقلت من تدبيرها فخلفه ابنه محمد.

الصالح محمد : (٨٢٤ - ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٢٢ م)

كان في الحادية عشرة من عمره عندما تولى السلطنة فقام بالوصد عليه الأتابك جاني بك الصوفى، غير أن الأمير برسباى الذى كان يشد منصب أمير أخور كبير انتزع الوصاية من الصوفى وسجنه وفى سنة (٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م) انتزع برسباى السلطنة لنفسه وتلقب بالسلطان الأشرف. وقد وقعت كل هذه الحوادث من وفاة المؤيد شيخ إلى تولية الأشرف برسباى فى مدة لم تتجاوز سنة وشهرين تقريباً.

ويعتبر جامع المؤيد أثر رقم ١٩٠ بجوار باب زويلة من أهم المنشآت التى قام بها المؤيد شيخ وفيه تربه دفن بها السلطان وبعض أفراد أسرته.

السلطان الأشرف برسباى : (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٤٢ - ١٤٣٨ م)

يعتبر عهد برسباى الطويل ست عشر عاماً هادئاً بالقياس إلى غيره على الرغم مما قاساه الناس فى عهده من سوء الأحوال الإقتصادية وارتفاع الأسعار، لتعسفه فى سياسته الإقتصادية وتطرفه فى سياسة الإحتكار.

الأشرف برسباى والمغول :

بعد وفاة تيمورلنك سنة (٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) تمزقت إمبراطوريته بسبب النزاع الذى نشب بين أبنائه وأحفاده، حتى تمكن إبنه شاه رخ (ويرجع سبب تسميته بذلك أن خير ولادته بلغ أباه تيمور وهو يلعب الشطرنج، فأطلق عليه شاه رخ، بمعنى الملك والقلعة) من إسترداد سمرقند وبلاد ما وراء النهر من خليل بن أخيه ميرانشاه مما مكنه من تدعيم سلطانه وأحياء مجد دولة المغول كما كانت فى عهد أبيه.

وكان أن بدأ شاه رخ صفحة جديدة فى العلاقات بين دولته ودولة

المماليك عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، أى فى عهد السلطان برسباى فأرسل «سفيراً» من قبله إلى سلطان مصر يطلب منه السماح له بكسوة الكعبة، وإرسال بعض المؤلفات لعلماء مصر المعاصرين مثل شرح البخارى لابن حجر العسقلانى، وتاريخ المقرئى. غير أن السلطان برسباى رفض ذلك الطلب، ولم يرسل المؤلفات المطلوبة، وكان شاه رخ معروفاً بأنه من أكبر رعاة المخطوطات.

ولما لم يلق شاه رخ جواباً على طلبه، أرسل سفارة أخرى إلى القاهرة فى نفس العام يكرر طلبه ورغبته فى كسوة الكعبة، وأبلغ سفير شاه رخ برسباى أن شاه رخ أقسم أن يكسو الكعبة، فأفتى قضاة القاهرة بأن شاه رخ يكون فى حل من قسمه إذا باع الكسوة وتصدق بثمنها على الفقراء، فى مكة وأخبروا بسيرة شاه رخ أن للكسوة أوقافها الخاصة، وهى تكفيها ولا حاجة لأن يكسوها شاه رخ.

والواقع أن برسباى خشى أن يكون وراء طلب شاه رخ كسوة الكعبة أطماع يريد تحقيقها فى الشام والحجاز.

ولم يقنع شاه رخ، وظل يوالى طلبه، وبعث برسالة ثالثة سنة (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) يطلب السماح له بزيارة بيت المقدس، وإتهم القضاة المصريين فى نزاهتهم وأنهم يفتنون بما يرضى السلطان، فلم يجب برسباى على هذه الرسالة وأهملها.

ثم تمادى شاه رخ فأرسل رسالته الرابعة سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م يطلب من برسباى إقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه، فأمر برسباى بإهانة سفير شاه رخ وتمزيق الخلعة التى أرسلها له صحبة الرسالة، مما عكر العلاقة بين الطرفين وجعل شاه رخ يتصل بالسلطان مراد العثمانى وبأمير دلاغار شاه رخ التركمانى بهدف تأليف حزب ضد الأشرف برسباى، غير أن برسباى أدان على ذلك بعقد معاهدة دفاعية مع العثمانيين وأخذ برسباى يستعد للخروج على

رأس جيش لمحاربة الشاة البيضاء وحليفها شاه رخ ولكنه توفي في ذى الحجة سنة (٤١٨٨هـ/١٤٣٨م) قبل منازلة شاه رخ. ويجمع المؤرخون على أنه لو لم تحدث وفاة أحد الشخصيتين برسباى أو شاه راخ لكانت الحرب واقعة لامحالة .

الأشرف برسباى وقبرص :

تصدى ملوك قبرص من آل لوزجنان للمحافظة على بقايا الممتلكات الصليبية بالشام، وذلك بعد أن توج هيو الثالث ملك قبرص ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى صور سنة ١٢٦٩م وكان هيو الثالث رجلاً نشيطاً قام بأعباء الدولتين الصليبيتين فى قبرص ومملكة بيت المقدس فى صور خير قيام، فعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام، كما عمل على مناوئة سلطنة المماليك، فأمر بالقبض على رسل السلطان بيبرس وهم فى طريقهم إلى سلاحقة الروم عن طريق قبرص رغم الأمان المعطى لهم، هذا بالإضافة إلى قيام القبارسة بالإعتداء على السفن الإسلامية فى شرق البحر المتوسط.

ومن أمثله ذلك ما حدث سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) فقد دخلت مراكب قبرص ميناء الإسكندرية وإستولوا على "مركبين من مراكب المسلمين"، وتكرر ذلك منهم عندما أغارت إثنتى عشر مركباً للقبارسة على الإسكندرية، ودخلوا ميناءها، وأخذوا مركباً للتجار وإستولوا على ما فيه وأحرقوه، ولم يجسر والى الإسكندرية أن يخرج الشوانى من الصناعة لغيبية رئيسها فى مهم استدعاه الملك الظاهر بسببه، وإزاء ذلك استدعى بيبرس بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم عتاباً شديداً لغدر صاحب قبرص وحملهم مسئولية أفعاله، ولم يكتف بيبرس بالتهديد والوعيد بل أخذ يفكر فى غزو قبرص، فأخذ يعد العدة لذلك، ووجه عنايته لتحصين شواطئ مصر الشمالية وترميم حصوتها.

وأبراجها وإقامة الإستعدادات الدفاعية ومن أجل ذلك قام بتفقد حصون الإسكندرية ودمياط.

وسرعان ما سنحت الفرصة المناسبة لبيبرس لغزو قبرس في شوال (١٢٧١هـ/١٢٧١م) عندما علم أن هيو الثالث جاء إلى صكا لتفقد شئون مملكة بيت المقدس فرأى أن يدهم الجزيرة في غيبته . فخرجت الشوانى المملوكية وعدتها سبع عشرة في سرعة إلى جزيرة قبرس وتولى قيادتها جمال الدين مكى بن حسون ومعه الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس دار الصناعة بالفنسطاط، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس دار الصناعة بالإسكندرية، وشرف الدين علوى بن أبى المجد بن علوى العسقلانى رئيس دار الصناعة بدمياط.

ولجأ ابن حسون إلى الخدعة حتى يباغت القيارة فجعل فى أعلام الشوانى الصليبان ولكن عندما إقتربت السفن المملوكية من ميناء ليماسول ليلاً هبت عليها ريحا عاصفة؛ مما أدى إلى تحطم أحد عشر شينياً فأسر القيارة جميع من كان فيها من الرجال، وعدتهم ألف وثمانمائة ولم يسلم سوى ستة راكب عادت إلى مصر وعليها الرئيس ابن حسون، وكان سبب فشل هذه لخملة أن جنودها كان معظمهم من الفلاحين ورعاع الناس، وهم ليسوا ذو خبرة كبيرة بفنون الحرب فلم يستطيعوا إختيار الوقت المناسب للهجوم على قبرس، مما أدى إلى تحطيم سفنهم فى الشعب هذا بالإضافة إلى أن الفارس مملوكى كان يكره أن يكون بحاراً لأن الخدمة فى الأسطول فى عهد الدولة لأيوبيه وفى أوائل عهد المماليك كما يقول المؤرخ المقرئ عاراً ينب به الرجال.

وتعلنى الفور أمر بيبرس بإعادة بناء الأسطول المملوكى وعمل فى المدة

اليسيرة ضعف ما إنكسر. وكانت هذه أولى المحاولات المصرية المملوكية لغزو قبرس ويبدو من إعادة بيبرس لبناء الأسطول المملوكى أنه كان يفكر جدياً فى إعادة الكرة لغزو الجزيرة لولا وفاته فى يوم الخميس ٢٧ محرم سنة (١٢٧٦هـ/١٢٧٧م) ظلت قبرس معقلاً هاماً من معاقل الصليبيين بالشرق زاد من أهميته سقوط عكا وفتح قبرس أبوابها للاجئين والمشردين من بقايا الصليبيين الفارين من بلاد الشام حيث رحب بهم الملك هنرى الثانى.

ولم تلبث أن غدت قبرس مركز المقاومة الصليبية فى الشرق الأدنى والقلعة التى أخذت أصحاب المشاريع الصليبية يعتمدون عليها فى تنفيذ سياسة الحصار الإقتصادى ضد سلطنة المماليك فى مصر والشام .

وقد بلغت هذه السياسة أشدها عندما قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرس بحملته على الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، الأمر الذى أثار شعوراً قوياً عند سلاطين المماليك بضرورة تأديب قبرس وملوكها.

وإذا كانت الظروف التى أحاطت بدولة المماليك فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر للميلاد لم تمكن سلاطين المماليك من تنفيذ رغبتهم فى تأديب قبرس، فإنه باستقرار الأوضاع لدولة المماليك الجراكمة بدا للسلطان الأشرف برسباى أنه من الممكن أن يقوم بعمل حربي جسيم ضد قبرس التى لم تنقطع سياستها العدوانية عن شواطئ وثور دولة المماليك، كما حدث من إغارتهم على الإسكندرية سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، وعلى طرابلس الشام سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٤م) على عهد الناصر فرج، ولم يكن من الممكن أن يصبر الأشرف برسباى على ذلك العدوان السافر من جانب أهل قبرس، لاسيما بعد أن تكرر العدوان فى أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الإسكندرية والتجار المسلمين.

وكان أن قام السلطان الأشرف برسباى بثلاث حملات لغزو قبرس سنة

(٨٢٧هـ/١٤٢٤م، ٨٢٨هـ/١٤٢٥م، ٨٢٩هـ/١٤٢٦م) وهذه الحملات تمثل في حقيقة أمرها مرحلة جديدة في تطور البحرية المماليكية، كما أنها في مجموعها توضح لنا مراحل التكتيك الحربى البحرى فى العصر المماليكى. أما أولى هذه الحملات فقد أبحرت إلى قبرس فى ٩ رمضان سنة ٨٢٧هـ / ٧ أغسطس ١٤٢٤م، ولم تكن هذه الحملة فى حقيقة أمرها سوى حملة إستطلاعية غرضها الوقوف على "من يتجرم فى البحر من الفرنج. لذلك لم يكن عدد السفن والرجال الذين اشتركوا فيها كبيراً ومع ذلك فقد نجح رجالها فى مهاجمة ثغر ليماسول بجزيرة قبرس وأشعال النار فى بعض أحيائها ثم العودة سالمين إلى مصر، وسر السلطان برسباى بما أسفرت عنه هذه الحملة.

وعندما اطمان السلطان برسباى إلى تجهيزات حملته الثانية غادرت الحملة الشواطىء المصرية فى (٢٣ رجب سنة ٨٢٨هـ / ٢١ يوليو ١٤٢٥م) فاتجهت إلى بيروت حيث إنضمت إليها السفن التى أمر السلطان بصنعها فى بلاد الشام، وكانت الحملة بقيادة الأمير جرباش الكرىمى قاشق حاجب الحجاب يعاونه مجموعة من الأمراء، على كل سفينة أمير.

ونزلت الحملة ميناء قرياص ومنه إلى ميناء فاماجوستا ثم إلى ليماسول حيث استطاعوا الاستيلاء على حصنها "وهو أعظم حصون جزيرة قبرس". وأخيراً رأى قائد الحملة أن من المناسب العودة إلى مصر ولاسيما بعد أن وصلته أنباء عن استعداد البنادقة لنجدة القبارسة، وأن جانوس قد جمع واستعد.

لم يفتن السلطان برسباى، بما حققته هذه الحملة، فلم يكن يهدف إلى مجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من

الغنائم، ولكن هدفه الأساسي هو الاستيلاء على الجزيرة وإخضاعها للنفوذ المصري حتى يقضى على وكر القراصنة العاملين ضد الدولة المملوكية، ولذلك قرر برسباي إرسال حملة ثالثة إلى قبرس تعمل جاهدة على تحقيق هذا الهدف، وزاد من عزيمة برسباي تحريض الجنوية له ضد جانوس بسبب عدائهم لملك قبرس، واستجداد أمير العلايا بدولة المماليك، لمواجهة أطماع آل لوزجيان في إمارته، هذا فضلاً عما بلغ السلطان أن ملك قبرس راسل ملوك الفرنج واستجدهم على المسير إلى ثغر الإسكندرية ودمياط وبירות وطرابلس وغير ذلك .

وبعد أن تمت جميع الترتيبات لتلك الحملة، عهد السلطان بقيادة الحملة إلى الأمير تغرى بردى المحمودى، الذى تولى قيادة عسكر البحر، والأمير اينال الجكى الذى تولى قيادة عسكر البحر، وحدد السلطان إختصاصات كل منهما حتى لا يعارض أحدهما الآخر نظراً لأهمية التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية.

وأخيراً خرجت الحملة المصرية بكامل عدتها إلى قبرس مباشرة فوصلتها فى يوم الأربعاء ٢٧ شعبان سنة ٨٢٩هـ / أول يوليو ١٤٢٦م . وعند خيروكيتا دارت معركة حامية بين جيوش المماليك والقيارسة حلت الهزيمة فيها بالملك جانوس وجيشه ووقع أسيراً مع أعداد كبيرة من رجال جيشه فى قبضة المماليك.

وأخيراً عادت الحملة المصرية إلى القاهرة ومع المسلمين مئات الأسرى من جملتهم جانوس ملك قبرس نفسه، وكنيات ضخمة من الغنائم، حيث إستقبلت فى موكب كبير وهنا السلطان القواد والجند وأنعم عليهم بالرتب وأجزل لهم العطاء ووزع الكسوات التقليدية. ثم عقد برسباي صلحاً مع ملك قبرس تعهد جانوس بمقتضاه أن يدفع إلى سلطان مصر مائتى ألف دينار منها

مائة ألف معجلاً، والباقي مؤجلاً عند عودته إلى بلاده سالماً، وبأن يقوم فضلاً عن هذا بدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار، وقد دفعت هذه الجزية بانتظام وظلت جزيرة قبرس خاضعة لحكم المصريين حتى سقوط دولة المماليك سنة (٩٢٢هـ/١٥١٧م) وأخيراً توفى السلطان برسباي سنة (٨٤١هـ/١٤٣٨م).

أما عن أهم منشآت السلطان الأشرف برسباي فهي مسجد (مدرسة) الأشرف برسباي أثر رقم ١٧٥ بالأشرفية ولهذا المسجد وجهة كبيرة شرقية تتكون من سبيل وكتاب، بالركن الشرقي البحري للمسجد تربة زوجة الملك الأشرف وابنه الناصر محمد، ونقش على جدران المسجد من الداخل نص وقيته.

هذا بالإضافة إلى مدفن الأشرف برسباي بصحراء المماليك أثر رقم ١٢١ وهذا المدفن قبلى خانقاه ومدفن برقوق.
أما عن أهم منشآت أمرائه فمسجد (مدرسة) جوهر اللالاً أثر رقم ١٣٤ الذى يقع على ربوة عالية بحرى مسجد الرفاعي.

السلطان العزيز يوسف بن برسباي : (٨٤١ - ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م)
ولى السلطنة وهو فى الرابعة عشرة من عمره ولم يمكث سوى عدة أشهر فقد قام أتابك العسكر الأمير جقمق بعزله - كما هى عادة المماليك - وتولى هو السلطنة .

السلطان الظاهر جقمق : (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م)
عرف عنه التقوى والصلاح والإعتدال، فحرم المعاصى وشرب

الخمور وكان حكمه معتدلاً إذا قيس بحكم برسباى، وبالرغم مما إتهم به عهده من الهدوء النسبي إلا أنه تعرض فى أوائل حكمه للثورات التقليدية التى تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين واللاحقين، فثار ضده الأمير قرقماش الشعبانى أتابك العسكر فى مصر، كما ثار ضده الأمير اينال الجكمى نائب الشام فى دمشق وإنتهى أمر الثورتين بسجن الأتابك وقتل النائب.

وحدث أن ثار العبيد السود فى منطقة الجيزة، ونهبوها عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) وأقاموا لهم سلطاناً من بيتهم صاروا به فى موكب صياخب وعليه الصنّجق (العلم) السلطانى، فقضى عليهم جقمق وأبادهم بأن أمر ببيع جميع العبيد السود بالقاهرة وحاز لنفسه منهم عدداً كبيراً يسعر العبد ١٢ ديناراً، وأرسل الباقين فى سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا.

الظاهر جقمق والمغول :

تحدثنا عن توتر العلاقة بين برسباى وشاه رخ بن تيمورلنك بسبب رغبة شاه رخ فى كسوة الكعبة وطلبه من برسباى إقامة الخطبة له وضرب السكة بإسمه، مما عكر العلاقة بين الدولتين ولولا وفاة برسباى لكانت الحرب واقعة لامحالة. وعندما تولى الظاهر جقمق عرش السلطنة المماليكية وجد نفسه أمام مشكلة لا بد من تصفيتا هى مشكلة العلاقة مع شاه رخ.

فقد كان شاه رخ حريصاً على نيل شرف كسوة الكعبة، فما كاد جقمق يعتلى العرش حتى أوفد شاه رخ بعثة للتهنئة بالسلطنة وصحبته هدية ضخمة فأحسن جقمق إستقبال الرسل، كما وافق على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة سنة (٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م) بشرط أن تكون الكسوة من الداخل فقط أو تحت كسوة السلطان.

وسبب إتباع جقمق لهذه السياسة المعتدلة هو أن أحوال مصر فى ذلك

الوقت كان لا تحسد عليها بسبب عودة حملة جقمق الثالثة فاشلة من رودس. وقد بادر شاه رخ بإرسال سفارة تحمل كسوته للكعبة لتصبح موكب الحاج المصرى إلى الأراضى المقدسة. فاستقبل أعضاء السفارة استقبالاً حسناً فى القلعة، وأمر جقمق بإخفاء كسوة شاه رخ حتى لا يجرح الشعور المصرى ولكن العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا على ذلك الوضع فاعتدوا على أعضاء البعثة - لأنهم لم ينسوا هم والرأى العام فى العالم الإسلامى للمغول ماضيهم الملتخ بالدماء .

فقام جقمق بمعاينة العوام ولكنه لم يستطع معاينة المماليك واسترض البعثة التى كان من بين أعضائها أرملة تيمورلنك وجهازها للسفر إلى مكة حيث وضعت كسوة شاه رخ على الكعبة تحت كسوة السلطان، وبذلك أبر شاه رخ بقسمه وتوفى فى العام التالى ورأى جقمق أن يرضى الرأى العام الذى كان مستاءاً من فكرة قيام أحد حكام المغول بكسوة الكعبة، فأمر عام (٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م) بنزع كسوة شاه رخ وبقيت للكعبة كسوة سلطان المماليك وحدها.

الظاهر جقمق وجزيرة رودس :

انتزعت هيئة الفرسان الإستبارية (تأسست سنة ١٠٩٩م على يد - Blessed Gerald بعد إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس وكانت بهدف مساعد المرضى والحجاج من المسيحيين ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية) بمساعدة الجنوبية جزيرة رودس من الدولة البيزنطية سنة ١٣١٠م واتخذتها معقلاً لمناوى المسلمين، وذلك بعد سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية فى الشام، حتى أن حملاً بطرس الأول لوزجان سنة ١٣٦٥م على الأسكندرية أبحرت من رودس. وكان للنجاح الذى حققه برسباى فى الاستيلاء على جزيرة قبرس للسلطان جقمق لمحاولة الإستيلاء على جزيرة رودس، التى لم يمنع الس-

برسباى من فتحها سوى توتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة لها بالشرق الإسلامى من تيموريين وعثمانيين وإمارات التركمان بأسيا الصغرى، هذا بالإضافة إلى ما حل بالبلاد المصرية فى السفين الباقية من عهد برسباى من جملة من الطواعين والمجاعات والقتال المملوكية وارتفاع الأسعار، مما اضطر برسباى مرغماً إلى إرجاء فتح رودس وعقد صلح مع فرسان الإستباربة بها عندما جاءوا إلى القاهرة يقدمون ولاءهم له ويتعهدون له بعدم حماية قراصنة الكتلان بجزيرتهم وذلك فى عام (٨٣٠هـ / ١٤٢٧م).
تذرع السلطان جقمق فى غزوة لودس بهجمات القراصنة الذين اتخذوا رودس قاعدة لهم عقب إستيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦م.
ومن أمثلة تلك الإغارات أن أربعة شوان للفرنج أغارت على فرع رشيد فى ربيع الأول سنة (٨٤٣هـ / ١٤٣٩م) وأخذت منها أبقاراً وغيرها.
يضاف إلى ذلك أن السلطان مراد الثانى العثمانى حث السلطان جقمق على غزو رودس ليصرف الفرسان الإستباربة إلى الدفاع عن جزيرتهم بدلاً من الإلتصام إلى الحلف المسيحى الذى أخذت بعض الدول المسيحية تعمل على تأليفه لمقاومة الفتوح العثمانية فى البلقان.
وشجع جقمق على غزو رودس أمور عدة منها أن أسطول برسباى الذى غزا قبرس كان لايزال فى حالة جيدة، هذا بالإضافة إلى قرب جزيرة رودس من قبرس وإمكان إتخاذ قبرس قاعدة لغزو رودس، وإذا ما تم ذلك تسيطر الدولة المملوكية كلية على منطقة شرقى حوض البحر المتوسط.
وعندما أتمت البحرية المملوكية إستعدادتها للقيام بالهجوم على رودس أقطع الأسطول المصرى من ساحل بولاق فى ٩ ربيع الأول سنة (٨٤٤هـ / ٨ أغسطس ١٤٤٠م) وكان مكوناً من خمس عشرة سفينة من نوع الغراب بأحسن هيئة وأكمل عدة، وأتم زاد، وعليها مائتان من الجند بقيادة الأميرين

تغرى برمش الزردكاش (السلاح دار)، ويونس المحمودى (أمير-أخور)،
وإنضم إلى تلك القوة كثير ممن تطوع من أهالى القاهرة ودمياط حتى بلغ عدد
المحاربين قرابة ألف مقاتل.

وبعد معارك إتخذ الروادسة فيها عنصر المبادأة بالهجوم عاد أفراد
الحملة إلى القاهرة فى ٢١ جمادى الأولى سنة (١٨٤٤هـ/١٨ أكتوبر ١٤٤٠م)
وأسفر وجه الأمرام أنهم لم يكن لهم طاقة بأهل رودس".

والمواقع أن فشل هذه الحملة ترجع إلى تسرب أخبارها إلى أهل رودس
رغم حرص السلطان جقمق، وذلك عن طريق الرهبان الفرنسيسكان المقيمين
بدير صهيون وبيت لحم، فأرسل حاكم رودس الرئيس لاستيك Lastic سفينتين
لكشف أخبار الشواطئ المصرية، والتي علمتا عن طريق مسيحي من أهل
دمياط مدى استعداد المماليك وأدركتا أن الجزيرة لن تلبث طويلاً حتى تغير
عليها السلطنة المملوكية "فاستعد أهلها لقتالهم".

عزم السلطان جقمق على إعداد حملة ثانية تكون أشد بأساً وأوفر رجالاً
وزاد من عزمه أن صاحب جزيرة رودس قام بغارة بعدد من السفن على
ساحل بيروت، وأقلعوا من غير أن يقاتلهم أحد، هذا بالإضافة إلى أن الأخبار
وصلت إلى القاهرة بأن صاحب جزيرة رودس قد إستجد ببعض ملوك الفرنج
وأخذ يستعد للحرب "ليأخذ بثأرهم من المسلمين".

وإزاء هذه الأخبار قرر السلطان أن يبدأ بإرسال حملة إستطلاعية إلى رودس فأرسل خمسة سفن لتأتيه بالأخبار الدقيقة عن مدى إستعداد أهلها للدفاع وما إتخذوه من وسائل التحصين.

وبعد أن عادت سفن الإستطلاع، وتمت التجهيزات أقلع الأسطول فى المحرم سنة (١٤٤٦هـ/أغسطس ١٤٤٣م) بقيادة الأمير إينال العللى الناصرى والأمير تمرباى، ورغم تحقيق بعض الإنتصارات على أهل رودس لم يواصل المماليك حملتهم لإنتهاء موسم القتال بحلول فصل الشتاء فعادوا إلى مصر بعد أن هبت فى وجه سفنهم رياح عاصفة فرقت شملها، ولم يجتمع شملها إلا على ساحل بولاق فى ٢١ ديسمبر ١٤٤٣م بعد رحلة دامت أربعة أشهر ونصف.

كان للتوفيق الذى أصاب برسباى فى الإستيلاء على جزيرة قبرس بحملته الثالثة مشجعا لجمق على المضى فى معاودة الكرة على رودس، وإتخذ جمق من الأعمال التى قام بها برسباى فى حملته الثالثة على قبرس نموذجا يحتذى به فى حملته الثالثة على رودس. وعين الأمير يلخجا الناصرى قائدا للقوات البحرية، فى حين عهد إلى الأمير إينال العللى بقيادة القوات البرية.

وأقلعت الحملة من بولاق فى (٢٢ محرم ١٤٤٨هـ/٣ يوليو ١٤٤٤م) وكانت تتألف من أكثر من ألف مملوك، غير من سافر من المتطوعين الذين بلغ عددهم حوالى ألف وثمانمائة مقاتل، هذا بالإضافة إلى من إنضم إليهم من بلاد الشام.

وقد قامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس - حاضرة الجزيرة - طوال أربعين يوماً، ولكن المدينة صمدت للحصار واستعصى على المسلمين إقتحامها ولم يلبث أن ساء موقف رجال الحملة، لاسيما بعد أن وصلت بعض الإمدادات الأوربية إلى رودس، فعادوا فاشلين إلى مصر .

وعلى الرغم من أنه تم الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد

قليل ، إلا أن العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحياناً بقية القرن الخامس عشر، ومن الواضح أن سيطرة المماليك صارت في النصف الأخير من القرن الخامس عشر في حال لا يمكنها من القيام بعمل حربي كبير ضد رودس أو غيرها من القوى المعادية، فإتّم يسع سلاطين المماليك سوى أن يردوا على موقف رودس بالقبض على التجار الأوربيين في ثغور مصر ومضائقهم.

وأخيراً توفي السلطان الظاهر جقمق سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) وهو في الثمانين من عمره، بعد أن أعلن أثناء مرضه وهو على فراش الموت لإبنه عثمان بولاية العهد.

المنصور عثمان : (٨٥٧هـ/١٤٥٣م)

عهد له والده السلطان الظاهر جقمق وهو على فراش الموت . غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء في الحكم سوى ثلاثة وأربعين يوماً فخلعه الجيش لأنه وزع عليهم النقطة بنقود مغشوشة. فقد هاجم المماليك القلعة، وبعد حصار دام أسبوعاً دخل عليه إيتال من باب غير محصن (باب السلاسل) فهرب عند ذلك عثمان - الذي كان في الثامنة عشرة من عمره وهو ابن جاريه أغد يقية - إلى حریمه، فأسر هناك بعد ستة أسابيع وأرسل سجيناً إلى الإسكندرية، ثم أطلق سراحه في السنوات التالية .

الأشرف إينال : (٨٥٧ - ٨٦٥هـ/١٤٥٣ - ١٤٦١م)

من المعروف تاريخياً أن سلاطين المماليك الإراثل إعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر أن يشتروا ممالیکهم صغاراً أطفالاً ويتعهدون تربيتهم

وتنشأتهم نشأة خاصة، فيشب المملوك وقد إختص بولائه أستاذه الذى اشتراه وقام على تربيته وحباه بعطفه. أما فى ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك أى فى القرن الخامس عشر، فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً فى سن البلوغ مما جعل أولئك الجلبان لايتشربون روح النظام والولاء لأستاذهم فى طفولتهم فصاروا مصدر خطر على السلطان نفسه، وتعددت ثوراتهم حتى صار السلاطين أنفسهم ألعوبه فى أيديهم، ولعل هذا هو السر فيما نلحظة فى ذلك الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم، فلا يكاد السلطان يبقى فى منصبه أياماً بل ساعات حتى يعزل ويقام غيره. ومن وراء جميع هذه الحركات الثورية والفتن والقلقل كان الجلبان فى ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك الجراكسة. وهذه الظاهرة هى التى ميزت فترة حكم الأشرف إينال من إنعدام روح النظام وكثرة المنازعات والفتن والمنافسات بين طوائف المماليك.

فقد ثار المماليك الجلبان أثناء فترة حكم الأشرف إينال البالغة ثمانى سنوات سبع مرات.

وفى السنة (٨٥٩هـ/١٤٥٥م) حيكّت مؤامرة اشترك فيها الخليفة حمزة (المعتضد بالله) فخلعه إينال ونفاه إلى الإسكندرية فبقى فيهامده ثم مات وعين عوضاً عنه أخاه يوسف ولقبوه بالمستجد بالله .

وفى سنة (٨٥٧هـ ٢٩ مايو ١٤٥٣م) نجح السلطان العثمانى محمد الثانى ابن مزاد الثانى فى فتح القسطنطينية فأرسل إلى السلطان إينال يبشّره بانتصاره فكان وقع هذا الخبر مفرحاً جداً فى مصر، وكان الناس فى مصر يترقبون أخبار فوز العثمانيين وتوغلهم فى أوروبا بالفرح والسرور، لذلك احتفل إينال بالقاهرة ودقت البشائر فى القلعة وأرسل يهنئ بالفتح، ولم يلتفت لشكاية الأمير إبراهيم بن قرمان من تدخل السلطان العثمانى عام

(٨٥٩هـ/١٤٥٤م) في إمارته نظراً لعلاقات الود القائمة بين الدولتين.
و حين شعر إينال بدنو أجله استدعى الخليفة والعلماء والأمرء، ولما لم
يستطع الكلام غمغم بالتركية مشيراً إلى أن ولده أحمد البناضج السن يحب أن
يكون خليفته. وعلى ذلك قدمت له الطاعة في الحال في قاعة الإجتماع،
وهكذا توفى وهو في سن الثمانين يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة
(٨٦٥هـ / ١٤٦١م) بعد أن حكم ثمانى سنوات وشهرين وستة عشر يوماً.

المؤيد أحمد بن إينال : (٨٦٥هـ / ١٤٦١م)

تولى السلطنة وعمره ثلاثون عاماً وكان حسن السيرة غير أنه لم يبق
في الحكم إلا أربعة أشهر فقد عزله المماليك وأرسل إلى الإسكندرية مقيداً،
ولكنه أطلق سراحه في آخر الأمر وعاش في عزلة عدة سنوات عيشة فاضلة
ولوا الأتابك خشمقدم الرومى.

الظاهر خوشقدم الرومى : (٨٦٥ - ٨٧٢هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٧م)

عرف بالرومى لأنه يونانى الأصل (أغريقى) إشتهر السلطان شيخ منذ
خمسين عاماً، وإرتقى تدريجياً حتى صار حاكماً لدمشق ثم أتابكاً.
ويعتبر عهد خوشقدم من العهود الهادئة ، ولم يعكر صفو هذا الهدوء
سوى المحاولة التى قام بها جانم بك نائب الشام ليلى العرش بناء على دعوة
سابقة من المماليك الذين خلعوا أحمد بن إينال، غير أنه أبطأ فى التقدم إلى
القاهرة، فولى الأمرء خوشقدم، واستطاع السلطان أن يخادع جانم بك حتى
أعادته إلى نيايته فى هدوء، ثم أرسل سراً فى القبض عليه، وانتهى أمره بالقتل
على يدى مماليكه .

كذلك دبر خشمقدم مقتل صديقه جانى بك الدوادر الكبير بالقلعة وشنتت

مماليكه، حين ظهر له خطره على سلطنته.
وفي أواخر أيامه أصيب بإنزلاق البطن؛ وإنحطت صحته إلى حد أنه
كان يفقد الرشده أحياناً، وتوفى خشقدم وترك ولدين لاسمع عنهما شيئاً.

الظاهر يلباي المجنون (ألباي) : (٢٠ هـ / ١٤٦٧ م)

اختار أمراء المماليك الأمير يلباي المجنون ليخلف خشقدم بعد وفاته
لضعف شخصيته فقد كان آلة في يد الدودار الكبير خيربك زعيم المماليك
الخشدمية؛ فتشير المصادر إلى أنه كان إذا سئل في شيء ، أجاب على الفور
(أش كنت ، قل له) أى قل للدودار الكبير زعيم الخشدمية خير بك،
وأصبحت هذه العبارة ملازمة له، فأطلق عليه العوام "السلطان قل له"، ونتيجة
لإستبداد المماليك الخشدمية بالسلطان قل له فإن المماليك المؤيدية ثارت
وإقتتل الفريقان وأخيراً إجتمع الأمراء وقرروا عزل يلباي بعد شهرين من
سلطنته وأسر بالقلعة وعينوا أتاك العسكر تمريرغا الرومي.

الظاهر تمريرغا الرومي : (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٦٨ م)

ورغم كفاءته في فنون الفروسية إلا أنه عجز عن إرضاء المماليك
الخشدمية، فسجنوه بعد حكم دام ٥٨ ثمانية وخمسون يوماً بتدبير خيربك
زعيمهم.

الظاهر خيربك : (٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م)

كان خيربك يمهده لنفسه لتولى السلطنة منذ سلطنة يلباي وتحقق حلمه
بعد القبض على تمريرغا الرومي، وتلقب بالملك الظاهر تشبهاً بلقب أستاذه

الظاهر خشقدهم وقبل له أنصاره الأرض، وسرعان ما أخذ يمارس شئون السلطنة في جوف الليل، فأنعم بوظائف وتصرف وتصرف السلاطين الحقيقيين غير أنه عزل في صباح اليوم التالي فأطلق عليه المعاصرون "سلطان ليلة" فقد سمع الأتابك قايتباي بما جرى في القلعة، وكان غائباً يربع خيوله فعاد مسرعاً في تلك الليلة، وطاف على بعض فئات المماليك وإستمالهم واعدأ إياهم بالمكافأة، وإتفقت كلمتهم على خلع تمرىغا وسلطنه قايتباي، دون الإعتراض بحركة خيربك، صعد قايتباي إلى القلعة في الحال فأضطرب خيربك، حتى إذا أدركه طلوع النهار، أخرج تمرىغا من سجنه وأعادته إلى العرش وقبل له الأرض ثم (إنسطح) بين يديه وقال له : "وسطنى أى اقتلنى بالسيف فإنى كنت باغياً عليك" فكانت إجابة تمرىغا فى غاية الدقة وبعد النظر، قال : "يا دوادار، لا أنت ولا أنا بقى لنا بقاء، وقعت مناوشات يسيرة، سيطر قايتباي بعدها على الموقف وخلع تمرىغا وولى العرش بحضور الخليفة، وأكرم تمرىغا مراعيأ حرمته، فتركه يعيش حرأ طليقأ فى دمياط، أما سلطان ليله "خيربك" فكان مصيره السجن، وهكذا استقرت الأوضاع بعد تلك الفترة القلقة بقيام السلطان الأشرف قايتباي فى منصب السلطنة.

الأشرف قايتباي : (٨٧٣ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م)

يعتبر السلطان قايتباي من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة ليس فقط لطول مدة حكمه البالغة تسعة وعشرين عاماً والتي لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفى تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباي أنه أمهر السلاطين الجراكسة فى ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشئون العالم، وأكثرهم مقدرة وشجاعة وحكمة. وكانت مشكلة قايتباي الداخلية تتحصر فى ثورات الجلبان وتكررها

حتى جعلته يزهد في منصب السلطنة ، فقد كان الجلبان لا يقدرّون خطورة الوضع الذي تعرضت له الإمبراطورية المملوكية، ولم يكن لهم هدف سوى الحصول على النفقة دون نظر إلى حالة الدولة المالية أو التزاماتها الحيوية، وكان يلجأ إلى القضاء يشكو لهم الجلبان، ومثال ذلك ما حدث في عام (١٤٨٩هـ/١٤٨٩م) إذ عقد قايتباي مجلساً ضم القضاة والأمراء وشكا لهم سوء تصرفات الجلبان وسوء الحالة المالية، وأفاض في شرح ما تكبته الخزانة من نفقات على التجاريد الحربية وأقسم أنه أنفق عليها منذ ولايته العرش ١٦٥٠ر ١٦٥٠ دينار، وطلب إلى المجلس أن يختار سلطاناً غيره، وأشهد القضاة على تنازله على العرش ثم هم بخلع رداء السلطنة، ولكن القضاة ما زالوا به حتى استقر الرأي على بقاء السلطان على عرشه وترضية الجلبان، وعند ذلك حضر الخليفة المتوكل وجدد له البيعة، وتكرر هذا من الجلبان في العام التالي وهو يستعد لحرب العثمانيين فقال للجلبان "أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضى إلى مكة" وكما حدث في المرة السابقة قبل شفاعة القضاة والأمراء في الاستمرار على عرشه وترضية الجلبان وللمرة الثالثة ثار الجلبان في العام التالي فاقسم قايتباي عليهم إن هم طلبوا النفقة ليتخلين عن السلطنة ويمضى تحت جناح الليل إلى مكة.

الأشرف قايتباي والدول التركمانية :

ظلت الأطراف الشمالية لدولة المماليك في شمال سوريا والعراق وشرق آسيا الصغرى، مثار نزاع دائم، بسبب تمرد الدول التركمانية الخاضعة لنفوذ المماليك مثل دولة بنى دلغادر، ودولة بنى رمضان، ودولة بنى قرمان ودولة الشاه البيضاء أو "آق قيونلو" ، ودولة الشاه السوداء أو "قره قيونلو". وكان مكن الخطر على السيادة المملوكية ليس فقط في التمرد المنقطع من

جانب أولئك التركمان، بل إن تمردهم كان يتيح الفرصة لجيران أكثر منهم قوة خاصة العثمانيين على تهديد مصالح المماليك.

وكان أبرز حوادث خروج التركمان ما حدث بعد زوال خطر تيمورلنك إذ كثرت تمردهم مما اضطر السلطان المؤيد شيخ إلى القيام بحملتين سنتي (٨٢١ - ٨٢٢ هـ / ١٤١٨ - ١٤١٩ م) واحدة بقيادته والثانية بقيادة ابنه إبراهيم ونجح شيخ في إرهاب التركمان وتهديتهم ، ولكنها كانت تهدئة وقتية بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء عثمان قرابيلوك إنتهز فرصة سوء التفاهم بين برسباى وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة وأغار على خربوط وعلى الحدود السورية بتحريض من شاه رخ، ورد برسباى على ذلك بإرسال حملة خربت الرها وأسبر حاكمها هايل بن عثمان قرابيلوك، ومع ذلك لم يستطع أن يقوم بعمل حاسم لتأديب التركمان بسبب إختلال أحوال المماليك مما جعل عثمان قرابيلوك يسخر من سلطنة المماليك، حتى أنه أرسل إلى برسباى فى سنة (٨٣٦ هـ / ١٤٣٣ م) هدية مكونة من مرآة مكفته بالذهب وخروف ذى إلبتين وخلعة من قبله إلى السلطان برسباى من مخمل أحمر مرقومة بالذهب وعدة أثواب مخمل وصقور صيد، وإستقبل برسباى هذه البعثة وهو فى البحيرة وفتن لمغزاهما، والإهانة المقصود بها، فالخروف يرمز إلى أن السلطان وأمراءه نعاج، والمرآة بأنهم مثل النساء والخلعة على اعتبار أن برسباى نائب لقرابيلوك، وفى الحال ألبس الخلعة لأحد الأشخاص المضحكين، فرقص بها فى حضرة السلطان وقصاد قرابيلوك ثم أحرقتها على مشهد منهم وذبح الخروف، ثم سأل القصاد "أستاذكم إن أراد أن يبهدل أحداً، إيش يعمل فيه؟" فقالوا : يرميه فى الماء. فأمر برسباى بإلقاء القصاد فى العياش، ثم أخرجهم وأمر بقص أذنان خيولهم وأعادهم، ومعهم إنذار نهائى من السلطان: "قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات".

ولم يخلص برسباى من عثمان قرايلوك زعيم الشاه البيضاء إلا أصبان وإسكندر ولذا قرأ يوسف زعيم الشاه السوداء اللذين أرسلوا برأس عثمان قرايلوك إلى برسباى بعد حرب نشبت بينهما قرب أرضورم (أغسطس سنة ١٤٣٥م).

وظل الموقف هادئاً بين سلطنة المماليك والتركمان حتى قيام قايتباى فى الحكم، الذى شعر بزيادة نفوذ العثمانيين وتدخلهم فى شئون تلك الإمارات التركمانية على حدود دولة المماليك، فرأى أن يضع حداً للتركمان حتى لا يكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثماني فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال وحدث أن ناصر محمد الفاتح العثماني شاه سوار حتى ولى إمارة دلغادر عام (١٤٦٦هـ/١٤٦٦م) وطرد أخاه بوداق الذى ناصرته مصر، قام شاه سوار مستقداً أعلى مناصرة العثمانيين وإلغاف التركمان حوله. بمهاجمة أطراف الدولة المملوكية .

لذلك قام قايتباى بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار ونجحت الحملة الأخيرة التى كانت بقيادة الأمير يشبك سنة (١٤٧٦هـ/١٤٧٦م) فى إنزال الهزيمة بشاه سوار والإستيلاء على قلعة عينتاب وأذنه وطرسوس وأخيراً تم القبض على شاه سوار وأرسل إلى القاهرة، فى حين قام الأمير يشبك بتنظيم شئون إمارة دلغادر وعين الأمير بوداق أخو شاه سوار. وفى القاهرة أمر قايتباى بشنق شاه سوار على باب زويلة.

وبمقتل شاه سوار خمدت الفتنة التى أدت إلى هزيمة الجيش المملوكى

أكثر من مرة

ولم تقتصر المتاعب التى واجهت سلطنة المماليك من جانب التركمان على ما أثاره أمراء دلغادر من فتن وإعتداءات، بل إن قبيلة الشاه البيضاء وزعيمها حسن الطويل "أوزون حسن" المعاصر للسلطان قايتباى، فقد أخذ

يتملق السلطنة المملوكية ، خداعاً وبنفاقاً وذلك خلال إنشغال قايتباى بحرب شاه سوار فكان يرسل الهدايا مظهراً ولاءه وتبعية للمماليك، ولكنه حين أحس بنكبات الجيش المملوكى أمام شاه سوار قبيل خروج يشبك إليه، إستهان بالسلطنة المملوكية وأغار على البلاد الحلببية، مما أزعج قايتباى وجعله يفكر فى الخروج بنفسه حتى أنه ألقى خلال تلك الأزمة عدة مكوس تقريباً إلى الله والناس، وأخيراً أرسل قايتباى حملة بقيادة يشبك سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م) ضد حسن الطويل وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت إنتصاراً على التركمان عند البيرة على نهر الفرات إلا أن يشبك إنتهز فرصة الفوضى التى عمت إمارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل عام (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) وتولى ابنه خليل الذى عادى المماليك والعثمانيين ولكنه (خليل) توفى فى نفس العام وتولى حكم الشاه البيضاء بعده أخوه يعقوب الذى شغل فى مناقسات عائلية دموية إنتهز يشبك فرصة هذه الإضطرابات وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، ولكن حاكم الرها "بابندر" وهو أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل إستطاع أن ينزل الهزيمة بالمماليك فى تلك السنة وأسر يشبك وقتله، كما قتل كثيراً من أمراء المماليك.

كان لهذه الكارثة وقع الصاعقة على السلطان قايتباى، فصمم على الخروج بنفسه للإقامة بطلب ومراقبة حركات الشاه البيضاء لكنه أرسل الأمير أربك على رأس الجيش بدلاً منه، وتمكن أربك من عقد صلح مع دولة الشاه البيضاء وتوطدت عرى الصداقه وعلاقات الود والمجاملة بين السلطنة المملوكية ودولة الشاه البيضاء حتى أواخر أيام سلطنة المماليك فزالت دولة الشاه البيضاء على يد إسماعيل الصفوى.

السلطان قايتباي والعثمانيين :

بعد أن أتم العثمانيين سيطرتهم على شبه جزيرة البلقان أخذوا يحولون نشاطهم الحربي إلى آسيا الصغرى لإستكمال سيادتهم عليها، وجاءت نقطة البدء في الإحتكاك بين العثمانيين والمماليك من الإماراتين التركمانيين قريمان وداغدار وهما تحت الحماية المملوكية، تدخل محمد الفاتح في شئون الإماراتين ونجح في أن يتولى عرشهما أميران مواليان للعثمانيين، وذلك في الوقت الذي فشل فيه مرشحا المماليك، كذلك أخذ السلطان العثماني يرحب بالأمرء المماليك الفارين من جهة السلطان خشتقدم.

وفي عهد السلطان قايتباي ساد بعض الود بين الدولتين إلى وفاة محمد الفاتح العثماني عام ١٤٨١م وذلك راجع إلى إتفاق المماليك والعثمانيين على عدم التدخل في شئون الإماراتين وإلى إنشغال محمد الفاتح في توسيع إمبراطوريته غير أن هذه العلاقات الطيبة بدأت تضطرب على أثر تولية با يزيد الثاني العرش بعد أبيه (١٤٨١-١٥١٢م)، وسبب هذا الإضطراب نزاع جم مع أخيه ما يزيد والتجأ جم بعد هزيمته في موقعة ينيشهر Yenishehir إلى مصر حيث رحب به السلطان المملوكي قايتباي سنة (٨٨٦هـ/١٤٨٢م) وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج ويعرف المسلمين، كما يبدو ، بقضيته .

تدخل قايتباي في الصلح بين جم وبايزيد، ولما رفض با يزيد إقتراحات قايتباي ، ترك الأمير جم في مصر أمه وولده، وسار بإتجاه بلاد الشام بعد أن جهزه السلطان قايتباي بالعتاد ضد بايزيد ولكنه فشل في القتال مرة أخرى ضد بايزيد، وكان دعم السلطان قايتباي للأمير جم سبباً هاماً في تأزم العلاقات العثمانية المملوكية، هذا فضلاً عن رفض قايتباي طلب با يزيد بالسماح له بإصلاح بعض القنوات في مكة وتهاونه في أمر هدية مرسله من الهند إلى السلطان بايزيد وكانت عبارة عن خنجر من الماس النفيس.

إن تجمعت لدى السلطان بايزيد عوامل جعلته يتخذ موقفاً عدائياً

صريحاً من السلطنة المملوكية، فما كادت تصل إلى بايزيد شكاية علاء الدولة أمير دلغادر من تصرفات قايتباي، حتى أمده بقوة حربية عثمانية هاجم بها لبطية التابعة للمالِك .

لم يقف السلطان قايتباي مكتوف اليدين، فأرسل حملة في عام (١٤٨٩هـ/ ١٤٨٣م) بقيادة تمرّاز الشمسي إنتصرت على علاء الدولة وأحلافه من العثمانيين وعادت وفي ركابها عدد كبير من صنّاجق - أعلام - العثمانيين، وهذه أول حرب وقعت بين الممالِك والعثمانيين؛ ورغم إنتصار قايتباي فإنه كان يؤثر السلام والصدّاقة، وأرسل صحبة أمير سياسي داهية هو جاني بك حبيب أمير آخور ثاني تقليد من الخليفة إلى بايزيد بأن يكون مقام السلطان على البلاد في الدولة العثمانية (وما سيفتحه الله على يديه من البلاد الكفرية) كذلك حمل السفير المملوكي رسالة شخصية أخرى من الخليفة تتضمن حث بايزيد على تجنب الحروب، ولم ينس قايتباي أن يرسل مع قاصده الهدية "خنجرأ من الماس النفيس" التي كانت مرسلّة من قبل ملك الهند مع الإعتذار للسلطان عما وقع بشأنها، وأعد حملة حربية لإخضاع الثائر علاء الدولة.

على أن السلطان بايزيد استقبل جاني بك أسوأ استقبال، ورفض المصافاة وأجاب بإرسال جيش لغزو بعض البلاد المملوكية في الأطراف، فلم ير قايتباي بدأ من إستئناف الحرب ضد العثمانيين، ومن هنا بدأت حملات القائد أزيك وهي حملات ثلاث، بدأت في عام (١٤٨٥هـ/ ١٤٨٥م) وإنتهت بإنتصار قايتباي ووقوع عدد كبير من العثمانيين في الأسر، فأنزلهم قايتباي بديوانه وقرر لهم الجوامك، وظلت هذه الطائفة في خدمة الممالِك حتى نهاية العصر المملوكي، وهي المعروفة باسم (العثمانية).

وأخيراً تم الصلح سنة (١٤٩٧هـ/ ١٤٩٢م) بين بايزيد الثاني العثماني والسلطان المملوكي قايتباي وأطلق سراح الأسرى وتبدلت الهدايا

والمجاملات.

سياسة قايتباي الداخلية ومنشأته :

فى الوقت الذى حرص السلطان قايتباي على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال، لم يهمل شئون رعاياه ودولته ، حقيقة إنه تعسف فى جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الإحتكار، ولكن أعماله تثبت لنا أنه استغل الأموال الطائلة التى جمعها فى إقامة المنشآت العديدة أو تجهيز الجيوش أو إقامة المنشآت مثل مدفن (تربة) الأشرف قايتباي بالصحرَاء (أثر ٩٩) والتي تقع جنوب تربة الأشرف برسباي وهى تجمع مدرسة وسيلاً ومكتباً، كما بنى جامعاً فى جزيرة الروضة لايزال يشاهد هناك إلى هذا اليوم، ويلاحظ أن السيوطى قد أفنى بصدد مسجد الروضة، بعدم جواز بناء المساجد على شواطئ الأنهار وله مسجد بالكيش وآخر ببياب الخلق، ومسجد وحوض سبيل بالعباسية ، ثم إنه جدد قبة مسجد الإمام الشافعى، وبنى زاوية بالمرج وعدة زوايا وصهاريج فى جهات متفرقة، وله فى الحجاز مسجد الخيف قرب عرفات، ومنارة بالمسجد الحرام بمكة؛ كذلك جدد المسجد النبوى بعد الصاعقة التى أحرقتة، وأنفق على هذا التجديد نحو مئة ألف دينار، كما بنى بعد ذلك بعامين مقصورة الحجره النبوية من الحديد وتبلغ زنتها ٤٠٠ أريعمانه قنطار وجميعها تمتاز بفننا العربى الأصيل.

حتى أمرائه شغفوا بفن العمارة، فمن عمائر أمرائه قبة الأمير يشبك الدوادر بكويرى القبة (أثر رقم ٤)، وقد أنشأ بجوارها مدرسة وملحقات أخرى ولم يبق الآن سوى القبة، وله قبة أخرى (القداوية) بشارع العباسية (أثر رقم ٥)، وقد أنشأ بجوارها مدرسة وغربى، حولها حدائق، مات قبل أن يتمها فاتمها

السلطان قايتباي ومن عمائر أمرائه أيضا (مدرسة) مسجد أبو بكر مزهر. أنشأه الأمير أبو بكر محمد المعروف بإبن مزهر بحارة برجوان (أثر رقم ٤٩).

ومنها : مسجد قجماس الإسحاقى (بشارع الدرب الأحمر أثر رقم ١١٤) أنشأه الأمير سيف الدين قجماس الإسحاقى الذى كان نائبا للشام فى دولة الأشرف قايتباي، وكذلك مسجد قانى باى السيفى أمير أخور بميدان صلاح الدين (أثر رقم ١٣٦) أنشأه قانى باى السيفى أمير أخور شرق جامع الرفاعى.

وكذلك مقعد مامى. بميدان بيت القاضى (أثر رقم ٥١)، وقد تخلف هذا المقعد من منزل كبير أنشأه مامى السيفى أحد أمراء السلطان قايتباي هذا بالإضافة إلى شغف قايتباي بإصلاح آثار وترميم منشآت أسلافه، كما تثبت ذلك الكتابات والنقوش العديدة المثبتة فى مدارس ذلك العصر ومساجده فضلا عن القلعة، وقد عرف عن قايتباي حب التنقل والأسفار فطاف بالشام وأعلى الفرات ومصر العليا والدلتا، بالإضافة إلى الحجج وزياره الأماكن المقدسة، وأيضا ذهب كان يخلد إسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الحيوية.

أما الأيام الأخيرة لقايتباي فمع أنها كانت سلماً فى الخارج كانت أيام بؤس فى الداخل ، إذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم، كما إنتشر الطاعون انتشاراً خطيراً سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٣م) حتى مات بسببها فى يوم وليلة إثنا عشر ألفاً، وفقد السلطان قايتباي زوجته الوحيدة وإبنته فى يوم واحد ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك الوياء فماتت أعداد غفيرة منهم قدرها المؤرخون بثلاثتهم، وزاد الموقف سوءاً إنعدام الأوقات وإنخفاض النيل وانتشار طاعون المواشى.

وفى وسط تلك الظروف القاسية لم يتورع المماليك عن الوقوع فى منازعات مع بعضهم البعض سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) فقام نزاع بين قانصوه

"خمسائة" وأكبردى فى القلعة فإستولى أكبردى على أزمة الحكم ولكنه غلب على أمره ففر بحياته إلى غزة، فأخذ مكانة قانصوه، ولما رأى قايتباى ظلام المستقبل وكان قد بلغ السادسة والثمانين من عمره وإستبد به المرض لزم فراشه ورأى ضرورة التنازل عن العرش لإبنه محمد وهو شاب فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره من جارية جركسية، ثم توفى قايتباى بعد ذلك فى اليوم التالى مباشرة سنة (١٤٩٦م/١٤٩٦هـ).

الناصر محمد بن قايتباى : (٩٠١ - ٩٠٤هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٨م)
كان عمره عندما تولى السلطنة أربعة عشرة أو خمسة عشرة عاماً وهى سن لا يمكنه من الصمود فى وجه كبار الأمراء، وقد إتخذ النزاع بين كبار الأمراء شكل تنافس حول الوصاية على السلطان الصغير؛ على أساس أن هذه الوصاية تعتبر خطوة تمهيدية للتخلص من ذلك الطفل والفوز بمنصب السلطنة وكان أن خرج الأمير قانصوه خمسمائة فائزاً من تلك الجولة وبذلك تولى منصب الأتابكية واستبد بالسلطة، وسامت تصرفات محمد بن قايتباى السلطان الرسمى، فأثار ذلك الأمراء حتى كثرت الفتن والقتال فى مصر ونياباتها الخارجية، غير أن قانصوه إستطاع أن يطيح بزعماء الفتنة وأن يعزل السلطان ويتولى مكانه.

قانصوه خمسمائة : (٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)
لم تزد سلطنته عن ثلاث أيام، فقد قام أنصار السلطان المخلوع الناصر محمد بن قايتباى ولاسيما خاله قانصوه بمهاجمة المعتصب قانصوه خمسمائة، فحاصروه فى القلعة ولكنه تمكن من الإفلات وقام بعدة محاولات لإعادة العرش إنتهت بالفشل وإنتهى أمره بالقتل وأعيد محمد بن قايتباى للسلطنة

للمرة الثانية .

غير محمد بن قايتباى لقبه فى سلطنته الثانية من الناصر إلى الأشرف إرضاء لممالك أبيه حتى يصير الجميع أشرفيه، نسبة إلى الأشرف قايتباى فلا تكون هناك ميزة لمماليكة الناصرية الذين يؤثرهم على ممالك أبيه، وقد أدى ذلك إلى بلبلة فى القاهرة، حيث كان بعض الخطباء يخطب باسم الناصر والبعض الآخر باسم الأشرف، ولم تجد احتجاجات الأمراء بعدم جواز ذلك ولاسيما بعد صدور المراسيم والنشرات باسم الناصر.

كما استأثر الأشرف (الناصر) محمد نفور الناس بحماقته وطيشه، إذ كان كثير المعاشرة للأوياش، يدعوهم إلى القلعة، وينزل أحياناً إلى النيل فى مركب مليئة بالحلوى والجبن المقلى ويبيع كما يفعل الباعة فى المواسم، كما كان يخرج المسجونين ويقتلهم بيده ؛ وعلمه المشاعلى كيف يوسط بالسيوف وأمضى فى عبثه الدموى حتى كان يقطع آذانهم وأيديهم وألسنتهم ويستبد به الممالك الجلبان حتى أنه أخرج كثيراً من الإقطاعات والرزق والأملاك وفرقها عليهم إقطاعات، مما أدى إلى إثارة أنصاره المخلصين وأصحاب الفضل عليه فى إعادته إلى العرش والقضاء على خصمه كما خرج على السلطان الأمير أقبردى الدوادار، والأمير تمتاز الشعيى الأتابك (وهو ابن أخت قايتباى).

ويبلغ سوء تصرف محمد بن قايتباي أقصاه عندما وزع المماليك الجلبان في جمادى الأولى سنة (٩٠٣هـ / يناير ١٤٩٨م) على الأمراء، وخصص لكل مملوك مبلغ عشرة آلاف درهم يأخذها من إقطاع الأمير الذي ألحق به في كل سنة فكان المماليك الجلبان يدخلون بيوت الأمراء وهم على ظهور خيولهم ويضربون مباشرتهم ويسبونهم لإنتزاع ما قرره السلطان لهم. كما قام الجلبان بالإعتداء على الناس ونهب الأسواق لذلك صمم الأمراء على وضع حد لتلك الحال فاستمالوا الأمير قانصوه خال السلطان محمد بن قايتباي وعضده وساعده الأيمن في جميع الأزمات التي تعرض لها إلى جنتيهم فسكت عما دبروه وقتلوا السلطان محمد بن قايتباي الذي كان عمره يوم قتل سبعة عشرة سنة (١٧ سنة) وسلطن الأمراء قانصوه خال القتل في ربيع أول سنة (٩٠٤هـ / أكتوبر ١٤٩٨م) وللسلطان محمد بن قايتباي مسجد بناه في القيوم عام (٩٠٣هـ / ١٤٩٧م).

الظاهر قانصوه الأشرفي : (٩٠٤ - ٩٠٥هـ / ١٤٩٨ - ١٥٠٠م)

مملوك جرکسى اشتره السلطان قايتباي، ومن عجب أمره أنه وجد بعد شرائه أنه أخ لزوج السلطان المسماه (أصليباي) أم محمد، كان عمره وقت توليته السلطنة خمساً وعشرين سنة حكم عشرين شهراً ويضعة أيام غير أن الدوادار الكبير طومان باي طمع في السلطنة وتحالف مع قصره نائب الشام وقام طومان باي بمحاصرة القلعة فاضطر السلطان الظاهر قانصوه إلى الهرب في زى النعاء حتى قبض عليه وأرسل إلى الإسكندرية سجيناً وكانت سلطنة الظاهر قانصوه إسميه بحتة، وكانت السلطة الفعلية في يد الأمراء الذين سلطنوه، فلم يكن يبرم أمراً أو يبيت في مسألة. فإذا سئل عن شيء أجاب "بخشى" حتى لقبه العامة "بالسلطان يخشى" وبالرغم من أن طومان باي الذي

كان يشغل منصب الوزارة والأستادارية والدوادرية الكبرى كان الشخصية البارزة في الحركة التي أدت إلى سلطنة قانصوه: وإلى القضاء عليها فإنه لم يجرؤ على إعلان رغبته ومطامعه في شغل منصب السلطنة الشاغر، وأمامه الأمير جانبلاط أتابك العسكر، لذلك رشح هو الأمير جانبلاط للسلطنة.

السلطان الأشرف جانبلاط : (٩٠٥ - ٩٠٦هـ / ١٥٠٠ - ١٥٠١م)

لم يحكم إلا سبعة أشهر، وكان عمره خمسة وأربعون سنة حين تولى منصب السلطنة وقد تزوج من أرملة قايتباي (أصولباي) حاول إجتهاد قصره نائب الشام الخارج عن طاعته بتوليته منصب الأتابكية الذي شعر بسلطنته، فكانت إجابة قصره إعلان نفسه سلطاناً بالشام وإتخاذ لقب الملك العادل، وبما أن طومان باي كان صاحب الأمر والنهي في دولة جانبلاط خرج على رأس حملة لإخضاع قصره سلطان الشام وفي الشام إتفق طومان باي وقصره على عزل جانبلاط وتولية طومان باي كما إتفقوا على أن يتولى قصره منصب أتابك العسكر، كما عينوا قانصوه الغورى في منصب الدوادرية الكبرى وغيرها من الوظائف التي كان يليها طومان باي نفسه قبيل سلطنته، وزحف طومان باي إلى القاهرة وحاصر القلعة، وأيقن جانبلاط بقشل المقاومة فإختبأ عند الحريم السلطاني حتى قبض عليه وسجن وخنق.

السلطان العادل طومان باي : (الأول) (٩٠٦هـ / ١٥٠١م)

كان طومان باي عندما بويع بالسلطنة في بلاد الشام قد تلقب بالمؤيد، فلما جدد له الخليفة المستمسك البيعة في القاهرة لقب بالعادل بدلاً من المؤيد. ولم تدم سلطنة إلا ثلاثة شهور وأيام فقد خشي على عرشه من حليفه أتابك العسكر قصره الذي كان يبطأ في الصعود إلى القلعة فبادر بالقبض

وخنقه، ونتيجة لوقوع هذا الحادث فجأة وفى هدوء من غير سابق فتنة أو مؤامرة صريحة خشي الأمراء المحيطون بالسلطان أن يلحق بهم ما لحق بأتابك العساكر فدبرت مؤامرة إنتهت بخنق السلطان العادل طومان باى. ويتضح لنا مما سبق أن معظم السلاطين الذين تولوا منصب السلطنة فى ذلك الدور الأخير من حياة دولة المماليك إنتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون فى تولى منصب السلطنة الذى عدا ملطخاً بدماء الأبرياء، وعندما قتل السلطان العادل طومان باى سنة ١٥٠١م تمنع الغورى - رغم أنه أقوى الأمراء - عن قبول المنصب بل إنه أخذ يبكى ! ويقال إنه قبل أخيراً ذلك المنصب بعد أن إشتراط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه، ولم يكن إصرار الأمراء على إختيار قانصوة الغورى لإعتقادهم فى أحقيته نظراً لكبر سنه، وإنما لإعتقادهم أنه ضعيف يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم .

الأشرف قانصوه الغورى : (٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م)

تولى الغورى السلطنة فى شوال سنة (٩٠٦هـ / مايو ١٥٠١م) بعد تردد وبعد أن أخذ العهود والمواثيق على الأمراء قائلاً "أقبل ذلك بشرط ألا تقتلونى، بل إذا أردتم خلعى وافقتكم" وكان إصرار الأمراء على إختيار قانصوه الغورى هو إعتقادهم أنه لين العريكة سهل الإزالة فى أى وقت. ولكن الغورى أثبت أنه رجل قوى صلب رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره عندما ولى منصب السلطنة، فعمل سريعاً على إعادة الأمن والإستقرار إلى العاصمة وملاً مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء، ثم إتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة وقد إتبع السلطان الغورى لإتعاش الخزانة العامة سياسة تصنيفية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين

المماليك. ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة، ولم يكثف بفرض هذه الضرائب على الأراضى والحوانيت والعقارات، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور، بل حتى الأوقاف الخيرية. هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم الجمركية، كما تلاعب في العملة لتستفيد الخزنة من الفارق، مما أضر بالتجار ضرراً بليغاً. وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان يريد من أموال ولكن على حساب الشعب الذى إزدادت حالته سوءاً، وأخذ يشكو من قسوة الضرائب الباهظة.

وقد انفق الغورى من تلك الأموال على مماليكه الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء، كما شيد مسجداً (مدرسة) (أثر ١٨٩) أمام تربته فى الجهة الغربية، كما شيد مدفن و خانقاه ومكتب ومقعد (أثر رقم ٦٦، ٦٧) على رأس تقاطع شارع الغورية بشارع الأزهر كذلك عنى السلطان الغورى بطريق الحج، فأقام به كثيراً من الإستراحات و ابار، هذا فضلاً عن حفر بعض الترع وتحصين الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة، ومن المعروف عن السلطان الغورى أنه عنى بفخامة بلاطه وعظمة مظهره، فأصبحت مماليكه وخبوله وجواهره ومطبخه السلطانى مضرب الأمثال، كما إشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمتهم من شعراء وأدباء وعلماء. ولم تحدث قلائل ذات خطورة فى الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى، إذا إستثنينا بعض الفتن والثورات من جانب المماليك الأجلاب والعربان، وهذا النوع من الثورات كان مألوفاً فى ذلك العصر. ولم يصادف السلطان الغورى مشقة فى إخمادها ولكن الخطر الكبير الذى ظهر فى ذلك العصر والذى هدد مصر فى كيانها وفى المورد الأول لثروتها وغناها أتى من ناحية الجنوب - أعنى من ناحية المدخل الجنوبى للبحر الأحمر؛ ثم من ناحية الشمال - أى من جانب العثمانيين.

قائصوه الغورى والبرتغاليون :

فى الوقت الذى اشتد احتكار سلاطين المماليك فى أواخر دولتهم لحاصلات الشرق مما أدى إلى إثارة التذمر فى غرب أوروبا لإرتفاع أثمان تلك الحاصلات، كان بعض المتحمسين لفكرة الحرب الصليبية مازالوا ينادون بضرورة ضرب سلطنة المماليك إقتصاديا عن طريق حرمانها من مواردها التجارية، ويعد أن فشلت فكرة الحصار الإقتصادى على مصر بسبب عدم تجاوب البنادقة مع هذه الفكرة، ظهرت فكرة جديدة هى محاولة الكشف عن طريق آخر غير طريق البحر الأحمر وسلطنة المماليك للوصول إلى الهند والحصول على غلات الشرق .

وكان أن ظهرت جهود البرتغاليين لإكتشاف سواحل أفريقية الغربية لتعبر عن فصل من فصول الحرب الإقتصادية الصليبية ضد الدولة المملوكية، إذ كانت هذه الجهود البحرية تهدف إلى الوصول إلى شواطئ الهند وتحويل تجارة الشرق عن الطرق المارة فى أراضي الدولة المملوكية ، يقصد حرمانها من مصدر ثرائها وقوتها، ولذلك باركت الكنيسة الكاثوليكية هذه الجهود فأصدر البابا نقولا الخامس منشوراً فى ٨ يناير سنة ١٤٤٥م يبارك فيه خطوات الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠م) فى هذا المجال ثم كان أن تتابع نجاح حركة الكشوف الجغرافية، من أجل التوصل إلى طريق جديد لتجارة الشرق، فوصلت بعوث هنرى الملاح إلى مصب السنغال، والرأس الأخضر (١٤٤٦م - ١٤٤٧م)، كما وصل يارتميوذيلاز إلى طرف أفريقيا الجنوبي ١٤٨٦م، ثم تبعه فاسكودى جاما الذى وصل إلى موزمبيق وكلوه وممبسة وهبط "ملنده" حيث أخذ ما يلزم من الزاد واستصحب معه بحاراً عربياً يدعى أحمد بن ماجد تله على الطريق إلى قاليقوط سنة (١٥٠٢/٨٩٠٨م).

وبذلك تحقق أمل الأوربيين فى كشف طريق جديد إلى الهند، ومن ثم بدأت البرتغال ترسل الأساطيل لإستخلاص تجارة الشرق من أيدي الأسطول المصرى، وإقتلاع جذور النشاط العربى من منطقة المحيط الهندى وتحويلها عن الطريق القديم إلى طريق رأس الرجاء الصالح إلى لشبونة، وبالتالي تصبح البرتغال بدلاً من الدولة المملوكية وسيطة التجارة بين الشرق والغرب، وإغراق أوربا بالسلع وسائر المنتجات الشرقية بأسعار رخيصة.

ولتحقيق هذا الهدف قام الأسطول البرتغالى سنة (١٥٠٧هـ/١٥٠١م) بإغراق بعض سفن التجار المصريين فى ميناء قاليقوط ومن بينها سفن تابعة للسلطان الغورى كانت على وشك الإبحار إلى جدة.

كذلك أرسلت البرتغال سنة ١٥٠٢م أسطولاً بقيادة فاسكودى جاما لعدة أغراض أهمها إقامة حصون على السواحل الغربية لشبه جزيرة الهند لتزويد السفن البحرية بالمياه العذبة، وبناء حصن فى موقع مناسب عند مدخل البحر الأحمر لمنع السفن التى تحمل التوابل من الدخول إلى البحر الأحمر فى الطريق إلى مصر، حتى يفقد الهنود أملهم فى المتاجرة مع غير البرتغاليين، ونجح هذا الأسطول فى إحتلال جزيرة سقطرة وإتخذ منها قاعدة للهجوم على السفن الإسلامية.

ونتيجة لعجز السلطان الغورى فى ذلك الوقت عن إتخاذ أى إجراء عسكرى فإنه لجأ إلى الوسائل الدبلوماسية للضغط على البابا وملوك الفرنج بأنه ما لم يكف البرتغاليون والأسبانيون عن تجرهم العداى فى مياه المحيط الهندى ، فإنه سيقوم من جانبه مضطراً ومكراً بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجاراً ورهباناً كما سيقوم بغلق كنيسة القيامة.

ولكن البابا والدول المعنية لم تعبأ بتهديداته ولم تقلح الوسائل

الدبلوماسية التي أنتهجها الغوري وتمادوا في غيهم.

تعين على الغوري أن يواجه القوة بمثلها، ولما كانت البنديقية هي العميل الأول لتجارة التوابل، والتي وجدت نفسها عاجزة عن مسايرة الأسعار التي تجلب بها البرتغال التوابل من الهند، وتأثرت بتحويل التجارة شأنها في ذلك شأن مصر، فقد طلب السلطان الغوري من رسول البنديقية بندتوسانوتو الذي أتى إلى مصر ليحث الأخطار الناتجة عن تحويل البرتغاليين لتجارة البهار إلى أسواق لشبونة، بمشاركته في الجهود الحربية بإمداد بالآخشاب والأسلحة للالتزمه لبقاء أسطول يتمكن به من مطاردة البرتغاليين في المحيط الهندي.

حرصت البنديقية على عدم التورط مع الغوري في القيام علانية بأى عمل أو أى إجراء يتعارض مع الأهداف الصليبية، ولكن تحت ضغط الرأي العام الذي كان يميل إلى إمداد مصر بهذه المساعدة، فقد أشارت البنديقية على الغوري ببعض الوسائل التي يستطيع الإعتماد عليها في بناء الأسطول، دون أن يؤدي ذلك إلى إظهارها أمام الأوربيين بمظهر الدولة التي تساعد علانية. لم يقصر البرتغاليون نشاطهم على المحيط الهندي، بل توغلوا في البحر الأحمر في محاولة للإتصال بالنجاشي للوصول إلى إتفاق لإعداد حملة مشتركة، كما أغار الأسطول البرتغالي على ميناء عدن ثم توجه إلى سواكن ومنها إلى جدة، أملاً في الزحف على المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، فاستجد حكام وأمرآء الدويلات الإسلامية في الهند وشبه جزيرة العرب بمصر.

وفي تلك الوقت كانت الدولة المملوكية قد إنتهت من إضادة بناء أسطولها فأمر السلطان سنة (٨٩١١هـ/١٥٠٥م) بإنزال المراكب فوراً إلى البحر الأحمر وتولية الأمير حسين الكردي قيادة الأسطول الذي كان قوامه

خمسين سفينة إستطاع بناءها من رفع أسعار التوابل، وزيادة رسوم الجمارك كما أرسل السلطان مع هذا الأسطول عدداً من الصناع والبنائين، لبناء سور حول ميناء جدة، وإنشاء الأبراج اللازمة للدفاع عنها إذا ما هاجمها البرتغاليين. وما إن علم البرتغاليون بوجود الأسطول المصرى فى جدة حتى هربت السفن البرتغالية نحو الجنوب ثم إلى ساحل الهند، وسار الأسطول المصرى جنوباً متعباً السفن البرتغالية ومطارداً لوحدها إلى أن وصل إلى ساحل الهند الغربى فالتقى بأسطول برتغالى مكون من إثنى عشرة سفينة بقيادة فرانسيسكو دالميدا فى ميناء شول فى صيف عام ١٥٠٨م وإشتبك الأسطولان فى موقعة إنتهت بهزيمة البرتغاليين ومقتل لورانسو بن دالميدا وتحطيم سفينته وفرار بقية السفن البرتغالية الأخرى، كما تمكن الأسطول المصرى من أسر أحد الأغربة البرتغالية.

وعقب ذلك النصر إتجه الأسطول المصرى إلى جزيرة ديو للتموين والإصلاح وحتى ينتضى فضل الأمطار، كما وصلت إلى ديو أربعون غراباً صغاراً أرسلها السامرى من ساحل ملبار لتكون فى خدمة القائد المصرى إذا ما تعرضت أساطيله لغارة إنتقامية من قبل البرتغاليين.

إنتهز فرانسيسكو دالميدا فرصة لجوء الأسطول المماليكى إلى ديو ليعيد تنظيم قواته، وإستعد فى نحو عشرين مركب وفاجأ الأسطول المصرى والأساطيل الهندية المتحالفة معه، فوقعت بين الفريقين معركة بحرية هائلة فى شهر صفر سنة (٩١٥هـ / ٣ فبراير ١٥٠٩م)، وركز البوكيرك ورجالة جهودهم ضد مراكب الأسطول المصرى بالذات، فأسر بعض الأغربة المصرية وحطم البعض الآخر، مما أضطر الأمير حسين الكردى إلى الإلتحاح بما سلم معه من المراكب إلى جده، وعمل على بناء سور ضخم محصن حولها بعد أن تواترت الأنباء عن محاولة دخول البرتغاليين للبحر الأحمر.

وأعقب البرتغاليون إنتصارهم الساحق بفرض حصار قوى لمنع السفن القادمة من الهند من دخول البحر الأحمر والموانى العربية، وإستطاعت السفن البرتغالية بهذه العملية أن تعزل موانى البحر الأحمر وبخاصة جده وسواكن والسويس، وأن تمنع وصول التوابل والسلع الأخرى إليها.

وفى الوقت الذى واصل فيه البرتغاليون نشاطهم ضد السفن المملوكية فى ميناء المحيط الهندى والبحر الأحمر قام فرسان الإيستبارية بشن سلسلة مر الغارات على السفن المصرية فى البحر المتوسط، وهى محملة بالبضائع والأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن بقصد عرقلة المجهود الحربى الذى تقوم به الدولة لمواجهة خطر البرتغاليين ، ويبدو أنه كان هناك إتفاق بين الفرسان الإيستبارية وملك البرتغال على خطة العمل فى مهاجمة الدولة المملوكية.

عمل الملبطان الغورى على إعادة بناء الأسطول المصرى بعد هزيمة ديو فإشتر من الدولة العثمانية الأخشاب والمعدات اللازمة، إلا أن الإيستبارية علموا بخبر هذه الصفقة فترصدوا السفن المصرية البالغ عددها ثمانية عشر سفينة وهى فى طريق عودتها إلى مصر محملة بالأخشاب والمعدات، ونجح أسطول الإيستبارية بقيادة أندريه دامارال البرتغالى الأصل من الإحاطة بالسفن المصرية، ودارت بين الفريقين معركة غير متكافئة وكانت الخسارة فادحة فقد غرقت بعض السفن المصرية وشبت النيران فى بعضها الآخر، وإستولى الفرسان على البعض الآخر بما عليها من أخشاب وعتاد، ولم يصل إلى الأسكندرية سوى ست سفن خاوية.

وإزاء هذه الصعاب المتلاحقة التى هددت الدولة من كل جانب بالإضافة إلى ما تعانيه الدولة من قلة الأموال وما نتج عن ذلك من عجزها عن بناء أسطول جديد وتسليحه وعمارة الأسوار والأبراج، لجأ السلطان

فنبه الغوري مرة ثانية إلى السلطان العثماني بيازيد الثاني طلباً منه أن يسع له الأختساب والنحاس والحديد، وطلب منه المساعدة للمحافظة على المقدسات الإسلامية، وأرسل إليه أحد خوالصه وهو بيوتس العلالى وعنه المال اللازم لتسراء مستقرات إعداد حملة بحرية جديدة.

ولما بلغ السلطان بيازيد تلك رفقض أن يأخذ المال من الرسول، وأرسل عدة سفن تحمل الأختساب والمجديف والمكاحل والنشاب واليارود وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب فوصلت إلى ساحل يولاتى فى شهر شوال سنة (٩١٦هـ/١٥١١م).

وفى أثناء تلك قلم الأسطول البحرى بمهاجمة عدن ستة (٩١٩هـ/١٥١٣م) بقصد السيطرة على مدخل البحر الأحمر الجوى، كما هاجم هذا الأسطول سواكن، وتجه فى الاستيلاء على جزيرة كمران من اليمن. غير أنه شاعت الظروف أن يتمكن الغورى من الإتهام من إعادة بناء الأسطول فى تلك الوقت العصيب والنزال وحداته التى تألفت من اثنتين وعشرين غزالياً كبيراً وغلبيوتين، وضم إليه عسكرياً من القرك والمغاربة، وعهد بالقيادة إلى الأمير حسين الكردى، وما أن المس البحرى تغالبون قوة الأسطول المصرى حتى ساروا بالإسحاب من مياه البحر الأحمر، فبعهم الأمير حسين إلى شواطئ الهند، غير أنه لم يستطع إنزال الهزيمة بهم، وأرسل إلى السلطان فى طلب النجدة، فبعث إليه الغورى بوحدة بحرية أخرى بقيادة سليمان العثمانى (الذى بعثه إليه السلطان بيازيد) لمعاوته.

غير أن هذه القوة البحرية الضعفة لم يكن لها حظ كبير من النجاح فلم تستطع الحصول على الاتصال حاسم ضد البحرىين، بسبب ما كان للبرىين من قواعد قوية على الشاطئ الهندى وإن كانت قد نجحت فى

إبعاد خطرهم مؤقتاً عن البحر الأحمر، إذ تمكن الأسطول المصري من الاستيلاء على زبيد ثم توجه إلى عدن حيث تمكن من هزيمة أسطولاً برتغالياً. ونتيجة لأعمال السلب والنهب التي قام بها الأمير حسين ضد المسلمين في عدن، وقع الخلاف بينه وبين زميله في القيادة سليمان العثماني عاد الأسطول على أثره إلى جدة، بعد أن إستولى في طريقه على اليمن من بنى طاهر وجعل عليها نائباً مماليكيا هو الأمير برسباى الجركسى. وفي هذه الأثناء دخلت الدولة المملوكية مرحلتها النهائية، حيث كانت الأقدار أقوى من عزيمة السلطان الغورى الذى كان كبير الأمل فى الانتصار على البرتغاليين لو لم يتحرك العثمانيون ضده وإضطراره إلى الخروج على رأس جيش كبير لمواجهة الغزو العثمانى .

قنصوه الغورى والعثمانيون :

كان الأتراك العثمانيون يعيشون فى بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) فى إقليم خراسان، واضطروا نتيجة لغزو المغول إلى الهجرة نحو الغرب حتى استقروا فى أسيا الصغرى، وقد أتاح لهم إنهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية سنة (٧٠٧هـ / ١٣٠٧م) فرصة طيبة، فأخذوا (العثمانيون) يتوسعون بسرعة على حساب الإمارات والقبائل التركية الكثيرة التى وجدت بأسيا الصغرى فى ذلك الوقت، وعلى حساب الممتلكات والأراضى البيزنطية، فاستولوا على بروسة سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٦م) وعلى نيقية سنة (٧٣٠هـ/١٣٣٠م) ثم عبروا إلى الشاطيء الأوروبى واستولوا على شبه جزيرة غاليبولى سنة (٧٥٥هـ/١٣٥٤م). وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوسع توسعاً آمناً سريعاً على حساب الدولة البيزنطية من ناحية وعلى حساب القوى الإسلامية فى أسيا الصغرى من ناحية أخرى دون أن يعوق

تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر للميلاد.
وفى أوائل القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر للميلاد - تعرضت
الدولة العثمانية لضربة خطيرة كان من الممكن أن تقضى عليها قضاء نهائياً
فقد قام تيمورلنك بإجتياح أراضيها فى أسيا الصغرى وأنزل هزيمة ساحقة
بالجيوش العثمانية فى موقعة أنقرة سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م)، وأسر السلطان
العثمانى بايزيد الأول حيث مات فى الأسر فى العام التالى، ولكن الدولة
العثمانية استطاعت أن تنهض من تلك الكبوّة فقد تمكن السلطان محمد الأول
العثمانى من إحياء الدولة وإستئناف سياسة التوسع من جديد، ونجح محمد
الثانى الفاتح فى الإستيلاء على القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) وإنتهت
الدولة البيزنطية من سجل التاريخ وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة
الرومان فى مدينة الإمبراطور قسطنطين العظيم.

ولم يظهر فى الأفق خلال تلك الأحداث التى صحبت نمو الدولة
العثمانية وإتساعها ما يدل على إحتمال حدوث صدام بين العثمانيين والمماليك
فى مصر والشام بل إن دولة المماليك أخذت تنظر بعين الإرتياح إلى كل
نصر يحققه العثمانيون المسلمون على حساب القوى الأوربية المسيحية على
إعتبار أنه نصر للإسلام والمسلمين فعندما إستولى العثمانيون على
القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) أمر السلطان إينال بتزيين القاهرة ودقت
البشائر بالقلعة.

وكان العثمانيون يدركون هذه الحقيقة فكانوا كلما أحرزوا نصراً
يرسلون بعض الأسرى الأوربيين إلى القاهرة ليشاركهم إخوانهم المسلمون فى
مصر فرحة النصر. وكان سلاطين المماليك يرسلون التهانى للعثمانيين بهذا
النصر، وكذلك التهانى كلما تولى سلطان جديد.

ولكن فى عهد السلطان المملوكى خشقدم سنة (٨٦٥هـ/١٤٦١م) بدأت العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين تتعكر وذلك بسبب إكتفاء العثمانيون بما حققوه من تقدم فى وسط أوربا حتى وصلوا إلى مدينة فينا، وتوجيه إهتمامهم صوب السيطرة على ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من إمارات فى أسيا الصغرى وخاصة إمارتى قرمان ودلفادر المشمولتين بحماية سلطنة المماليك وإعتمدت عليهما هذه السلطنة فى شئون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال الشام والعراق، فعندما توفى أميراً قرمان ودلفادر سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٥م) قامت الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير من قامت دولة المماليك بمناصرتهم وتحسنت العلاقات بين المماليك والعثمانيين بعد عهد خشقدم ولكنه كان تحسناً ظاهرياً بسبب أطماع العثمانيين ومخاوف المماليك، فكان كل طرف يأوى الأمراء الخارجيين على الطرف الأخر، فقد رحب العثمانيون ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام، ورحب السلطان قايتباى بالأمير جم أخو السلطان بايزيد الثانى، وحاول بايزيد أن يحرم سلطنة المماليك من أفرادها بحماية الحرمين مما يضىف عليها مكانة خاصة لا تتمتع بها دولة إسلامية أخرى، فطلب السماح له بالقيام ببضعة إصلاحات فى مكة ولكن قايتباى رفض طلبه، مما جعل بايزيد الثانى يتحرش بسلطنة المماليك على أنه مهما يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين فى ذلك الدور فإن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلاً جدياً خطيراً إلا فى عصر السلطان سليم الأول العثمانى من ناحية والسلطان قانصوه الغورى من ناحية أخرى، والواقع أن الصدام بين المماليك والعثمانيين كان أمراً طبيعياً بين أكبر قوتين تنزعمان العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى وإتخذتا الحرب والقتال أداة لسياستهما، فصار لابد لإحدى هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها وتستأثر بزعامة المسلمين فى تلك المنطقة.

وقد بدأ السلطان سليم الأول العثماني بمحاربة الشاه إسماعيل الصفوي شاه إيران، لأن الصفويون كان يعتبرون بالنسبة للعثمانيين خطراً جديداً يهددهم، وكان الصفويون كشيعة متحمسين يثيرون نقمة العثمانيين، فقد كان يسكن مقاطعات الأناضول الشرقية، الواقعة ضمن الدولة العثمانية كثير من القبائل التركمانية، من شيعة وغيرها، وأخذت هذه القبائل تتجاوب مع دعوة الشاه إسماعيل الشيعية، مما كان بمثابة إنذار للعثمانيين بالخطر الذي يمثله الشاه إسماعيل.

فانتصر العثمانيون على الصفويين سنة (١٥١٤م/١٥١٤هـ) في موقعة جالديران واستولى السلطان سليم على الجزيرة والموصل وغيرها من الجهات ذات الروابط القديمة بسلطنة مصر منذ أيام الأيوبيين، مما أدى إلى تهيئة مزيد من الفرص لوقوع الصدام بين العثمانيين والمماليك، ثم كان أن قضى السلطان سليم سنة (١٥١٥م/١٥١٥هـ) على إمارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك، مما جعل الصدام بين الدولتين أمراً لا مفر منه .

ولم يستطع السلطان الغوري أن يظل ساكناً إزاء حوادث الإستقزاز العثماني من ناحية، والأخبار التي أخذت تترامى إلى مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على أراضي الدولة المماليكية من ناحية أخرى، ولكن مماليكه لم يتدروا هذا الخطر ولم يدر بخلد أحدهم مدى ما سوف ينتهي إليه، وظلوا كأسلافهم لاهم لهم إلا الحصول على المال والنفقة حتى ضاق بهم الغوري، فهجر القلعة وأقام بجزيرة الروضة ثلاثة أيام، وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغوري فاسترضى المماليك الثائرين بسبب تأخر رواتبهم، ثم أخذ يستعد للمعركة القادمة فاستدعى العسكر إلى ديوان الجيش وأعد آلات الحرب، وأسرع بتحسين قلعة قاييتاي في الإسكندرية. وفي ذلك الجو المشحون بروح الحرب إذا برسالة تصل من خاير بك نائب حلب تظمنن

السلطان الغورى وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بصدد الاستعدادات العثمانية، لأن تلك الإستعدادات إنما قصد بها حرب الشاه إسماعيل الصفوى. وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى إنها ستكشف عن خيانة خيربك هذا، إذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير في تسهيل مهمة العثمانيين في إحتلال الشام، كما إتصل خيربك بالأمير سيباي نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغورى، فكتب سيباي إلى الغورى يخبره أن الأحوال الإقتصادية في الشام سيئة بحيث لا تحتمل البلاد مجيء السلطان ومعه جيشه الغفير، لاسيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود "وإن كان العدو متحرك فنحن له كفايه".

ولم يندفع الغورى بتلك الرسالة وإنما عقد مجلساً حريباً لبحث الأمر مع أمرائه، وإستقر رأى الجميع على ضرورة المبادرة بإرسال حملة كبيرة إلى حلب إستعداداً للطوارئ، على أن يكون السلطان الغورى نفسه على رأس تلك الحملة. وهكذا لم ينتصف شهر مايو سنة ١٥١٦م/٩٢٢هـ إلا وكان الغورى قد تاهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام. وفي الريدانية التي حشد فيها الجند والأمرأه إستعداداً للخروج إلى الشام، وصلت إلى الغور: رسالة ثانية من خيربك تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثماني. كلها ألفاظ معسولة لمحاولة بث الطمأنينة في قلبه وصرفه عن الإستعداد للحرب، وفيها يخاطب السلطان سليم الغورى قائلاً "أنت والدى وأسـ" لك الدعاء".

ومرة أخرى لم يندخ الغورى بتلك الحيلة، فخرج على رأس جيشه إلى الشام بعد أن أناب عنه في السلطنة أثناء غيبته الأمير طومانباى وعند غرة سمع السلطان الغورى لأول مرة بخيانة خايربك، ولكنه رفض تصديق التهمة، ومضى في طريقه حتى وصل حلب في جمادى الأولى سنة (٩٢٢هـ/ يوليو ١٥١٦م) وفي حلب وصل رسولان من قبل السلطان سليم يعرضان الصلح وذكرا للغورى أن السلطان سليم لا ينظر له إلا نظرتة للوالد، وعمل سليم على تدعيم حيلته بأن طلب على يد هؤلاء الرسل سكرأ وحلوى، فأرسل له الغورى - كما يقول ابن إياس - "مائة قنطار سكر وحلوى في علب كبار - ورغم أن السلطان الغورى كان يدرك خديعة سليم له، كسباً للوقت حتى تصل إمداداته بقيادة وزيره الصدر الأعظم ستان باشا وأن كل هذا حيل وخداع حتى يبطل همه السلطان عن القتال ويثنى عزمه عن ذلك.

لذلك استدعى وهو بطلب أمراء جميعا - ومن جملتهم خايربك - وحلفهم على القرآن - في حضرة الخليفة العباسى على ألا يخونوه ولا يغدرون به، فحلفوا جميعاً واستعرضهم بعد ذلك في الميدان وهم فى كامل لباسهم وسلاحهم وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة كما هى العادة، وهذا معناه القسم العظيم .

وإذا كان الغورى قد رد على رسالة سليم بالحسنى، فإن السلطان العثماني أساء إستقبال رسول الغورى مغلباى فقبض عليه وكاد يشنقه لولا شفاعة بعض وزراء سليم، وعلم الأمير كرتباى الذى كان فى طريقه إلى سليم بما وقع لمغلباى فعاد مسرعاً إلى الغورى وأعلمه بما حدث، كما أنهى إليه أن العثمانيين قد تحركوا فعلاً ووصلت أوائل جيوشهم إلى عنتاب وإستولت على ملطية وكركر وغيرها من القلاع، فحلف الغورى أمراءه للمرة الثانية، ولم يطلق الأمير سيباى نائب الشام أن يرى خايربك والمعركة توشك أن تدور

رحابها بعد أن وقف على خيانتها، فهجم عليه وأمسك بتلابيبه صائحاً: "يا مولانا السلطان! إذا أردت أن تتصبر على عدوك بإذن الله، فأقتل هذا الغادر الخائن في الحال". ولكن تدخل الخائن الثاني جان بردى الغزالي نائب حماء، وأقنع السلطان بعدم الإصغاء لهذه التهم حتى لا يفت ذلك في عضد مسائر الأمراء، وهكذا ترك خايربك حراً طليقاً ليتم الدور الشائن الذي بدأه. وفي ذلك الوقت وصل مغلياي وأخير السلطان بما حدث له وبما قاله السلطان سليم له "قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق".

وعند دابق إحدى قرى بلدة عزاز، دارت المعركة - فحارب المماليك بشجاعة نادرة أفاضت في وصفها كتب التاريخ، حتى لقد فكر السلطان سليم في التقهقر لإعادة تنظيم صفوفه. وفي تلك الساعة الحرجة ظير خايربك ليتم دورة اثم، فأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف الجند المقاتلين، فبهر حيناً يشيع أن السلطان الغوري يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى، وحيناً آخر يشيع خايربك أن السلطان الغوري سقط قتيلاً في المعركة ويتراجع هو وجنوده مولين الأدبار ليحذو حذوهم بقية الجيش المماليكي.

وهكذا تفرقت صفوف المماليك وإنهارت مقاومتهم، وعبثاً حاول الغوري أن يستحث جيشه - بعد فوات الأوان - على الثبات، فصاح في جنده المديرين "يا أغوات الشجاعة صبر ساعة"، وكان أن تقدم الأمير تمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ العلم السلطاني وطواه خشية أن يقع في يد الأعداء، ثم نظر إلى السلطان الغوري وقال له "يا مولانا السلطان! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فإنج بنفسك واهرب إلى حلب!" وكان بهذه الصدمة وقعها في قلب الشيخ فلم يحتمل قسوة الموقف فاصيب بفالج وطلب بعض الماء ليشرب، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً على الأرض. وقيل أن السلطان

والصحيح أنه لم يعلم حاله وقد حكم ١٥ سنة وتسعة أشهر و ٢٥ يوماً وهكذا انتهت موقعة مرج دابق، الموقعة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين والتي حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية.

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب ومنها إلى دمشق حيث تجمعت هذه الفلول ثم خرجوا إلى مصر فوصلوها أرسالاً متقطعة، وتعرضوا خلال الطريق لأذى العربان، وكان دخولهم القاهرة في رمضان سنة (٩٢٢هـ / أكتوبر ١٥١٦م) وقد وصلت إلى القاهرة أنباء هزيمة مرج دابق قبل وصول الفلول الهاربة بنحو شهر وشمل الناس الفرع والجزع، خاصة وأن أنباء الهزيمة وصلت مصحوبة بأنباء زحف السلطان سليم العثماني على بلاد الشام في طريقه إلى مصر.

الأشرف طومان باي : (٩٢٢ - ٩٢٣هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧م)

حين تحقق طومان باي من مقتل السلطان قانصوه الغوري، أمر بالدعوة على المتأثرين بإسم الخليفة المتوكل، وقبض على بعض التجار في خان الخليلي ثبت لديه أنهم كاتبوا السلطان سليم بما يجري في مصر، وكانوا وكرأ لإخفاء جواسيس العثمانيين، وكان الموقف في القاهرة يتطلب إجراء عاجلاً سريعاً فاتفقت كلمة الأمراء على إختيار طومان باي للسلطنة فأختير سلطاناً سنة (٩٢٢هـ / أكتوبر سنة ١٥١٦م) وتلقب بلقب الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك في مصر والشام.

ومن الواضح أن منصب السلطنة في تلك الظروف كان غير مرغوب فيه، مما جعل كبار الأمراء يذهبون فيه ، هذا إلى أن طومان باي وهو أحد أمراء المماليك - كان يعرف ما إعتري أخلاق المماليك في تلك الدور من تدهور وفساد، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضر مصحفاً شريفاً وحلف

الأمراء "بأنهم إذا سلطوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله".

وأخذ طومان باي يستعد لحرب العثمانيين، وكانت خطته تقضى ببقاء الأعداء بالشام قبل وصولهم إلى الحدود المصرية، وفي تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جنود المماليك الموقف، فأشترطوا على طومان باي للخروج والحرب مصاريف باهظة في الوقت الذي استولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فعلاً غزة في طريقهم إلى مصر، أرسل طومان باي حملة بقيادة جان بردى الغزالي الذي عينه نائباً للشام في ديسمبر سنة ١٥١٦م، غير أنه عندما وصل إلى غزة كان العثمانيون قد استولوا عليها، فعرج عنها واتجه شمالاً حتى يسبك دوره في الخيانة.

وأخيراً استقر عزم طومان باي على الخروج بنفسه وجمع من استطاع جمعه "من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة وكل من كان مختف على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله" وخرج إلى الريديقية في طريقه لمقاتلة العثمانيين.

وفي أثناء ذلك وصلت في ذي القعدة سنة (٩٢٢هـ / يناير ١٥١٧م) رسالة من قبل السلطان سليم العثماني يعيره فيها بأصله المماليكي ويعرض فيها الصلح على السلطان طومان باي على شرط أن يعترف طومان باي بتبعيته للسلطان سليم. هذا في الوقت الذي دأب فيه خيربك الخائن على تسهيل مهمة العثمانيين، فواصل إرسال الكتب إلى أمراء مصر يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطنب في محاسنه وعدله في الرعية.

أراد طومان باي الخروج لملاقاة العثمانيين في صحراء مصر الشرقية وهم في طريقهم إلى القاهرة متعبون من مشقة الطريق، ولكن أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه اعتقاداً منهم أن خنادقهم في الريديقية ستعصمهم من

الهزيمة فإضطر طومان باي إلى إتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثماني للبلاد ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية في صبيحة (٢٣ يناير سنة ١٥١٧م) حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الإصطدام بالمماليك، فإضطر طومان باي إلى اللحاق بهم والتحم الفريقان في معركة حامية إشتراك فيها السلطان طومان باي وسليم، واستطاع طومان باي أن يذبح الصدر الأعظم سنان باشا بيده، وظن أنه قتل سليماً، واستمر طومان باي يقاوم في شجاعة نادرة، حتى ألقى نفسه وحيداً في نهاية الأمر، فإضطر إلى الفرار والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية، لأن الخائن جان بردى الغزالي قد اتصل بالخائن الأمير خايربك وأعلمه بخطة السلطان طومان باي في الدفاع، وهذا ما جعل العثمانيين يتجنبون في زحفهم نحو القاهرة التحصينات التي أقيمت بالريدانية .

وفي اليوم التالي لموقعة الريدانية وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧م دخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة دون أن تلقى مقاومة.

طومان باي الذي فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح في سهولة، يستمر يقاوم المعتدين، وإشتبك معهم في معركة الضليبية، وإتخذ من مسجد شيخو مركزاً لعملياته الحربية وحفر عدة خنادق، غير أن الجراكسة تقاعدوا حين إشتد القتال فصاروا يختفون في الزوايا والمنازل والإسطبلات خوفاً من سطوة العثمانيين، وتمكن العثمانيون من القاهرة وأحرقوا بعض أجزاء مسجد شيخو فإضطر طومان باي إلى الفرار إلى البهنسا بالصعيد حيث فكر في الصلح مع سليم ، فأرسل إليه بعثة مع قاضي البهنسا يعرض عليه أن يكون نائباً عنه في حكم مصر ويجعل الخطبة والسكة بإسمه ويجعل إليه خراج البلاد حسبما يقع عليه الإتفاق؛ بشرط أن يرسل سليم وجنوده عن مصر إلى الصالحية وإن كنت ما ترضى بذلك، إخراج ولائني في بر الجيزة

ويعطى الله النصر لمن يشاء ... وما أنا بعاجز عن قتالك ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين".

وافق سليم على الصلح بحسب الشروط التي ذكرها طومان باى، وكتب صورة معاهدة إليه ووقع عليها على أن يقوم الخليفة المتوكل والقضاء بحملها إلى طومان باى ولكن الخليفة إعتذر وأتاب عنه دوااره الخاص برديك، فخرج الوفد ومعه مندوب عثمانى، على أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الجراكسة وقتلوا المندوب العثماني وهرب برديك .

حنق سليم وتحقق أن طومان باى لا يريد إلا الحرب وأمر بضرب أعناق الجراكسة الذين سجنهم. وعند الجيزة دارت إشتباكات بين طومان باى وبين العثمانيين عبر النيل، ثم التقى الفريقان فى معركة عنيفة عند وردان فى أول إبريل سنة ١٥١٧م استمرت يومين، وقد فاقت الريدانية فى العنف والإستماتة وإنتهت أيضاً بانتصار العثمانيين وهرب طومان باى وتوجه سليم بعد ذلك إلى الأهرام لمشاهدتها.

وكان من أسباب هزيمة طومان باى تفرق رجاله من الجراكسة وإنفضاضهم عنه، فضلا عن خيانة البدو والأعراب الذين دأبوا على مهاجمته مما أوقعه بين نارين. وأخيراً وجد طومان باى نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة، فجمع من حوله من أفراد المماليك وقال لهم "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !! إعلموا يا أغوات أن دولتنا قد زالت وأجالنا قد مالت، وما بقى لنا فى هذه الديار نصيب !!" وتوجه طومان باى إلى الغربية وقال لمن معه "لابقى لنا رأى إلا أن أذهب إلى حسن بن مرعى وابن عمه شكرى شيوخ عرب محارب، فإنى قد وليتهم عليهم، وأطلقت حسن بن مرعى من الحبس بعد أن كان المرحوم السلطان الغورى كتب على قيده (مخلد) وقد أطلقته لما أن صار الأمر لى، وأخذت عليه العهود والمواثيق والأيمان المغلظة أن يكون

معى ظاهراً وباطناً، ويقوم معى بالقلب والقالب، إذا إحتاج الأمر لذلك.
ولكن حسن بن مرعى نسى ما كان لطومان باى من فضل سابق عليه
فتنكر له وسلمه للعثمانيين طمعاً فى المكافأة، دخل طومان باى على سليم وهو
فى زى عرب الهوارية، وعلى رأسه زنط وعليه شاش، وعلى يده ملوطة -
قباء - بأكامم طوال، فقام له سليم وأخذ يتأمله معجباً بشجاعته وفروسيته
وتجمع المصادر على شجاعة طومان باى عندما وقف بين يدى السلطان سليم
مقيداً بالحديد، ورغم أن سليم أخذ يوبخه ويقرعه على مقاومته وأفعاله، لم يفقد
طومان باى رباطة جأشه وقال "أنه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب وأن
الله تعالى أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين" وقال له "الأنفس التى تربت
فى العز لا تقبل الذل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب لا أنتم أفرس منا
ولا أشجع منا، وليس فى عسكريك من يقايسنى فى حومة الميدان".

ويقال أن السلطان سليم أعجب بشجاعة طومان باى وقال "والله مثل
هذا الرجل لا يقتل" وأوشك أن يبقى على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو
يصطحبه معه إلى القسطنطينية، لولا تحريض الخائن خايربك وجانيردى
الغزالي للسلطان سليم ، مما جعله يأمر بإعدام طومان باى وسبق طومان باى
إلى باب زويلة حيث شنق فى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول سنة (٩٢٣هـ/ ٢٣
أبريل سنة ١٥١٧م).

وقد وصف المؤرخ المعاصر ابن إياس اللحظات الأخيرة من حياة
طومان باى وصفاً رائعاً فقال أنه أخرج من سجنه فى إنبابه وسار وسط
حرس عدته ٤٠٠ جندي حتى وصل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة وأخذ
يسلم على الناس على طول الطريق وهو لا يدري ما يصنع به، فلما أتى إلى
باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال، ووقفت حوله العثمانيين
بالسيف، فلما تحقق أنه سيشنق، وقف على أقدامه ودعا الملاء الذى اجتمع

حواله أن يقرأ له الفاتحة ثلاث مرات ويعسط يده إلى السماء وقرأ الفاتحة عن نفسه في صوت مسموع ، وقرأ الناس معه ، ثم إنتفت إلى المشاعلى وقال له: "اعمل شغلك" فلما وضعوا الخية في رقبته ورفعوا الحبل فإنقطع به فسقط على باب زويلة، وقيل إنقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس وعلى رأسه شاياه جوخ أحمر وفوقها ملوطة بيضاء بأكامم كبار، وفي رجله لباس جوخ أزرق فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل، سنة نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعاً وبطلاً، وظلت جثة طومان باى معلقة ثلاثة أيام ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان الغورى.

هذا هو حكم التاريخ على بطل من أبطاله، هو آخر سلاطين المماليك فى مصر والشام، وبذلك إنتهت سلطنة المماليك لتظل مصر والشام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية.

تاريخ الدولة العثمانية

نشأة الدولة العثمانية :

أجمعت المصادر التركية والعربية والغربية أن الدولة العثمانية أسستها قبيلة تركمانية من الغز كانوا يعيشون عند بداية القرن الثالث عشر فى خراسان، ولكنهم اضطروا إلى تركها والاتجاه غرباً حوالى سنة ١٢٢٠م تحت ضغط المغول ، فإخترقوا أذربيجان وأرمينيا ووصلوا آسيا الصغرى فى الوقت الذى كان علاء الدين الأول (١٢١٩ - ١٢٣٥) يحكم سلطنة الروم (قونية)، وكان يقودها شخص يسمى سليمان ، وهو والد أرطغرل وجد عثمان الذى سميت الدولة بالنسبة إليه. ويذكر بعض المؤرخين أن لعثمان هذا أثنان وخمسون جداً ينتهون بنوح ، ومنهم آوغوزخان ، الذى عرف قومه بالأغز أو الغز .

ونسمع عن هولاء العثمانيين لأول مرة عندما قام زعيمهم أرطغرل بمساعدة سلطنة قونية ضد مهاجميها من المغول، هذا وإن كان من غير الثابت فى التاريخ إن كان العثمانيين قد استقروا فى آسيا الصغرى على أساس التبعية لسلطنة قونية أو مستقلين عنها .

ومهما كان الأمر فقد ساعد أرطغرل علاء الدين، ورد السلطان السلجوقى على هذه المساعدة بمنح العثمانيين هبة سخية من الأراضى فى آسيا الصغرى وعندما انهارت سلطنة قونية بوفاة سلطانها علاء الدين كيقباز الثالث سنة ١٣٠٧م كان عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦م) ابن ارطغرل أحد زعماء القبائل التركية الكثيرة التى استقلت فى آسيا الصغرى. وقد أخذ العثمانيون منذ ذلك الوقت يتوسعون فى سرعة تسترعى الإنتباه ساعد على

ذلك وقوعها قرب البيزنطيين جعل الغزاة الذين لم يجدوا عملاً فى الإمارات الضعيفة الأخرى يهرعون إليها ويزيدون فى قوتها .

كما أن وقوعها على الطرق التجارية الرئيسية التى تربط القسطنطينية بقونية وداخل العالم العربى الإسلامى سهل مجئ العلماء والعناصر المنظمة كاللجار والصناع، من داخل العالم الإسلامى إليها، وحلت تبعاً لذلك مشكلة وجود موارد للدولة، وكان لكثرة ورود العلماء أن نشطت المدارس الإسلامية، وطبقوا تعاليم الدين فى نظم الإمارة، وأخذوا الجزية.

وكان التجار والصناع منظمين فى ما يشبه النقابات، تسمى الأخية من أخ وصفها الرحالة ابن بطوطة حين زيارته لهم فى الأناضول : "يتعاون فيها أصحاب كل مهنة، وتتشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم واتخذت هذه الظاهرة "الرابطة" مظهراً عسكرياً واستفادت إمارة عثمان من هذه المميزات ومن كثرة العنصر المحارب فيها على صغرها، فاستولوا سنة ١٣٢٦م على بروسة واتخذوها عاصمة لدولتهم كما دفن فيها عثمان نفسه مؤسس الأسرة التى نسبت إليه، مما جعل لهذه المدينة مكانة خاصة عند العثمانيين .

ثم خلف عثمان - أكبر أبناءه - أورخان ٣٣ سنة (١٣٢٦م - ١٣٥٩م) الذى هاجم نيقية (إسناك الحالية) ١٣٢٩م وهى المدينة التى كانت بمثابة العاصمة الثانية للإمبراطورية البيزنطية وقد أسرع الإمبراطور - البيزنطى - أندرونيق الثالث باليولوجس (١٣٢٨ - ١٣٤١م) إلى الدفاع عن نيقية ، ولكن الهزيمة حلت به سنة ١٣٢٩م فاستولى العثمانيون على المدينة فى العام التالى .

وهكذا استغل أورخان ضعف الإمبراطورية البيزنطية وأخذ يتوسع توسعاً سريعاً فى آسيا الصغرى بحيث لم يبق للإمبراطورية سوى شريط ساحلى ضيق على البسفور. وهنا نلاحظ أن توسع العثمانيين فى آسيا

الصغرى لم يكن على حساب الدولة البيزنطية وحدها، وإنما كان أيضاً على حساب بقية الإمارات التركية الصغرى الضعيفة التى قامت على أنقاض سلطنة قونية .

وبعد ذلك قضى أورخان السنوات العشرين التالية فى تنظيم دولته تنظيمياً جعل هذه السنوات أعظم مرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية فبدلاً من محاربة الجيران بساحل آسيا الصغرى، أو مهاجمة الأقاليم بشبه جزيرة البلقان، انصرفت حكمة أورخان، وانصرفت همه المحيطين به، إلى بناء المساجد والمدارس والمشافى والفنادق للتجار واختار الزى القومى للرأس (وهى طاقية من جوخ أبيض) فضلاً عن تنظيم الجيش، وهو أهم هذه الأمور جيمعاً. ولبهذه المرحلة ترجع الفيالق العسكرية التى جعلت الأتراك العثمانيين مصدر الرعب فى شرق أوروبا لعدة قرون، وهى فيالق الإيكنجية أى (فرق المناوشة الخفيفة)، وفيالق الفرسان الإقطاعيين، وفيالق الحرس السلطاني، وفيالق المشاة ذات الشهرة الهائلة وهى الينى شرية أى (الجنود الجدد)، وهم جميعاً أطفال مسيحيون انتزعهم العثمانيون انتزاعاً من مختلف البلاد التى خضعت لحكمهم ثم علموهم الإسلام فى مدارس رتبوا مناهجها لتمحو كل أثر من آثار أصولهم وعواطفهم المسيحية الأولى، وتجعل منهم أدوات طوع مشيئة الدولة والسيلاطين وخصص العثمانيون بعض الينى شرية لوظائف الغلمان بالقصر السلطاني وأولئك غدوا أتعس أخوانهم حظاً، على حين عينت الدولة بعضاً آخر منهم لوظائف الحكم والإدارة المدنية، أما الجزء الأكبر من الينى شرية فأضحى فيالق المشاه، وهى التى بلغ من شجاعتها وتفانيها فى الحروب أن وجود فرقة واحدة منها، فى أى جيش عثمانى، كان ضميناً باستماتة هذا الجيش كله فى ميدان القتال، ويتضح من هذا أن الينى شرية نشئوا أرقاء - أو أشباه أرقاء - متجردين من جميع المؤثرات السلمية

الإنسانية التي تهذب الطباع، محرومين من جميع الصفات المكتسبة التي تفتح العقول بعيدين عن جميع المثل العليا التي تحرك الإدارة، ومرجع ذلك كله صرامة النظام الذي نشأ فيه الفرد منهم، وتقيده به تقيداً محاصياً ماضياً محراً كان يكون تاماً، فجعل أفق مستقبله محدوداً بالحروب، ذلك أن الإنى شرية تعلم أن ينسى أباه وأمه وأخوته وأقاربه، وأن يعيش دون أمل فى زوج وبنات وبنين، فالتكنة العسكرية مأواه، والحرب مهنته، والقرآن عقيدته، وما عليه إلا أن يمضى فى قتال أعداء السلطان أعداء الله بروح رهبانية ملوها حماساً متأججة وتعصب ركيك .

أما الاقتراح بتكوين الإنى شرية من أطفال مسيحيين - تجمعهم الدولة جزية من مختلف البلاد الخاضعة لحكمها - فيقال أن مصدره هايبيل الأسود وزير أورخان، ومن الواضح أنه لولا هذه الجزية ما استطاعت الدولة العثمانية أن تجد مورداً دائماً دائماً لتجديد هذه الفيالق فى نظام .

ويستخلص من هذا أن الإمبراطورية قامت وظلت قائمة لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب، وأولئك لم يكونوا كثرة فى الجيوش العثمانية، بل كذلك بفضل رجال معظمهم صقالية الأصل، ولدتهم أمهاتهم مسيحيين، ثم جرى بهم إلى مدارس الإنى شرية، حيث طبخوا بطابع الخضوع العسكرى والعقيدة الإسلامية. وليس فى استطاعة باحث أن ينكر أن أعظم رجال الإمبراطورية العثمانية جاؤا إلى هذه المدارس، بعد إنتزاعهم من أهلهم المسيحيين .

وبعد وفاة أندرونيق الثالث سنة ١٣٤١م حدثت حرب أهلية داخل الإمبراطورية البيزنطية، لم يتردد خلالها المتنازعون من الإستعانة بالعثمانيين، وفى سنة ١٣٥٤م كان حنا الخامس باليولوجس قد تخلص من منافسة كنتاكيوزنيوس وأصبح لا ينازعه منازع فى حكم الإمبراطورية البيزنطية (١٣٤١ - ١٣٩١م) .

استغل العثمانيون الفرصة وزحف سليمان الابن الأكبر للسلطان أورخان على موقع شبه جزيرة جاليبولى واستولى عليه وحصنه بحامية تركية تسهر على الحفاظ عليه ، وكانت جاليبولى أول أرض أوربية يستولى عليها العثمانيون سنة ١٣٥٤ م .

توفى سليمان سنة ١٣٥٨م قبل وفاة والده أورخان بعام واحد سنة ١٣٥٩ وآل العرش العثماني للسلطان مراد الأول : الذى عبر الدردنيل إلى شبه جزيرة جاليبولى واستولى على سالونيك وأدرنة سنة ١٣٦١م، وهما أكبر مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية .

أن هذا التوسع التركى على حساب الأراضى والمصالح البيزنطية لا يعود إلى مقدرة العثمانيين بقدر ما يرجع إلى تمزق البيزنطيين وتآمر حكامهم الواحد ضد الآخر إلى حد تشجيعهم للقوى المعادية لهم على غزو بعض الأراضى البيزنطية .

على أن وصول العثمانيين إلى الحدود الشمالية للإمبراطورية البيزنطية فى البلقان، جرهم إلى الإشتباك فى حروب ضد بلغاريا والبوسنة والصرب، وهنا أيضاً صادف العثمانيون توفيقاً كبيراً حتى نجحوا فى إخضاع أجزاء واسعة من هذه البلاد وأجبروا أهلها على دفع الجزية وفى هذه الأثناء لم يجد الإمبراطور حنا الخامس وسيلة لحماية ما تبقى من دولته سوى الإستجداد بالغرب الأوروبى بالبابا أوربان الخامس ليحىى الحماسة الصليبية، ولكن دون جدوى مما أدى إلى دخول الإمبراطور حنا الخامس فى تبعية السلطان العثماني على أن يدفع له جزية سنوية، كما سمح له بإحتلال سالونيك .

أما الممالك السلاوية فى شمال القسطنطينية وغربها فقد أظهرت عناداً فى مقاومة العثمانيين أكثر مما فعل البيزنطيون أنفسهم، حتى كونت فيما بينها حلفاً دفاعياً سنة ١٣٨٧م تحت زعامة ملك البوسنة، وقد نجح هذا الحلف فى

أول الأمر فى وقف تقدم العثمانيين، ولكن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بقوى الحلف فى كوسوفا Kossova سنة ١٣٨٩م، وخر ملك الصرب نفسه قتيلاً فى المعركة فى حين قتل مراد هو الآخر بيد أحد نبلاء الصرب بعد الموقعة .

وسرعان ما اتضح أن مقتل مراد الأول لم يؤثر فى الموقف بأى حال من الأحوال، لأن ابنه بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢م) خلفه فى الحكم فأجبر الصرب على دفع الجزية، كما أخضع لآشيا وبلغاريا. وبذلك امتدت الأملاك العثمانية حتى الدانوب .

وعندما حاول الأوربيون عمل حلف جديد من بعض الأمراء الفرنسيين وملك هنغاريا ضد العثمانيين أنزل بهم بايزيد الأول هزيمة ساحقة فى موقعة نيقوبوليس فى بلغاريا سنة ١٣٩٦م .

ثم استغل السلطان بايزيد فرصة الخلافات الداخلية فى القسطنطينية سنة ١٣٩٧م ليعاقب الإمبراطور مانويل الثانى بعد حنا الخامس بالبولوجاس لإتضامه إلى الحلف الأوربي السابق فأخضع أبيروس وتساليا، وقام بايزيد بحصار القسطنطينية، وكان من الممكن أن ينجح فى فتحها عندئذ لو لم يقطع عليه تيمورلنك مشروعه .

ذلك أن تيمورلنك اجتاح الجزء الأكبر من آسيا الصغرى على رأس جموع غفيرة من المغول، الأمر الذى اضطر بايزيد إلى ترك حصار القسطنطينية والعودة مسرعاً إلى آسيا الصغرى، حيث أنزل به تيمورلنك هزيمة ساحقة فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢م، حيث وقع الجيش العثمانى، ذو الانتصارات الكثيرة المتتالية، فى فخ هائل من الخيالة المغولية الساحقة العدد. وأبىد هذا الجيش العثمانى عن آخره، ووقع بايزيد نفسه أسيراً فى يد تيمورلنك حيث مات فى الأمر فى سمرقند فى العام التالى .

عوامل هزيمة بايزيد فى انقرة :

- أرق نفسه وجيشه تحت شمس يولية المحرقة ليجعل المعركة أمام انقرة بل كان يجب أن يترك تيمور يستنفذ بعض قواه فى سقوط انقرة نفسها ثم يقابله بجيشه وراء انقرة .

- وضع بايزيد مقدمة جيشه من عناصر التتر .

- قيامه هو بالهجوم بدلاً من الانتظار حتى يقوم تيمور نفسه بالهجوم (العثمانيون يجيدون الدفاع عن الهجوم مثال ذلك موقعة نيكو بولس) اليمينه كانت تحت قيادة استيفن لازار حليف مخلص لبيازيد (وحدات أوربييه) الميسرة كانت تحت قيادة سليمان شلى أكبر أبناء بيازيد (الوحدات الأناضولية القلب بيازيد نفسه + الإنكشاريه وابناؤه مصطفى عيسى موسى المؤخره بقيادة ابنه محمد) .

ومن الواضح أن هزيمة أنقرة جاءت ضربة قاسية نزلت بالدولة العثمانية الفتية، فتمكن الإمبراطور مانويل الثانى من العودة إلى عاصمته واسترداد سالونيكيا وبعض أجزاء تسالبا وبيروس، كما استطاعت القسطنطينية أن تعيش خمسين سنة أخرى بعد أن أوشكت على السقوط فى أيدي العثمانيين. أما أمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى فقد تحرروا من السيطرة العثمانية وعادوا إلى استقلالهم السابق هذا فى الوقت الذى اشتد الصراع بين أبناء بايزيد الأربعة لعشر سنوات حول وراثة منصب السلطنة .

على أن الظروف سرعان ما ساعدت الدولة العثمانية على استعادة مكانتها إذ اضطر تيمورلنك - بحكم الأحداث الدائرة فى جوف الدولة المغولية إلى العودة شرقاً نحو الصين سنة ١٤٠٥م، كما نجح السلطان محمد الأول العثمانى (١٤١٣ - ١٤٢١م) فى توحيد أملاك أبيه سنة ١٤١٣، وعقد

لم يسع الإمبراطور البيزنطي (ماتيويل) وغيره من الأتباع الأوربيين سوى تقديم فروض الولاء مرة أخرى للسلطان العثماني .

وعندما توفي محمد الأول خلفه ابنه السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١م) وعندئذ تشجع الإمبراطور ماتيويل الثاني بالبولوجس وأخذ يساعد أحد أبناء بايزيد ضد السلطان الجديد، ولكن مراد الثاني نجح في القضاء على هذا المنافس ومن ثم بدأ يفرض حصاراً جديداً على القسطنطينية سنة ١٤٢٢م لمعاينة الإمبراطورية على مسئلة، وعلى الرغم من المتاعب التي تعرض لها السلطان أثناء ذلك الحصار فإنه استطاع أن يواصل سياسة الضغط على القسطنطينية حتى اضطر الإمبراطور ماتيويل إلى زيادة الجزية التي يدفعها للعثمانيين، وتوفي مراد الثاني سنة ١٤٥١م فإعلى عرش السلطنة ابن محمد الثاني أو القاقح (١٤٥١ - ١٤٨١م) الذي احتفظ لنفسه في التاريخ بشرف فتح القسطنطينية .

وقد أحس الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر بخطر الاستمدكات التي يتكلمها العثمانيون للإستيلاء على مدينته، فحاول أن يستجدي معونة الغرب ولكن دون جدوى فسقطت القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، وهي المدينة التي ظلت بمثابة الدرع الواقى، أو الحصن الشرقى الذى ملأها حتى أوروبا من الأخطار السورية .

وفي نفس الوقت الذى تمكن فيه محمد القاقح من تحقيق كثير من الانتصارات في الميادين الأوروبية، توجه إلى تنفيذ لشطر آخر من مخططة لإقامة ودعم الكيان العثماني وذلك باستكمال السيطرة القائمة على الأناضول وضمان المنفذ المودية إليه فيستولى على طاريزندة وأخضع إمارة قره مان، فأمكنه بذلك أن يسيطر على أيوب بلاد سوس (كوكيا) ومناقص طوروس للحدود المشتركة بينه وبين أملاك الدولة المملوكية، أما هضاب الأناضول

الشرقية فكانت خاضعة لتركمان ذى الغادر، ولم تخضع للسيادة العثمانية. ولكنه لم تظل بمنجى عنها فسرعان ما أدرك العثمانيون خطورتها وتدخلوا في شئونها لإخضاعها بمحاولة تتصيب والى يدين بالولاء للدولة العثمانية، وأدت تلك السياسة إلى احتكاك خطير الشأن بين العثمانيين والمماليك .

أما بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢م) فإنه كان رجل سلام أكثر منه رجل حرب، ولم يتميز. عهده الطويل بمواقع حربية فاصلة سواء فى الميدانين الأوربى أو اسيوى، ففى أوربا سير بعض الحملات إلى الحدود المجرية ولم تكن ذات جدوى للإمبراطورية العثمانية، والإضافة الوحيدة فى أوربا للإمبراطورية العثمانية كانت عام ١٤٨٣ وهى ولاية الهرسك .

أما فى الميدان اسيوى فقد وقفت القوات المملوكية له بالمرصاد فى الأقاليم الواقعة بين أذنة وطوروس وهى الأقاليم التى حرصت الدولة المملوكية فى أن تكون لها السيادة الأسمية عليها كما حرصت على تدعيم قبضة حكامها من التركمان فى مقابل ولائهم واتباعهم السياسة التى تضمن مصلحة الدولة المملوكية .

وهكذا كانت الدولة العثمانية خلال حكمى محمد الفاتح وبايزيد الثانى قد تمكنت من تكوين امبراطورية اسيوية.أوزبية بعد أن أتمت سيطرتها على الإناضول والبلقان . وكانت تحتوى فى شقها الأوربى على أربعة وثلاثين سنجقية وفى شقها اسيوى على أربعة وعشرين.

وفتية لإتكماش بايزيد ثارت الإنكشارية عليه وأرغموه على النزول عن العرش لأصغر أولاده سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م) .

العلاقات العثمانية - المملوكية

بدأت العلاقات العثمانية المملوكية أتم ما تكون ضفء لا سيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها فى الدور الأول من حركتها التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية، وهو أمر قوبل بالإرياح الكبير من جانب المالك وغير الممالك من القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى، وزاد من ذلك الود الخطر المشترك الذى هذ الدولتين من ناحية تيمورلنك، وكانت الدولة العثمانية هى البادئة بالسعى لتأكيد هذه الصداقة أو إيجاد نوع من التحالف مع دولة الممالك لتعارض مصالح العثمانيين مع التيموريين فى السيطرة على آسيا والبداية التاريخية لهذا الإتصال هى سنة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) حين أرسل السلطان بايزيد الأول العثمانى سفاره إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين، كذلك طلب السلطان العثمانى من برقوق أن يبعث له "طبيباً حادقاً فى صنعة الطب وأدوية توفق مرضه" فقد كان بايزيد يشكو من ألم المفاصل (الروماتيزم) واستجاب برقوق وأرسل الطبيب شمس الدين بن صغير ومعه كمية كبيرة من الأدوية المطلوبة غير أن برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على مستقبل بلاده وقال "أنى لا أخاف من اللنك فإن كل أحد يساعدى عليه وإنما أخاف من ابن عثمان" .

ويبدو أن برقوق كان على حق فى اعتقاده هذا لأن بايزيد أغار سنة (٧٩٣هـ - ١٣٩١م) على قيصرية وقبض على صاحبها وهى وقتذاك فى حماية السلطان برقوق، غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م) جعل بايزيد يبعث بإعتذاره إلى برقوق كما أرسل له هدية ثينة وأخبره بأنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس .

وثمة مظهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر هو إرسال بايزيد سنة ٧٩٦هـ يطلب من الخليفة العباسي (المبتوكل على الله) بالقاهرة تفويضاً شرعياً بالسلطنة، غير أنه لا يوجد ما يشير إلى إجابة الخليفة العباسي في القاهر لهذا الطلب .

كما حرص السلطان العثماني بايزيد على إرسال سفاره ليبيشر المسلمين بانتصاره على الأوربيين في موقعة نيقوبوليس سنة (١٣٩٦م/٧٩٨هـ) كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتي أسير .

غير أن تلك العلاقات الودية لم تستمر طويلاً بسبب أطماع الجثمانيين إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء في مصر عقب وفاة السلطان برقوق وأغار في أواخر شوال سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارنطة. وارتكب السلطان بايزيد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما في نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة في تزعم العالم الإسلامي وحرمان دولة المماليك من هذه الزعامة كما دل على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسية بين البلدين في تلك الظروف العصبية التي أحاطت بالدولتين ، وصار لهذا الخطأ أثره في نفوس أمراء مصر، بدليل أنه حين زحف تيمورلنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية، أرسل بايزيد يطلب محالفة السلطان فرج بن برقوق لصد خطر تيمورلنك رفض الأمراء الذين بيدهم الأمر مخالفته، مذكرين إياه بإغارته على ملطية سنة ٨٠١هـ .

ولم يدر السلطان فرج والأمراء أنهم بإنتهاجهم سياسة العدا مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمنأها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة ، فزحف على دولة المماليك وأباد حلب وحمص

ودمشق فى أواخر سنة (١٤٠٠م/٨٠٣هـ) كما أوقع بالسلطان بايزيد وأسره فى واقعة أنقرة سنة ١٤٠٢م .

ولا شك فى أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكى والعثمانى أضاع هبة كل منهما فى نظر الآخر. وأخرت هاتان الكارتتان اللتان منيت بهما الدولتان الإصطدام بينهما حوالى قرن من الزمان تآرجحت فيه علاقة الدولتين بين الود والعداء .

غير أن بقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثمانى محمد بن يزيد ينتبه لخطورة الموقف بعد هزيمة والده، ووقوع شرق بلاده كلها تحت رحمة الملوك الذين حالفوا تيمورلنك، فأسرع بعقد صلح مع السلطان فرج أواخر سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) وبدأ الطرفان يتبادلان الهدايا فى كثير من المناسبات. على أن وفاة تيمورلنك (آخر سنة ٨٠٧هـ - يناير سنة ١٤٠٥م) وتفكك دولته أتاح فرصة لدولتى المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التى أنزلها بهما تيمورلنك. وكان ان تجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية، فأرسل السلطان مراد الثانى العثمانى سفاره إلى القاهرة (سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م) لتهنئة السلطان الأشرف برسباى بالسلطنة، ومعهما هدية، فأجاب برسباى بما يناسب مقام السلطنة المملوكية ورغم أن هدايا برسباى لم تصل إلى مراد الثانى لوقوعها فى أيدي قراصنة البحر الأبيض من القبارصة وغيرهم، فإن السلطان العثمانى أرسل يهنئ برسباى بعد ذلك بثلاثة أعوام بانتصاره النهائى فى قبرص وأسرى ملكها جاتوس لوزجان وشهدت هذه البعثة الإحتفالات التى أقيمت فى القاهرة ابتهاجاً بعودة الجيش المملوكى .

أثارت هذه الإحتفالات الغيرة فى قلب مراد الثانى العثمانى، لذلك أرسل فى عام (٨٣٢هـ/١٤٢٨م) خمسين أسيراً مسيحياً على أثر استيلائه على إحدى

الإمارات البلقانية، لكي يدل على أنه ليس دون برسباى فى إعلاء كلمة الإسلام. وزادت مظاهر الصداقة والود على عهد السلطان جقمق، ويمكن تلخيص العلاقة طوال عهد جقمق فى أنها كانت تبادلاً للهدايا والتهنئات وغير ذلك من مظاهر المجاملة. ورأى مراد أن يظهر ما يقوم به العثمانيون من خدمات للإسلام، فأرسل إلى جقمق هدية تضم خمسين أسيراً وخمسة من الجوارى وكمية كبيرة من الحرير، وذلك على أثر انتصاره على جيوش لادسلاس Ladislas ملك المجر وهنيادى Hanyadi نائب ترانسلفانيا فى واقعة فارنا عام ١٤٤٤م، كذلك كان الشأن زمن السلطان محمد الثانى ابن مراد الثانى، فظلت علاقات الود قائمة حتى وفاة جقمق عام ١٤٥٣م، وبعد أن أتم محمد الثانى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، أرسل إلى السلطان إينال يبشره بانتصاره فأحتفل إينال بالقاهرة ودقت البشائر بالقلعة، وأرسل يهنئ بالفتح ولم يلتفت لشكاية الأمير إبراهيم بن قرمان من تدخل السلطان العثمانى عام (١٤٥٤هـ/١٤٥٤م) فى إمارته نظراً لعلاقات الود القائمة بين الدولتين.

على أن هذه الصفحة فى تاريخ العلاقات المملوكية العثمانية لم تلبث أن طويت، وفتحت صفحة أخرى تتم عن اصطدام المصالح، وكان ذلك مما ليس منه بد، عاجلاً أو آجلاً، ولا سيما بعد أن تمت سيطرة العثمانيين على شبه جزيرة البلقان، إذ أخذت الدولة العثمانية تحول وجهتها شطر آسيا الصغرى لإستكمال سيادتها عليها، وجاءت نقطة البدء فى الإحتكاك بين العثمانيين والمماليك من الإماراتين التركمانيين: قرمان ودلغادر، وهما تحت الحماية المملوكية، تدخل محمد الفاتح فى شئون الإماراتين ونجح فى أن يتولى عرشهما أميران مواليان للعثمانيين، وذلك فى الوقت الذى فشل فيه مرشحا المماليك، كذلك أخذ السلطان العثمانى يرحب بالأمرء المماليك القارين من جهة السلطان خشقدم.

ثم كان عهد السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧ - ١٤٩٦م) وفيه ساد بعض الود بين الدولتين إلى وفاة محمد الفاتح العثماني عام ١٤٨١م. وذلك راجع إلى اتفاق المماليك والعثمانيين على عدم التدخل في شؤون الإماراتين وإلى إنشغال محمد الفاتح في توسيع إمبراطوريته .

غير أن هذه العلاقات الطيبة بدأت تضطرب على أثر تولية بايزيد الثاني العرش بعد أبيه (١٤٨١ - ١٥١٢م) ومطلع هذا الاضطراب نزاع جم مع أخيه بايزيد وإلتجأجم (بعد أن هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه) إلى قايتباي الذي احتقل به عام ٨٨٦هـ/١٤٨٢م) وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج مع أسرته مما أثار غضب السلطان بايزيد لم يكن في نية السلطان قايتباي أن يصطدم بالعثمانيين من أجل جم وإن رغب في إبقاء جم عنده بالقاهرة لكي يستأديه في مضايقة بايزيد. ولذا تدخل في الصلح بين جم وأخيه، ولما رفض بايزيد اقتراحات قايتباي خرج جم من القاهرة أوائل عام ١٤٨٢م على غير رغبة السلطان قايتباي لغزو آسيا الصغرى ، ولكنه فشل في مشروعه، فاضطر إلى الرحيل إلى جزيرة رودس حيث أضافه رئيس الإمبراطورية .

التقت بايزيد بعد ذلك إلى السلطنة المملوكية لتصفية حسابه معها على ما اقترفته في حق السلطان العثماني بمعاونة جم الذي كان أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى أول صراع مسلح بين مصر والعثمانيين، وهذا فضلاً عن رفض قايتباي طلب بايزيد بالسماح له بإصلاح بعض القنوات في مكة، وتهاونه في امر هدية مرسله من الهند إلى السلطان بايزيد، إذا استولى نائب جدة على هذه الهدية وأرسلها إلى قايتباي إنن تجمعت لدى السلطان بايزيد عوامل جعلته يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطنة المملوكية، فما كادت تصل إلى بايزيد شكاية علاء الدولة أمير دلغادر من تصرفات قايتباي، حتى

أمدته بقوة حربية عثمانية هاجم بها ملطية التابعة للمماليك، لم يقف السلطان قايتباي مكتوف اليدين، فأرسل حملة في عام (١٤٨٣هـ/١٤٨٣م) بقيادة تمرآز الشمسى انتصرت على علاء الدولة واحلّقه من العثمانيين، وهذه أول حرب وقعت بين المماليك والعثمانيين، ورغم انتصار قايتباي فإنه كان يؤثر السلام والصداقة وأرسل صحبة أمير سياسى داهية هو جاني بك حبيب أمير أخورثانى سنة (١٤٨٥هـ/١٤٨٥م) تقليد من الخليفة إلى بايزيد بأن يكون مقام السلطان على البلاد فى الدولة العثمانية (وما سيفتحه الله على يديه من البلاد الكفرية) كذلك حمل السفير المملوكى رسالة شخصية أخرى من الخليفة تتضمن حث بايزيد على تجنب الحروب، ولم ينس قايتباي أن يرسل مع قاصدة الهدية التى كانت مرسلة من قبل ملك الهند مع الإعتذار للسلطان عما وقع بشأنها وأعد حملة حربية لإخضاع الثائر علاء الدولة .

على أن السلطان بايزيد استقبل جاني بك أسوأ استقبال، ورفض المصافاة وأجاب بإرسال جيش لغزو بعض البلاد المملوكية فى الأطراف فلم ير قايتباي بدأ من إستئناف الحرب ضد العثمانيين، ومن هنا بدأت حملات القائد أزيك، وهى حملات ثلاث بدأت فى عام (١٤٨٥هـ/١٤٨٥م) وأسر فى الحملة الأولى عدداً كبيراً من العثمانيين وخرجت الحملة الثانية ١٤٨٦م ونجح أيضاً فيها أزيك وعاد معه عدد كبير من العثمانيين دخلوا فى خدمة السلطان قايتباي، فأنزلهم قايتباي بديوانه وقرر لهم الجوامك وظلت هذه الطائفة فى خدمة المماليك حتى نهاية العصر المملوكى، وهى المعروفة باسم (العثمانية) .

وأخيراً تم الصلح بين العثمانيين والمماليك سنة ١٤٩٢م وانتهت حالة الحرب غير أنه كان انتهاء مؤقتاً، فقد حدث على عهد خلفاء قايتباي تطورات جديدة فى العلاقة المملوكية العثمانية أثرت فيها عوامل خارجية إلا أن علاقات

الود ظلت قائمة حتى وفاة بايزيد الثاني ١٥١٢م وولاية أبنه سليم الأول، ولما كان السلطان سليم قد وضع لنفسه خطة توسعية نحو الشرق، ومعنى ذلك ابتلاع الإمارات الإسلامية المجاورة والإصطدام بدولتي الفرس والمماليك، فإن علاقات الود باتت معرضة للإنتقال إلى غير عودة، ثم إن سليم العثماني لم ينظر إلى البحر الأبيض إلا على اعتبار أنه بحيرة أو خليج عثماني، وطمع في انتزاع الأراضي المقدسة من سيطرة المماليك حتى يدعم مركزه في العالم الإسلامي العربي وضد الشيعة الفرس بصفة خاصة استهل سليم عهده بقتل أخويه الكيرين قرقد وأحمد وأولادهما، ثم التفت إلى الصفويين لكي يقضى عليهم وعلى مذهبهم الشيعي، وبعث برسالة في (مايو سنة ١٥١٤م) إلى السلطان الغوري، يوضح له فيها نواياه ضد فارس وما يعتزم القيام به ضد الشيعة، فقرر الغوري إرسال جيش يربط في حلب دون أن يتدخل في النزاع الفارسي العثماني، ويرقب ما يتسفر عنه التضال، تم انتصار سليم على الصفويين في موقعة جالديران عام ١٥٢٤م، ثم قضى على إمارة دلفادر عام ١٥١٥م.

تحالف الصفوي مع الغوري، ورحب سلطان المماليك بهذا الحلف، ومن ثم أخذ كل من السلطان الغوري والسلطان سليم يتربص بصاحبه الدوائر، ولا سيما وأن الغوري أوى الأمير قاسم العثماني. أحد أبناء الأمير أحمد الذي قتله سليم واتخذ منه أداة للتهديد، كما اتخذ قايتباي من قبل عمه الأمير جم.

والواقع أن النزاع العثماني الفارسي لم يكن السبب المباشر في النزاع العثماني المملوكي وإن كان عاملاً مباشراً للتعجيل به، أما الأسباب البعيدة وهي الحقيقية فهي التنافس على السيادة العليا على العالم الإسلامي. وانتشرت الأنباء في القاهرة (أوائل عام ١٥٢٢/١٥١٦م) بأن السلطان سليم

يعد العدة لمداجمة الصفويين برأ وبحراً، ولكن السلطان الغورى أدرك بفتنته وقرائن الأحوال أن هذه الاستعدادات الضخمة لا يعقل أن تكون من أجل الصفويين، وأن الهدف الحقيقى لها هو السلطنة المملوكية ولم يضع وقتاً بل سرعان ما بدأ فى الإستعداد الحربى، وساءه موقف الجلبان وعدم تقديرهم للخطر المحقق فأنبهم بقوله "لا تسمتوا العدو فينا، وابن عثمان متحرك علينا، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب" وكلف أولاد علاء الدولة الذين كانوا بمصر منذ زوال إمارة دلغادر بالخروج وجمع العساكر التركمان ، فخرجوا. وفى أثناء هذه الاستعدادات للقاء العثمانيين، وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب يذكر فيها أن السلطان سليم العثمانى ينوى مهاجمة الشاة إسماعيل الصفوى، وأن الشاة يستعد لمقابلته والحقيقة ان خاير بك كن متصلاً بالسلطان سليم وما أراد برسالته هذه إلا تثبيط همة الغورى وصرفه عن الاستعدادات القائمة، وقد بدأت اتصالات خاير بك بالعثمانيين منذ عهد بايزيد الثانى ولكن السلطان الغورى لم يركن إلى رسالة خاير بك رغم أنه لم يشك فى ولائه بل ضاعف جهوده وأعلن أنه سوف يقود الجيش بنفسه وقرر الخروج إلى حلب حيث يرقب الحوادث ويرى ما يكون "من أمر الصفوى وابن عثمان فإن كل من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا" .

أمر الغورى عساكره بالخروج قبله إلى الريدانية، فخرجت أطلاب الماليك من القاهرة وكانت خمسة عشر طلباً، فضلاً عن الفرق الإضافية التى ألحقت بالجيش، وتلا ذلك طلب السلطان نفسه ومعه خزائنه

مغطاة بأغشية من الحرير الأصفر محملة على ٥٠٠ جمل فيبها الذهب والفضة وآلات السلاح .

وخلال إقامة السلطان بوطاقه (بخيمته) بالعباسية، جاءت رسالة من خاير بك تتم عن الخديعة التي دبرها سليم العثماني وعميله خاير بك، فقد أوضح خاير بك بأن قاصداً جاءه من قبل السلطان العثماني للتفاوض في أمر الصلح ومع رسالة خاير بك كتاب من السلطان سليم كله ألفاظ رقيقة منمقة ففية يقول سليم للغوري "أنت والدي وأسالك الدعاء ... وأن البلاد التي أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم، وجميع ما تروته ويريده السلطان فعلناه".

استبشر السلطان بحديث الصلح بعد قراءة الرسالة على أمرائه، ولكنه لم يتراجع ، وسار حتى دخل دمشق، وفي حماة احتفى به نائبها جان بردي الغزالي أكثر من حفاوة نائب دمشق ، وتوجه إلى حلب أخيراً فدخلها في (جمادى الأولى سنة ٩٢٢هـ/يولية ١٥١٦م)، وكان خاير بك يحمل للعبة والطيز على رأسه .

نزلت جيوش المماليك في منازل الحلبيين فضاق بهم أهل المدينة ولا سيما لما ارتكبوه من المنكرات، ولهذا أسوأ الأثر في تطور الحوادث فيما بعد، وفي حلب استقبل الغوري بعثة عثمانية وعاقبها على أفعال سليم وما ارتكبه في حق المماليك باعتدائه على إمارة دلغادر..

ورغم أن السلطان الغوري كان يدرك خديعة سليم له، كسباً للوقت حتى تصل إمدادته بقيادة وزيره الصدر الأعظم سنان باشا، فإنه لم يُرد أن يقابل السفراء العثمانيين بالجفوة أو اظهار التحدي، بل ظل محافظاً على هدوئه مظهرأ رغبته في السلم والصلح، وذكر له الرسل أن السلطان سليم لا ينظر إلى الغوري إلا نظرته للوالد الذي يطلب منه الدعاء، ويرجو ألا يتدخل الغوري فيما بينه وبين الصفوي، وأكدوا له أن العثمانيين ما قدموا إلا لحرب

الشاه وسوف لا يرجعون دون القضاء عليه.

خلع الغورى على سفراء سليم وردهم إليه ومعهم كتاب منه يعرض فيه التوسط فى الصلح بينه وبين الصفوى، وأرسل كاتم سره (الدوادار) الأمير مغلباى ليؤكد للسلطان سليم رغبته فى الصلح واهتمامه بأمر الوساطة ولشدة رغبة الغورى فى الصلح وتجنب الحرب، أرسل سفيراً آخر صحبة هدية تقدر بنحو عشرة آلاف دينار، وفى نفس الوقت أو عز إلى أحد القضاة بأن يجعل موضوع خطبته بالمسجد الكبير بطلب، حول الأحاديث النبوية التى تحض على عدم النفرة بين المسلمين ، على أنه لم يغفل عن أخذ الحيطة التى يقتضيها الوضع القائم ، فجمع أمراءه وحلفهم جميعاً على ألا يخونوه ولا يغدروا به ، فحلفوا جميعاً .

أما استقبال سليم لسفراء الغورى فكان أسوأ استقبال، إذا قبض على مغلباى ورفض الصلح وكاد يشنقه لولا شفاعة بعض وزراء سليم، وغلم الأمير كرتباى الذى كان فى طريقه إلى سليم بما وقع لمغلباى فعاد مسرعاً إلى الغورى وأعلمه بما حدث، كما أنهى إليه أن العثمانيين قد تحركوا فعلاً ووصلت أوائل جيوشهم إلى غنتاب واستولت على ملطية وكركر وغيرها من القلاع .

فحلف الغورى أمراءه للمرة الثانية، ولم يطق الأمير سيباى نائب الشام أن يرى خاير بك والمعركة توشك أن تدور رحاها بعد أن وقف على خيانتته ، فهجم عليه وأمسك بتلابيبه صائحاً : "يا مولانا السلطان، إذا أردت أن تنصر على عدوك بإذن الله، فأقتل هذا الغادر الخائن فى الحال" .

ولكن تدخل الخائن الثانى الغزالى نائب حماة أقنع السلطان بعدم الإصغاء لهذه التهم حتى لا يفت ذلك فى عضد سائر الأمراء، وهكذا ترك خاير بك حراً طليقاً ليتم الدور الشائن الذى بدأه، وفى ذلك الوقت وصل

مغلباى وأخبر السلطان بما حدث له وبمقالة السلطان سليم له: "قل لأستاذك بلاقينا على مزح دابق".

نادى السلطان الغورى فى عسكره بالرحيل وقبيل أن يلحق السلطان بجيشه بعث برسالة إلى طومان باى نائب الغيبة فى مصر يوصيه بالرعية ، وعند دابق إحدى قرى بلدة عزاز ، أخذ الغورى يرتب صفوف جيشه بنفسه استعداداً للمعركة. (وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس ١٥١٦م [جمادى الثانية ٩٢٢هـ]) تقدمت الجيوش العثمانية ، وكان الغورى على أتم استعداد فلم يؤخذ على غرة وبدأت المعركة بهجوم خاطف عنيف زلزل أقدام الشمانيين وأنزل بهم خسارة فادحة، حتى فكر سليم فى التقهقر وطلب الأمان لكى يعيد ترتيب صفوفه .

وفى هذه اللحظة الحرجة أشاع خاير بك أن السلطان الغورى أمر جلبانه بعدم القتال حتى يصدر أوامره إليهم ، وحتى يقا تل القرانيص وحدهم وهم المماليك القدماء، وبسبب هذه الإشاعة قترت همة القرانيص اذ رأوا فيها خطة دنئية من جانب السلطان أراد بها أن يكونوا الطعمة الأولى لتسيران العثمانيين، انتقاماً منهم لما ارتكبه فى حفة سابقاً وفى ذلك الوقت أظهر خاير بك الهزيمة وأشاع أن السلطان الغورى قد قتل ، فإنها رت قوة المماليك ، مع أن الغورى كان ثابتاً فى مكانه تحت الصنجد السلطانى، ولما أيقن من الهزيمة حاول الهرب إلى حلب ولكنه سقط عن فرسة بعد خطوات جثة هامة من هول الهزيمة .

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب حيث انتقم منهم الحلبيون جزاء لما ارتكبه فى حتهم سابقاً، وطردوهم، فخرجوا على دمشق فى أسوأ حال وفى دمشق تجمعت هذه الفلول ، ثم خرجوا إلى مصر فوصلوها أرسالاً متقطعة، وتعرضوا خلال الطريق لأذى العريان ، وكان دخولهم القاهرة فى

(رمضان ٩٢٢هـ / أكتوبر ١٥١٦م)

هذه هي واقعة مرج دابق الفاصلة في أمر السلطنة المملوكية ، وأمبر استقلال مصر، وقد وصلت أبنائها إلى القاهرة قبل وصول الفلول الهاربة بنحو شهر وشمل الناس الفرع والجزع ، وقام نائب الغيبة بما ينبغي عليه، وحين تحقق طومان باي من مقتل السلطان، أمر بالدعوة على المنابر باسم الخليفة المتوكل .

اتفقت كلمة الأمراء على اختيار طومان باي للسلطنة ، فأخذ يستعد لحرب العثمانيين وكانت خطته تقضى بقاء الأعداء بالشام قبل وصولهم إلى الحدود المصرية، على أنه لقي العنت في سبيل الإستعداد، أرسل حملة بقيادة جان بردي الغزالي الذي عينه نائباً للشام، غير أنه عندما وصل إلى غزة كان العثمانيون قد استولوا عليها، فعرج عنها واتجه شمالاً حتى يسبك دوره في الخيانة، وحينئذ استقر عزم السلطان على الخروج بنفسه ونادى في الناس "أخرجوا وقتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار، وأنا واحد منكم، أن خرجتم خرجت معكم، وإن قعدتم قعدت معكم وما عندي نفقة أنفقها عليكم" .

وفي ذلك الوقت وصلت سفارة من قبل السلطان سليم تخبر بأن سليماً غادر دمشق إلى غزة، وأنه يعرض الصلح على السلطان طومان باي على شرط أن يعترف طومان باي بتبعيته للسلطان سليم أظهر طومان باي الميل إلى الصلح حقناً لدماء المسلمين ، وفي نفس الوقت ليكسب بعض الوقت لإستكمال استعداداته التي ظلت قائمة بهمة ونشاط تحت إشرافه .

أما خاير بك فقد دأب على متابعة خطته الغادرة، فأرسل كتباً إلى أمراء مصر ومشايخ العريان يرغبهم فيها بالدخول في طاعة السلطان سليم، وأخذ يفيض في وصف محاسنه وعدله وأن من يدخل تحت طاعته سوف يظل على وظائفه وأرزاقه .

صدر طومان باى أمره بالرحيل ، ومن المؤسف أن المماليك فى ذلك الظرف العصيب أظهروا الكثير من الإستهتار والإستهانة بالموقف ولم يستطع السلطان أن يعمل شيئاً سوى تأنيبهم على هذا الموقف المتخاذل وترضيبتهم ، وأخيراً أخرج إلى الريدانية وأخذ يلوم رجاله على تقاعدهم وانشغالهم، حتى اقتحم العثمانيون الحدود المصرية .

ورغم استعدادات طومان باى الضخمة فقد جبن المماليك حتى كان منهم من لا يقيم بالريدانية إلا خلال النهار كى يراهم السلطان، ثم يعودون إلى القاهرة حيث يبيتون فى منازلهم .

وفى صبيحة (٢٣ يناير ١٥١٧م) شوهدت العساكر العثمانية وهى تتحول عن الريدانية إلى القاهرة، فاضطر إلى التحول سريعاً للحاق بهم، والتحم الفريقان فى معركة حامية اشترك فيها السلطان طومان باى وسليم، واستطاع طومان باى أن يذبح الصدر الأعظم سنان باشا بيده، وظن أنه قتل سليماً، وكانت الخسائر من الجانبين فادحة، حمل العثمانيون على المماليك حملة عنيفة زلزلت أقدام الجراكسة حتى بقى طومان باى وحده يقاتل وعندئذ طوى طومان باى الصنجق السلطانى وولى مديراً وأختفى .

والواقع أن هزيمة المماليك فى وقعة الريدانية كانت امراً لا مفر منه نظراً لأن الخيانة ظلت تلعب دورها حتى آخر لحظة فى تاريخ السلطنة المملوكية إذ كان الخائن جان بردى الغزالى قد اتصل بالخائن الأمير خاير بك، وأعلمه بخطة السلطان طومان باى فى الدفاع، وهذا ما جعل العثمانيين يتجنبون فى زحفهم نحو العاصمة التحصينات التى أقيمت بالريدانية، وفى (٢ محرم سنة ٩٢٣هـ/ ٢٥ يناير سنة ١٥١٧م) أمر سليم بنقل معسكره من الريدانية إلى بولاق، واحضرت له مفاتيح القلعة ، واتخذ من بولاق مركزاً لقيادته وأعماله الحربية التى لم تنته بعد .

لم ييأس السلطان طومان باى من أمل الظفر والإنتصار فشن هجوماً على معسكر السلطان سليم فى بولاق ودارت معركة انتهت بإنتصار طومان باى واستيلائه على بعض أجزاء القاهرة، وعلم العربان بإنتصار طومان باى فهماجموا معسكر العثمانيين ونهبوهم ، ومن ثم قويت الروح المعنوية عند المماليك ولكن لفترة وجيزة مما اضطر طومان باى إلى الهرب للمرة الثانية إلى البهنسا وظل يكافح بما تيسر له من وسائل، من ذلك أنه منع وصول الغلال إلى القاهرة فوقع فيها الغلاء، غير أنه أدرك استحالة النصر النهائى فأرسل إلى سليم يفأوضه فى الصلح على أن يجعل الخطبة والسكة باسمه ويرسل إليه الخراج سنوياً على أن يكون طومان باى نائبه فى حكم مصر كما أخبره بأن طلبه للصلح ليس عن عجز منه ولكن لصون دماء المسلمين.

رأى السلطان سليم ألا يرفض الدخول فى الصلح بحسب القواعد التى ذكرها طومان باى وكتب صورة معاهدة إليه وأرسلها مع وفد برئاسة مندوب عثمانى غير أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الجراكسة وقتلوا المندوب العثمانى، فاستعد سليم للحرب، واشتبك الفريقان قرب وردان فى (أول ابريل ١٥١٧م) حيث دارت معركة حامية استمرت يومين انتهت بهزيمة المماليك وإنتصار العثمانيين وهرب طومان باى لثالث مرة، وتوجه سليم بعد ذلك إلى الأهرام لمشاهدتها توجه طومان باى هذه المرة إلى الغربية حيث اختفى عند الشيخ حسن بن مرعى وابن عمه شكرى شيوخ عرب محارب، فرحب آل مرعى بقدوم السلطان وركن السلطان إلى ولائهم بعد أن حلفوا له على المصحف سبع مرات، غير أن حسن بن مرعى استقر عزمه على الخيانة طمعاً فى المكافأة بالرغم ما للسلطان طومان باى عليه من أياذ بيضاء، فأحاط ضيوفه بعربانه حتى لا يفلت السلطان، وأرسل إلى سليم ينبئه بالخبر، فبعث سليم بفرقة من جيشه قبضت على طومان باى وقيدته فى

الحديد وعادت به إلى سليم الذي قام له وأخذ يتأمله معجباً بشجاعته وفروسيته. ثم دار بين الرجلين حديث طويل عبر فيه سليم عن إعجابه بطومان باى بقوله لمن حوله : "والله مثل هذا الرجل لا يقتل" فلما شاع هذا الخبر قام خاير بك وجان بردى الغزالي بتحريض السلطان سليم على قتله بحجة أن لا بقاء لملكه ما دام طومان باى على قيد الحياة وافق سليم على اعدام طومان باى، وفى (يوم الإثنين ١١ ربيع الأول ٩٢٣هـ/ ٢٣ إبريل ١٥١٧م) أخرج طومان باى من سجنه فى إمبابة وسار وسط حرس عدته ٤٠٠ جندى حتى وصل إلى بولاق ومنها إلى باب زويلة حيث شنق وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام على باب زويلة، ثم دفنت بحوش المدرسة التى بناها السلطان الغورى .

هكذا انتهت الإمبراطورية المملوكية ، وقدمت مصر استقلالها وسيادتها وأصبحت ولاية عثمانية، وعليها خاير بك الخائن والياً من السلطان العثمانى، بل صارت له إقطاعاً طوال حياته، وهو ثان وال من قبل العثمانيين ، إذ وليها قبله لفترة قصيرة يونس باشا العثمانى ومن ثم صفا الجولسليم العثمانى، فشق القاهرة فى موكب وصلى الجمعة بالأزهر وتصدق وعاد إلى بولاق .

أما أسباب سقوط المماليك :

فيمكن التماسها من جوانب عدة فهناك النزاع الأبدى بين الجديد والقديم، ويتمثل الجديد فى النظم العثمانية وأساليب الحرب والمعدات، والقديم فيما ظل عليه المماليك من ممارسة نظمهم القديمة رغم ما عرفوا به من الشجاعة والفروسية المنقطعة النظير، غير أن الشجاعة والفروسية ليست شيئاً بجانب وسائل الحرب الحديثة فى ذلك الوقت، والواقع ان الذى شنت قوة المماليك هو استخدام البنادق واعتماد العثمانيين عليها بصفة أساسية ، وكثيراً ما عبر المماليك عن مدى تأثرهم بهذا السلاح واعترفوا بنكايته بهم اعترافاً صريحاً .

ومن ناحية أخرى ، هناك استقرار النظم الداخلية عند العثمانيين حيث ولاية العرش والمحافظة على اتباع نظام الوراثة، وذلك على عكس ما سارت عليه الأمور في دولة المماليك ولا سيما عصرها الأخير حيث كانت القتن والإضطرابات حول العرش هي السائدة، مما جعل الحكم غير مستقر حتى في أخرج الأوقات ، يضاف إلى ذلك كراهية الرعايا لسلطانهم من المماليك ، فقد ظل المماليك طبقة أرستقراطية حربية منعزلة عن رعاياهم ، كما ظلت ثروات البلاد موزعة بينهم .

تلك هي الأسباب البعيدة، أما الأسباب المباشرة، فتتلخص في سوء تدبير السلطان الغورى في أمر النفقة وشحه فيها، وحرمان بعض جنوده منها، مما أثار المماليك ، غير أن الغورى ومن قبله قايتباى ، كانا معذورين من جانب واحد وهو سوء الحالة الاقتصادية، التى تعرضت لها البلاد عامة منذ تحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسى عقب الكشف الجغرافى ، وهذا فضلاً عن كثرة الحروب وما تستلزمه من نفقات، ولكنهما لا يعذران من ناحية إثارة فريق من الجنود على فريق آخر، وقد جاهد الغورى فى مكافحة النتائج التى ترتبت على الكشف الجغرافى، ولكن كفاحه لم يجد، فالدولة المملوكية قد انهارت فعلاً قبل سقوطها .

ولا شك أن الخيانات التى وقعت بين صفوف المماليك، كان لها أثر كبير فى التعجيل بسقوطها، وعلى رأس الخونة خاير بك وصنوه جان بردى الغزالى، وهما اللذان ظلا يعملان لهدم المماليك .

وخلال جهاد طومان باى الأخيرة وقعت خيانات أخرى منها خيانة جانم السيفى كاشف الفيوم، فقد تخلى عن طومان باى بعد وقعة الريدانية وانضم إلى سليم الذى صار يستشيرهم كما كان يستشير خاير بك وزميله وقد يقول بعض المؤرخين أن مثل هذه الخيانات الأخيرة لا قيمة لها بعد أن وضح

عجز الجراكسة عن دفع العثمانيين ، وإن دولة الجراكسة كانت تلفظ أنفاسها الأخير، ولكن الواقع لو لم تحدث هذه الخيانات ولا سيما خيانة خاير بك وابن مرعى لطال أمد النضال ، وربما انتهى بصلح وبقاء طومان باى على عرش مصر، نظير الاعتراف الاسمى بسيادة العثمانيين ، ولقد عرض سليم الصلح على طومان باى أكثر من مرة .

ويعد أن دانت البلاد المملوكية للعثمانيين، سافر سليم إلى بلاده بعد أن خرب مصر وأفقرها مالياً وعسكرياً وحضارياً، فقد جمع مهرة الصناع والقنانين، كما نهب ما استطاع حمله من الأثاث والتحف، وبدأ هذا عقب إعدام طومان باى، إذ اجتمع وزراء سليم فى مدرسة السلطان الغورى وطلبوا كبار التجار والوراقين والبنائين والنجارين والمرخمين والمبطين والحدادين وغيرهم من أرباب الحرف ، وكتبوا اسماءهم وألزمهم بالسفر إلى القسطنطينية بل إن العثمانيين أمرو بإقتلاع رخام القلعة وما بها من أعمدة، فاستولوا كذلك على رخام المنازل والمدارس وعلى عدد كبير من خزائن الكتب والمدارس ثم قبض سليم على الناس وسخرهم فى حمل المنهوبات .

النظم العثمانية فى مصر

رأى السلطان سليم أن وفرة خيرات مصر وتنوع مواردها وكثرة سكانها وبعدها عن مقر الحكم فى القسطنطينية ما يجرى والياً ذا أطماع سياسية على الاستقلال بها عن الدولة العثمانية فوضع نظاماً معقداً يستهدف بقاء مصر ولاية عثمانية وتمثل هذا النظام المعقد فى وجود ثلاث هيئات يشترك بعضها مع بعض فى حكم مصر ويوازن بعضها بعضاً حتى لا تستبد بالحكم هيئة دون الهيئتين الأخرين وسرعان ما توارت شخصية السلطان سليم بموته سنة ١٥٢٠ وخلفه ابنه السلطان سليمان القانونى أو المشرع فعكف على وضع تفصيلات لهذا النظام ولهذا يجب التمييز بين أمرين :

أولاً : قواعد عامة وسياسة عامة وضعت لمصر على عهد السلطان سليم .

ثانياً : تفصيلات مختلفة لهذا النظام وضعت على عهد السلطان سليمان وتمثل هذا النظام فى وجود والى، والمماليك، الحامية العسكرية العثمانية ولتعرض بشئ من الإيجاز لهذه الهيئات كل على حدة :

السوالى : هو نائب السلطان فى حكم مصر ورئيس الحكومة المصرية وكانت له عدة ألقاب منها والى مصر والباشا، حافظ مصر المحروسة، وحضرة الوزير، ذى الضمير المنير وكان مقره القلعة . واختصاصاته عديدة متنوعة : فهو ينفذ أوامر السلطان وله رئاسة الديوان الذى يساعده فى الحكم ويرسل إلى السلطان الجزية السنوية المفروضة على مصر كما يرسل معنادات القسطنطينية مثل (مهمات بناء السفن وبعض المنتجات الزراعية) ويرسل أيضاً إلى الحجاز الخيرات النقدية والعينية

المرصودة على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وقراتهما وكان على الوالى أيضاً أن يعد قوات مسلحة عثمانية ومملوكية إذا نشبت حرب بين السلطان وبين دولة أجنبية وكانت له رئاسة الاحتفالات العامة وهو الذى يعلن الفرح والمناسبات السارة أو السعيدة مثل انتصار السلطان فى حروبه أو زواج بنات السلطان أو ختان أولاده وإلى جانب ذلك كانت تقع عليه الأعباء العادية مثل إقامة العدل وتوطيد الأمن ودفع مرتبات الموظفين فى الحكومة والنهوض بالزراعة وتقديم التجارة وتنظيم الأسواق، واعتماد ممثلى الأفرنج من القناصل .

وكان الوالى يصل أما بحراً من رشيد بطريق النيل حتى بولاق ميناء القاهرة النهري وأما يراً عن طريق سورية ويقام له حفل استقبال رسمى يشترك فيه الأمراء المماليك والعلماء وضباط الحامية والاعيان ومن اليهم ويذهب فى موكب فخم إلى مقره فى القلعة. وكان الوالى يشتري منصبه من الباب العالى فيشتري الالتزامات المفروضة على مصر ثم يجمع خلال الفترة التى يقضيها فى منصبه مبالغ تزيد عما دفعه للسلطان. وكانت للوالى موارد مالية فى مقدمتها مرتب سنوى ثابت يسمى ساليانة يصرف له من خزانة الروزنامة ، وله نسبة مقررة من الضرائب على بعض أصناف من المتاجر وعلى الجمارك وعلى تولية الأمراء والكشاف وعند نقل الالتزام من شخص إلى آخر. وكانت هذه الإيرادات تقيد فى خزانة الباشا المعروفة باسم خزانة ولى النعم .

وتتراوح مدة بقاء الوالى فى منصبه بين سنة وبين ثلاث سنوات ولا تزيد عن هذه الفترة إلا نادراً جداً. ولهذه المسألة - أى قصر مدة بقاء الوالى فى منصبه - جانبان أحدهما سياسى واخر مالى. فالجانب السياسى يرجع إلى أن الباب العالى كان حريصاً على بقاء مصر ولاية فى نطاق الدولة

العثمانية فهو لم يكتفِ بوجود رقيب عتيد على تصرفات الوالى وكان هذا الرقيب العتيد يتمثل فى الأبراء المماليك وضباط الحامية، بل رأى عدم اتاحة الفرصة للوالى إذا طال به المقام فى مصر أن يكون له أنصار ويقوم بحركة انفصالية عن جسم الدولة العثمانية ومن ثم كان هذا التغيير المستمر للولاية العثمانيين وهى سياسة إذا عادت بالأمن على الدولة العثمانية إلا أنها أضرت بمصر ضرراً بليغاً. أما الجانب المالى فيتلخص فى أن الدولة كانت تعين كبار الموظفين وبعد مضى سنة تعيد النظر فى أمر كل موظف وهل يظل فى منصبه أو ينقل إلى جهة أخرى. وكانت المناصب تعطى فى الدولة العثمانية بالشراء أى بذل المال، وكانت عملية البيع والشراء مستمرة ولم يكن هذا النظام غريباً فى ذلك الوقت وكان معمولاً به فى بعض الدول الأوربية وقتئذ. وعند انتهاء مدته كان الديوان يعقد جلسة فى هيئة محكمة عليها يحضرها أمراء المماليك وضباط الحامية العثمانية والأعيان ثم يقرر رجال المال فى الحكومة وهم الدقتردار ورجال الروزنامة أن الوالى كان نزيهاً فى تصرفاته وأنه أوفى بالتزاماته ودفع الأموال إلى مستحقيها "ولم تبق فى ذمته بارة واحدة ولا أردب ولا قدح واحد" ثم تخرر بذلك حجة شرعية يقدمها الوالى إلى السلطان .

وقد أصبحت مصر ثانى ولاية فى الدولة العثمانية بعد المجر وقد فتحت على عهد السلطان سليمان المشرع وكان السلطان يختار الوالى من بين الشخصيات الهامة التى لها من ماضيها وتجاربها ما يؤهلها لشغل هذا المنصب فبعض الولاة كانوا قبل تعيينهم فى مصر يشغلون مناصب رئيسية فى حكم الأقاليم أو البلاط العثمانى بل كان منهم من شغل منصب الصدارة العظمى (رياسة الوزارة) وفى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حين كانت الدولة العثمانية مهيبه الجانب كان الوالى يتمتع بنفوذ كبير لم ينازعه فى

اختصاصه أحد من الأمراء المماليك أو ضباط الحامية وقد تغير هذا الوضع منذ القرن الثامن عشر حين ضعفت الدولة العثمانية وتعرضت لهزات عنيفة من بعض الدول الكبرى .

المماليك : وأهم ما يلاحظ على سياسة السلطان سليم هو أنه احتفظ بنظام المماليك بعد زوال السلطنة عنهم، فلم يأمر باخراجهم من مصر بل أبقى عليهم كأمراء وذهب إلى أبعد من ذلك فجعلهم عنصراً هاماً في الشؤون الحربية والإدارية في مصر تحت السيادة العثمانية وأمعن في هذه السياسة إلى حد أن ثانی وال عینه على مصر بعد الفتح العثماني هو خير بك الذي كان قد انضم إلى سليم ضد الغوري. ولم يكن الباعث لسليم على الاحتفاظ بخصوصه السابقين حباً لهم أو احتراماً لميثاق عقده معهم ولكن كانت هناك عدة اعتبارات أملت على السلطان سليم اتباع هذا الأسلوب : فالمماليك قوة حربية ممتازة رأى توجيهها لخدمة الدولة العثمانية والدفاع عن البلاد، وهم يعرفون مصر جيداً لطول اقامتهم فيها وقد اعتاد المصريون الخضوع لهم، وإذا استمر المماليك في مصر عنصراً هاماً في إدارتها كانوا قوة مفيدة توازن سلطتي الوالي والحامية العثمانية ومن اختلاف هذه القوى الثلاث تستمر مصر خاضعة للدولة العثمانية. وكانت السياسة العامة للدولة العثمانية في حكم البلاد التي فتحها تتحاشى قدر الاستطاعة أحداث تغييرات اساسية وانقلابات خطيرة في نظم هذه البلاد .

والمماليك على بكرة أبيهم أرقاء جئ بهم وهم قتيبة صغار من خارج مصر، من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وبلاد البلقان وبلاد القوقاز في آسيا وكذلك من مناطق سواحل البحر الأسود، وبحر آزوف وكانوا يدرّبون منذ نعومة أظفارهم في رعاية أمير مملوك وينسون ماضيهم ولا يعرفون لهم أباً غير سيدهم الأمير المملوك ولا وطناً سوى مصر، ويتلقون تعليماً عسكرياً قوامه

الفروسية بكل ما يحمل هذا اللفظ من معان فيتعلمون ركب الجياد الأصيلة ،
وإستخدام السيوف والخناجر والهجوم الخاطف على العدو والكر والفر
والضرب السريع والنزال الفردي. وإلى جانب هذه الناحية العسكرية كانوا
يتعلمون اللغة العربية والقرآن الكريم وأصول الدين ومبادئ الفقه الإسلامى
والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وكان الأمير المملوكى يحرض على زيادة عدد
اتباعه واقتناء الخيول المطهمة والمزركشة بالفضة والذهب .

وكان عدد الأمراء المماليك فى معظم الأحوال عشرين أميراً ويعين
السلطان العثمانى من قبله أربعة من العثمانيين يشتركون فى الحكم والإدارة
مع الأمراء المماليك وهؤلاء الأربعة يعينون فى الإسكندرية ودمياط والسويس
ونائب الوالى ويسمى كتخدا. أما العشرون ا خرون فكانوا من أمراء المماليك
ويطلق على كل منهم صنjq طبليخانة أى تدق له الطبول عند تحركاته لرفعة
شأنه وعلو مركزه وكان كل منهم يحمل رتبة بك وميرلو (أى أمير لواء)
ويصل إلى هذا المركز تبعاً لعصبيته وقوته التى تتمثل فى كثرة اتباعه. وكان
الأمراء المحليون هم الذين يختارون الأمير الذى يرقى إلى هذه الرتبة فيصدر
الوالى العثمانى فرماناً لتعيينه ومنحه الرتبة ثم يرسل فرمان إلى السلطان
للتصديق عليه ويقام حفل لهذه المناسبة .

وكان الصناجق المصريون يحكمون الصنjqيات أو المديرىات المهمة
فى مصر وكانت وقتئذ الشرقىة والغربىة والمنوفىة والبحيرىة وجرجا ويجمعون
فى أيديهم سلطات واسعة واختصاصات متباينة : من توطيد الأمن واقامة
العدالة والضرب على أيدي العربان إذا تعرضوا للفلاحين والتقبض على
الأشقياء من المصريين والاهتمام بشئون الزراعة وتقوية جسور النيل ابان
الفيضانات العالية والاشراف على جمع الضرائب ومراقبة جامعيها من الأقباط
ونظراً لهذه السلطات الواسعة التى كان يتمتع بها الصناجق فكان الوالى

العثماني يجرى حركة تنقلات بينهم في فترات متقاربة خشية أن يستغل أحد منهم في صنجقته .

وكان للصناجق أتباع من ممالئهم الممتازين يطلق عليهم الكشاف وكان للكاشف اختصاصات مختلفة : كان أحياناً ينوب عن الصنjq في حكم الصنjqية إذا ما أثر هذا الأخير الإقامة في القاهرة على الذهاب إلى مقر وظيفته، وكان الكاشف أحياناً أخرى يحكم بعض المناطق من الصنjqية، كما كان يحكم إقليماً لم يبلغ مرتبة الصنjqية وتسمى كاشفية. ومن الكاشفيات الهامة في الوجه البحري دمنهور والمنصورة والمحلة ومنوف . أما أهم الكاشفيات في الوجه القبلي فكانت الجيزة والفيوم واليهنسا ومنفلوط وأسيوط وطما وطهطا وسوهاج وفرشوط والأقصر .

وكان من بين اختصاصات الأمراء الممالئ إمارة الحج وهي وظيفة من الوظائف الهامة ولا ترجع أهميتها إلى أنها تضيف على شاغليها الكثير من مظاهر الأبهة والتشريف بل كانت وظيفته ذات طابع حربي فالمحمل الشريف كان ينقل كل عام من مصر إلى الحجاز براً ويسافر في رقعة المحمل عدد كبير من الحجاج كما تحمل معه أيضاً الصرة وهي عبارة عن الخيرات المرصودة للأماكن المقدسة في مكة والمدينة والتي أجراها السلطان سليم وزادها عما كانت عليه أيام الدولة المملوكية فكان أمير الحج يحمل تبعات ضخمة في حماية أرواح الحجاج والمحافظة على المحمل والأموال ولذلك كانت تخرج قوة حربية للحراسة ويبدأ مسيرها من شمال القاهرة إلى السويس ثم تتجه إلى الشاطئ الشرقي للعبدة والبحر الأحمر حتى يصل الركب إلى المدينة المنورة ولم يكن هذا الطريق الطويل آمناً إذا كان الركب يتعرض لخطر القبائل العربية ولذلك قسم الطريق إلى مناطق تختص كل قبيلة بمنطقة تتعهد بعدم الإخلال بالأمن أو التعرض للحجاج في مقابل مبالغ تقاضها من

الحكومة المصرية وكانت القبائل لا تحترم عهودها إذ تهاجم المحمل في منطقة قبيلة أخرى وتضطر القوة الحربية المرافقة إلى مقاتلة القبيلة المهاجمة .

ومن وظائف الأمراء المماليك حمل الجزية السنوية المفروضة على مصر إلى القسطنطينية وكان إيراد الحكومة المصرية ينفق منه على القوة الحربية في مصر والمماليك والخيرات في الحجاز والمنافع العامة في مصر والجزية كانت تحمل كل سنة إلى القسطنطينية بمعرفة أمير مملوكي يسمى صنجق الجزية وكانت هذه الوظيفة أقل من وظيفة أمير الحج وكان صاحبها يستقل مسفينة يبحر عليها إلى القسطنطينية ويأخذ الهدايا في عودته .

الحامية العسكرية العثمانية :

وجد السلطان سليم أنه من الخطر ترك المماليك القوة الحربية الوحيدة في مصر فأبقى في البلاد حامية عثمانية منفصلة عن المماليك وهي عبارة عن فرق من أسلحة مختلفة من الجيش العثماني، تسمى كل فرقة أو جاق وكان عدد الأوجاقات سبعاً، ولكل أوجاق رئيس يسمى أغا ونائب رئيس يسمى كتخدا وكان يطلق على أقدم ضابط "باش اختيار" وعلى الضباط الشوربجية أو الأجاقلية وكان كل الأجاق ممثلاً في ديوان الروزنامة (١) بكاتب يساعد في صرف مرتبات أفراد الأوجاق . وقد تراوح عدد أفراد الحامية بمختلف فرقها بين اثني عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً. ولم تكن الحامية العثمانية

(١) كانت مهمة هذا الديوان - كما سلف - جمع الأموال الأميرية وإنفاقها في وجوهها المقررة المختلفة تحت إشراف الديوان التركي .

ذات صبغة تركية عثمانية خالصة فقد كانت تضم عناصر متباينة من العثمانيين والشوام والمغاربة والعرب والمماليك أيضاً..
وقد نظمت اختصاصات فرق الحامية العثمانية على النحو الآتى :

١ - أوجاق متفرقة : يعهد إليه المرابطة فى القلاع المصرية مثل الإسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وكانت القوات التى تعسكر فى هذه القلاع تشمل اسلحة المشاة والفرسان والمدفعية (الطوبجية). وكان لهذا الأوجاق اختصاص آخر هو تشييل القوافل التى تسير من الصعيد والقاهرة والسويس حاملة الغلال وغيرها من الحاصلات والبضائع ويقوم هذا الأوجاق أيضاً بجمع البارود اللازم للشئون الحربية.
٢ - أوجاق جاوشان : (١) كانت اختصاصات هذا الأوجاق مالية اقتصادية تموينية يقوم أفرادها بجمع الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها بعد ذلك إلى خزانة الروزنامة ويشرف على الشئون التى تودع فيها الغلال. وكان المحتسب يعتبر من قوة أوجاق جاوشان وكان المحتسب يشرف على الأسواق ويراقب أسعار الحاجيات والموازين والمكايل وما إلى ذلك .

(٣) أوجاق كوكالويان (٢) .

(٤) أوجاق تفنكجيان .

(٥) أوجاق جراكسة .

كان أفراد هذه الفرق الثلاث من الفرسان ويطلق عليهم لفظ الأسباهية ويراقب كبار أفرادها تصرفات الوالى ويقوم البعض الآخر فى الأقاليم

(١) الجيم المعطشة تنطق فى اللغة التركية شينش . وإذا أضيف حرفا الألف والنون فى آخر اللفظ يعتبر جمعاً . وجاوشان من شويش وهى رتبة عسكرية أرتى من الأومباشى .

(٢) تنطق جنون للويان .

ويسمون الشوربجية (١) والمتولية (٢) ويشرفون على حكام الأقاليم الذين

.وا يرجعون إليهم فى كل أمر .

(٦) أوجاق مستحفظان : أى رجال الحفظ وكان هذا الأوجاق أقوى أوجاقات وأكثرها عدداً وكان يسمى أوجاق السلطان. وكانت له رقابة على صرفات الوالى ويتأكد من تنفيذ الأوامر التى يصدرها السلطان إلى الوالى. يمان من بين أفراد هذا الأوجاق أعضا الانكشارية ويشبه اختصاصه مدير أمن فى محافظة القاهرة حالياً .

(٧) أوجاق عزبان : أى رجال البحرية العسكرية وكان أفرادها إدارة ترسانة الإسكندرية والسويس وأمير البحرين ويختص بالأشراف على سفن النيلية التى ترد إلى ساحل بولاق ومصر القديمة وتحصيل الضرائب. قررة على الغلال والحاصلات التى ترد إلى هذين الميناءين النهريين، وكان إاد هذا الأوجاق يشرفون كذلك على الملاهى والبهلونات والحواة بن إليهم . وكان لهم أيضاً اختصاصات الشرطة فكانت تتكون منهم إاكز الشرطة فى القاهرة.

تضح من هذا العرض السريع لاختصاصات فرق الحامية العثمانية أنها لم بن قوة حربية مهمتها الدفاع عن البلاد فحسب أو الإشتراك فى رروب السلطان ولكنها اسهمت فى حكم مصر اسهاماً متنوعاً تناول ميادين إباعده فكانت لها اختصاصات سياسية وإدارية مثل مراقبة تصرفات الوالى لصناجق والكشاف والمحافظة على الأمن ثم اختصاصات مالية مثل جمع

، الشوربجى كلمة تركية لها ثلاثة معانى : حائز لرتبة عسكرية تعادل نقيب (بورباشى) أو أحد كبار رجال الحفظ فى الأرياف أو أحد كبار النصارى فى الأرياف .

، أى الذين يتولون الإشراف على الأمن فى الأقاليم .

ضرائب، واختصاصات تموينية مثل الإشراف على نقل البضائع ومراقبة

الاسعار وحالة الأسواق .

ومما هو جدير بالذكر أن مجيئنا لم نتعرض لهجوم مسلح عليها من الخارج منذ الفتح العثماني لمصر في مستهل القرن السادس عشر وحتى سقوط الحملة الفرنسية إليها في نهاية القرن الثامن عشر، ولكن الحامية العثمانية أسهمت في الحروب التي خاض السلطان غمارها خلال هذه القرون الثلاثة ونذكر منها الحرب التي نشبت بين الدولة العثمانية وبين جمهورية البندقية وانتهت بانتزاع جزيرة كريت من البنادقة سنة ١٦٦٩م والحروب التي قامت بين الدولة العثمانية والنمسا في النصف الثاني من القرن السابع عشر. ولتفرقت فرق الحامية مع قوات المماليك في هذا الصراع الدامي وأرسلت قوات إلى رودس وأدرنة والقسطنطينية وسالونيك وبلغراد، وكذلك الحرب الروسية التركية على عهد كاترين الثانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ويلاحظ أيضاً أنه بمجيئنا الأيام ظهر عنصر المماليك في الحامية على حساب العنصر العثماني .

الديوان

لم يكثف السلطان سليم بهذه الهيئات الثلاث التى اشركها فى حكم مصر، ولكنه كون، قبل رحيله إلى القسطنطينية، مجلساً إدارياً يعاون الوالى فى حكم البلاد ويحول فى نفس الوقت دون استئثاره بالسلطة وكانت عضوية هذا المجلس الإدارى مقصورة على الضباط من رؤساء الحامية العثمانية والكتخدا (نائب الوالى) والدفتردار (مدير الشئون المالية) وأمير الحج .

ولما ارتقى السلطان سليمان عرش أبيه فى سنة ١٥٢٠ وسع من اختصاصات هذا المجلس وزاد فى عضوية اعضائه وحوله من مجلس إدارى إلى ما يشبه ديوان القسطنطينية. ومما يجدر ذكره هنا أن السلطان سليمان هو الذى وضع للدولة العثمانية نظمها وسن قوانينها ومن هنا جاءت تسميته بالقانون أو المشرع. وهو الذى وضع تفصيلات نظم الحكم العثمانى فى مصر. وقد شملت عضوية الديوان رؤساء فرق الحامية العثمانية والأمراء الصناجقة والدفتردار وقاض عسكر افندى ورجال الإفتاء على المذاهب الأربعة (أبى حنيفة - الشافعى - مالك - ابن حنبل) وكبار رجال الدين وتلحق بالديوان هيئة إدارية لتعاونه فى أداء أعماله منها المهردار، وهو حامل الأختام، والدويتدار، وهو حامل الدواة، وأكثر من فرمانجى لتحرير فرمانات وعدد من الكتاب والتراجم، ويجتمع الديوان أربع مرات فى الأسبوع، ويرأس جلساته الوالى أو الكتخدا أى نائبه، وفى بعض الأحيان كان الوالى يتابع جلساته من وراء ستار كما كان يفعل سلطان تركيا فى ديوان القسطنطينية .

ويتولى الديوان إدارة شئون مصر، وفى مقدمة اختصاصاته البت فى

الاجراءات المالية واعمال الخزائنة وضرائب الأرض وبحث القضايا الهامة .
 وإرسال أموال الحرمين. ولا يستطيع الوالى أن يبت فى مسألة إلا بعد أخذ
 رأى المختصين من الأمراء المماليك أو رجال الحامية أو الدفتردار أو قاض
 عسكر افندى وتعرض قرارات الديوان على الوالى فيصدر عليها أوامره
 بالموافقة ويوقع عليها بخاتمه .

وإلى جانب الديوان الكبير كان يوجد الديوان الصغير . وكانت اجتماعاته
 يومية وتعد فى قصر الوالى ويحضره الكتخدا والدفتردار وبعض رجال
 الحامية وينظر فى المسائل الإدارية العاجلة التى لا تتحمل التأخير .

القضاء

هيمن الأتراك العثمانيون على القضاء في مصر هيمنة كادت تكون تامة فجعلوه تابعاً لهيئة القضاء الإسلامي في الاستانة واختص السلطان نفسه بحق تعيين كبير القضاة في مصر يسمى قاضي عسكر أفندي. وكان تركياً حنفياً أى من اتباع الإمام أبى حنيفة، لأن الأتراك العثمانيين كانوا يعتقدون مذهب هذا الإمام، وأصبحت مناصب القضاء مقصورة على المذهب الحنفى ومع ذلك فقد وجد مفتون على المذاهب الثلاثة الأخرى (الشافعى ومالك وابن حنبل) يرجع إليهم القضاء عند اللزوم. وفي بدء الحكم العثمانى كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضى القضاة فى تطبيق العدالة فى مصر وكانوا هم وقاضى عسكر أفندى لا يعرفون اللغة العربية فاستعانوا بالتراجمة، ثم أصبح قاضى عسكر أفندى يعين قضاة الأقاليم وكانوا من المصريين وبذلك قل عدد القضاة العثمانيين فى مصر وإن ظل قاضى القضاة عثمانياً . وعلى ذلك لم يكن للوالى حق تعيين قاض عسكر أفندى أو قضاة الأقاليم فالقضاء فى مصر كان مستقلاً عن الوالى .

وكان القضاة فى مصر يختصون بنظر قضايا الأحوال الشخصية والقضايا المدنية والجنائية وكانت احكامهم نهائية إلا فى القضايا الكبرى المتعلقة بالشخصيات الكبرى أو الاحداث الخطيرة فإنها كانت قابلة للطعن بالنقض وكانت المشاكل القضائية الهامة تعرض على الديوان الكبير لإبداء الرأى فيها. وإلى جانب الفصل فى القضايا كانت للقضاة اختصاصات إدارية مثل الاشراف على إدارة الاوقاف والمرتبآت الخيرية المخصصة لاهل الحرمين فى مكة والمدينة والعلماء والمجاورين بالأزهر وتقسيم التركات والتصرفات العقارية وتسجيل حجج البيع والشراء . وكان الديوان الدفترى

، وهو ديوان المالية، يحول إلى قاضى عسكر افندى عرائض الشكوى الخاصة بالملتزمين لبحثها وإيداء الراى فيها من الناحية القانونية فيأخذ به الوالى العثمانى. وكانت تصدر عن قاضى عسكر افندى بعض وثائق هامة منها :

- ١ - حجج شرعية يثبت فيها صرف مرتبات الجنود وتسجل بها حالات انتقال الالتزامات .
- ٢ - اعلانات شرعية وتحتوى على أحكام قاضى عسكر افندى فى مسائل الالتزام .
- ٣ - إسهادات شرعية تسجل فيها حالات معينة كانشاء سفن نقل الغلال إلى الحرمين أو حماية اليهود من استبداد الانكشارية .
- ٤ - تمكينات شرعية تسجل فيها بعض المرتبات والمنح أو ينص فيها على حق الموظفين فى وظائفهم .

وكان قاضى عسكر أفندى وسائر القضاة يحصلون على مناصبهم بطريق الشراء ثم يتولون بعد ذلك استرداد المبالغ التى دفعوها. فكانوا يأخذون الرسوم المقررة على التحقيقات والقضايا ومعينة التركات وتقسيمها ورسوم الحجج وتدوين الإسهادات التى تصدر عن المحاكم. وناحية الشراء للمناصب القضائية تفسر لنا قصر مدة بقاء قاضى عسكر افندى فى منصبه فكانت الدولة العثمانية تغير شاغل هذا المنصب بعد فترة قصيرة وقد حدث لخط كثير عن ذمم بعض القضاة وقبولهم الرشا وشططهم فى فرض الرسوم وانحراف احكامهم عن العدالة وقد ظهرت هذه المساوى بشكل واضح عندما ضعفت الدولة العثمانية وقد حاولت التدخل لمنع هذا الاختلال والعمل على احقاق العدالة ولكن لم تسفر محاولاتها عن نتيجة ايجابية فى معظم الأحوال نظراً

لاضطراب الاحوال في مضر. وكان قضاي عسكر افندى بحكم منصبه
عضواً في الديوان ويشترك في مخاسبة الوالى فى آخر عهدہ بالولاية. كما
كان يشرف على القضاة فى الاقاليم .

الإدارة المالية

اهتمت الدولة العثمانية اهتماماً خاصاً بالإدارة المالية وضبط حساباتها .
: اشرفت عليها عدة عناصر: الديوان الدفتري وديوان الروزنامة وبعض
العسكريين من رجال الحامية العثمانية .

أولاً : الديوان الدفتري :

بمناخية ديوان المالية ويرأسه الدقتردار أى صاحب الشئون
المالية وكان عادة من الصناجق المصريين وله الأشراف على كافة الشئون
المالية فى مصر :

فيراقب تحصيل الأموال الأميرية ويراقب صرفها فى الأوجه
المخصصة لها مثل ارسال الجزية إلى السلطان وتسمى خزينة السلطان
ويرسل معنادات الأستانة وصرة أهالى مكة والمدينة ومهام الحرمين كما كان
يحاسب الوالى عند انتهاء مدة ولايته .

وله مرتب ثابت وعوائد مختلفة على أصحاب المرتبات الثابتة وعلى
بعض إيرادات الوالى وللدقتردار وكيل ومهردار أى حامل اختام وموظفون
يعملون تحت إدارته يسمون الافندية .

والديوان الدفتري هو عصب النظام المالى القائم على نظام الالتزام فكان
الديوان يتولى جميع عمليات الالتزام : يطرح مقاطعات الالتزام فى المزداد،
ويقرر اسم الشخص الذى يرسو عليه المزداد، وترفع إلى الديوان الدفتري أوراق
الملتزمين من ديوان الروزنامة التابع له، فيقوم بفحصها ويضيف إليها البيانات
اللازمة ثم يحولها بدوره إلى الوالى فى "عرضحال" خاص.

ثانياً : ديوان الروزنامة :

هو الديوان الذى يقوم بتحريز الحسابات فى الدفاتر الرسمية وضبط هذه الحسابات وهو يتبع الديوان الدفترى ويقوم بالعمل فيه كتبه يطلق عليهم لفظ الأفندية. وكان الأفندى يعمل فى هذا الديوان مدى الحياة ويرثه فى عمله ابنه بعد التمرن على أعمال الروزنامة. والمدير العام لديوان الروزنامة يسمى الروزنامجى، ويعينه الوالى بعد موافقة شيخ البلد والصناجق ورؤساء الأوجاقات، وللروزنامجى مساعدون أهمهم أربعة يسمى كل منهم قلفة(١)، ومن هؤلاء القلفاوات يتكون مكتب مدير الروزنامة، ويشرف القلفاوات على أعمال الحسابات التى يقوم بها الأفندية ويراجعون السجلات التى تحت أيديهم. ويضم ديوان الروزنامة عدة أقسام تسمى مقاطعات يرأس كل منها أفندى يسمى مقاطعجى. وتوزع أعمال ديوان الروزنامة على هذه المقاطعات، ويوجد بها سجلات عديدة متنوعة منها سجلات معتادات الآستانة وسجلات أموال الحرمين وسجلات الغلال المخصصة للوالى وللدفتردار ولقاضى عسكر افندى ولأمرء الصناجق، وسجلات الغلال المطلوبة من أقاليم الوجهة القبلى وسجلات التزامات الأراضى الزراعية وسجلات التزامات الجمارك وسجلات الأراضى الموقوفة وسجلات الاحسانات. وكانت بالمقاطعات أيضاً السجلات العسكرية وهى الخاصة بمرتبات العسكريين والمرتبات الاضافية التى تمنح لهم. وكان يطلق على هذه السجلات "مواجبات العسكر وجامكياتهم"(٢) وكان

(١) قلفة كلمة تركية معناها كبير البنائين أو أدم الجوارى ومعناها هنا أدمم الكتاب أو الدرهم لى ديوان الروزنامة .

(٢) موجبات العسكر معناها المرتبات الثابتة التى يتقاضاها الجنود وجامكية بمعنى عروقة أو الأغنية أو بدل الأغنية .

يعاون أفندية الروزنامة فى تشهيل مرتبات العسكريين أفندية الاوجاق :

السبعة الممثلين فى ديوان الروزنامة

وهناك طوائف أخرى من موظفى ديوان الروزنامة منها التذكرة جى :
وكان يختص بتحرير تقاسيط الالتزام ويحرر التذاكر الديوانية عن المرتبات
المختلفة والمخصصات الأميرية والتاريخى وهو : الذى يضع تاريخ كل
مستند رسمى وروزنامة جى وإردات وهو : الذى يقيد وإردات الوالى العثمانى
وأمين صناديق وهو : بمثابة أمين محفوظات الروزنامة والمهردار وهو :
حامل اختتام الروزنامة .

ثالثاً : نصيب العسكريين العثمانيين فى الإدارة المالية :

مر بنا أن الوظيفة الرئيسية لإحدى فرق الحامية العثمانية وهى أوجاق
جاوشان تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزانة
الروزنامة. كما كان من بين واجبات بعض الفرق العسكرية الأخرى مساعدة
الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين .

الزراعة

- إهمال الحكومة للقطاع الزراعى :

الزراعة هى عصب الاقتصاد القومى فى مصر فكانت منذ أقدم العصور ولا تزال حتى إلى اليوم أهم مرفق فى حياة البلاد الاقتصادية، وفى عهود الإصلاح تظفر الزراعة بأوفى نصيب من عناية الحكومة فتحفر الترع وتقيم السدود وتنظم استخدام مياة الري فتزداد مساحة الأراضى المزروعة وتزداد كثافة الإنتاج الزراعى وفى عهود التأخر تغير الصحراء على الأراضى الزراعية فتتكمش مساحتها ويغدو الإنتاج الزراعى قليلاً .

ولم يكن للحكومة فى مصر فى العهد العثمانى سياسة زراعية تستهدف زيادة الإنتاج أو استغلال الأراض استغلالاً زراعياً منظماً بل على العكس أرهقت الحكومة الفلاحين من أمرهم عسراً. بما فرضته عليهم من ضرائب عديدة مختلفة الاسماء والنفقات. وعجزت عن بسط حمايتها على الفلاحين والحقول من غارات القبائل العربية الضاربة فى مناطق الصحراء وعلى حافة المناطق الزراعية عندما يحين موسم الحصاد، كما أن الحروب التى يشنها الأمراء المماليك بعضهم على بعض كانت سبباً فى اجتياح حقول الفلاحين وهلاك مزارعهم .

وكانت تستخدم فى الزراعة الأساليب البدائية البسيطة والآلات الأولية مثل المحراث والنورج والزحافة وما إلى ذلك. وكان نظام الري السائد هو ري الحياض فكانت الأراضى - لا تزرع أكثر من مرة واحدة فى السنة - ولذلك كانت محاصيل مصر شتوية مثل القمح والشعير والبصل والكتان أما القطن الذى كان يزرع فكان من نوع ردى يستهلك فى المنازل والمناسج

المحلية وكانت الزراعة تقوم على المجهودات الفردية .

٢ - ملكية الأراضي الزراعية :

فتح السلطان سليم الأول مصر عنوة فأصبح هو المالك لجميع أراضيها طبقاً لمبدأ فى الفقه الإسلامى يقول أن الأرض التى تفتح عنوة تصبح ملكاً لفاتحها، أما إذا فتحت صلحاً فإنها تكون مناصفة بين فاتحها وبين أصحابها الأصليين، ولم تكن ملكية السلطان سليم لجميع الأراضي الزراعية شيئاً جديداً بالنسبة لمصر فقد كانت النظرية السائدة فى مصر منذ أقدم العصور أن الحاكم هو المالك لجميع الأراضي وكان مبعث هذه النظرية أمرين :

أولاً : توالى الفتوح الأجنبية على مصر وكان الفاتح يدعى ملكية الأرض بحق الفتح وقد فعل هذا البطالمة والرومان والعرب والسلطين المماليك والعثمانيون وكذلك انتحل محمد على نفسه حق ملكية الأراضي الزراعية على أساس أنه ممثل السلطان ونائبه فى مصر .

ثانياً : أهمية الدور الذى تقوم به السلطات الحكومية فى القطاع الزراعى فى مصر من حفر الترعى وإقامة القناطر والاشراف على توزيع مياه الرى فإذا لم تقم الحكومة فى مصر بهذه الاعباء "تدهور الزراعة" .

ولكن التطبيق العملى لهذه النظرية - ونعنى بها ملكية الحاكم لجميع الأراضي الزراعية - كان ضربياً من المستحيلات، لأن الحاكم لا يستطيع زراعة هذه المساحات الشاسعة من الأراضي بنفسه مهما كانت إمكانياته . فكان يتصرف فيها على نحو من التحوين الآتيين : أما أن يوزعها على أتباعه وأعدائه ورجال حاشيته فى مقابل الخدمات التى يقومون بها، وهؤلاء يقسمونها على أتباعهم الذين يقسمونها مرة أخرى على آخرين ويستمر التقسيم حتى تقسم الأراضي نهائياً على الفلاحين الذين يقومون بزراعتها ويدفعون عنها الضرائب وأما أن يقسمها الحاكم بين الزراعين فيكون لهم حق

استثمارها في مقابل دفع الضرائب المفروضة عليها: وتدفع هذه الضرائب إما نقداً وإما عيناً أى من نفس المحصول .

ولما فتح العثمانيون مصر: وجدوا أن الأرض الزراعية فيها مقسمة إلى أنواع مختلفة هي :

١ - الرزق السلطانية وهي : الأراضى الموقوفة على الحرمين في مكة والمدينة وعلى مختلف وجوه البر من الأهالى المستحقين .

٢ - الرزق والإقطاعات الجيشية وهي : الأراضى الموقوفة على الأمراء والجنود ولوجوه البر .

٣ - رزق الأهالى : المحبوسة على وجوه البر .

٤ - أراضى يحوزها الأفراد بالشراء من بيت المال .

٥ - الأراضى الديوانية : وهي أغلب أراضى مصر والتي يجمع منها خراج البلاد .

وقد عنى العثمانيون بحصر هذه الأراضى وبخاصة الأراضى الديوانية وتقدير الضرائب المقررة عليها وتحديد أقطاطها وفى مستهل الحكم العثمانى لمصر كانت الحكومة تتولى جمع الضرائب من الفلاخين تحت اشراف حكام الأقاليم من الصنایق والكشاف ولكن بعد أن ضعفت الدولة العثمانية وتضاءل نفوذ الولى والحامية العثمانية قلت حصيلة الضرائب فلجأت الحكومة إلى اتباع أسلوب آخر فى جمع الضرائب يضمن لها الحصول عليها بأيسر السبل

(١) الوقف : هو تخصيص دخل الأرض لفرض معين تبعاً لإرادة من يمتلك الأرض ويسمى الوقف وقد يخصم الوقف دخل الأراضى الموقوفة على عمل أو أعمال خيرية يحددها الواقف وهذا ما يسمى الوقف الخيري، وقد يخصم الوقف الإيراد لأفراد عائلته فإذا انقرض المستحقون يصير الإيراد لى وجه من وجوه الخير والبر وهذا ما يسمى الوقف الأهلى ومن خصائص الوقف أن الورثة لا يستطيعون التصرف فى الأرض بالبيع أو الرهن أو التبرع أو أى وجه من وجوه التصرف وكانت أراضى الوقف معفاة من الضرائب .

وكان هذا الأسلوب هو نظام الالتزام وهو نظام قديم في مصر .

٢- نظام الالتزام

وتبعاً لهذا النظام كانت الحكومة لا تتولى تخصيص الضرائب المقررة على الأراضي الزراعية من الفلاحين وإنما كانت تعطى هذا الحق أما بطريق الاتفاق وإما بطريق المزايدة وهو الأكثر شيوعاً لبعض الأمراء الأقوياء من المماليك أو العثمانيين من رجال الحامية أو التجار أو مشايخ العرب فيلتزمون تحصيل الأموال من الفلاحين في منطقة معينة تسمى دائرة الالتزام وكان الملتزم يدفع للحكومة المال المقرر لسنة واحدة عن دائرة التزامه مقدماً .

وعندما يرسو المزارع على الملتزم كان الديوان الدفترى يحرر له عقد الالتزام أو تقسيط الالتزام وتحدد فيه دائرة التزامه والأموال المقررة عليها ويصب إليه أن يعامل الفلاحين بالرحمة والعدل كما يرفق بهذا التقسيط أمراً يسمى (قاميك) وهو عبارة عن خطاب موجه للأهالي المقيمين في دائرة الالتزام كي يؤديوا له الضرائب المفروضة عليهم وكانت تحرر بها تذاكر ديوانية . وهي تحدد الأموال المفروضة على الأراضي وتسلم إلى سكان كل قرية حتى لا يطلب منهم الملتزم أكثر مما هو مفروض عليهم ... وكان الملتزم يقسم الأرض الواقعة في دائرة التزامه بين الفلاحين بنسب تتفاوت مساحتها بين فدان وعشرة أفدنة ويعطى كل فلاح المساحة التي يستطيع زراعتها حسب إمكانياته المالية والجسمانية كما كان الملتزم يحتفظ لنفسه بقطعة أرض تسمى الوسية يزرعها الفلاحون لحسابه الخاص وبطريق السخرة ويستولى على غلاتها وكانت أرض الوسية معفاة من الضرائب وتعتبر معونة من الحكومة للملتزم لمساعدته في القيام بواجبات الالتزام وضيافة موظفي الحكومة عند مرورهم في دائرة التزامه .

وكان الالتزام يعطى أول الأمر لمدة سنة أو بضع سنين ثم أصبح يعطى مدى الحياة . وعند وفاة الملتزم تنتقل إلى ورثته الأراضي التي كانت فى دائرة التزامه إذا دفعوا مبلغاً من المال يسمى الجليوان . أو تطرح أراضى الالتزام فى المزاد وترسو على ملتزم جديد .

أما الفلاح فكان يحوز الأرض التى يزرعها ولكنه لا يمتلكها فلا يحق له أن يبيعها أو يرهنها وكان إذا تأخر فى دفع الضرائب تنزع منه الأرض وتعطى لغيره، وإذا مات الفلاح يرث أبناؤه حق حيازة الأرض وحق زراعتها طالما كان فى مقدورهم زراعتها ودفع الضرائب المقررة عليها وكان الملتزم فى العادة لا يعارض فى هذا الإجراء وهكذا ترى أنه إذا لم يكن للملتزم ورثة أو توقف عن دفع الضرائب عادت أراضيه للحاكم وكذلك الفلاح إذا لم يترك ورثة أو توقف عن أداء الضرائب عادت أراضيه للملتزم .

وكانت دائرة الالتزام فى بعض الأحيان واسعة رحبة تشمل عدة قرى وكان الملتزم يشرف على هذه القرى الواقعة فى دائرة الالتزام بمساعدة بعض الأفراد منهم :

١ - شيخ البلد : يشرف على الأراضى ويراقب أهل القرية ويقوم بدور الوسيط بين الملتزم وبين الفلاحين فيبلغ أوامر الملتزم إلى الفلاحين ويعرض طلباتهم عليه ويحل محله أثناء غيابه. وكان شيخ البلد يخطر الملتزم باسماء الفلاحين الذين يمتنعون عن تنفيذ الاوامر وكان لهؤلاء المشايخ أرض معفاة من الضرائب ولهم عوائد مقررة يأخذونها من الملتزم وإذا عين الملتزم أكثر من شيخ كان أكبرهم يسمى شيخ المشايخ .

٢ - الشاهد : يمسح الارض ويحفظ سجل الأراضى الذى تدون فيه مساحتها واسماء مستثمريها من الفلاحين وفئات الضرائب المفروضة عليها .

٣ - الصراف : يجمع الضرائب النقدية والعينية طبقاً للتوزيع المدون

بسجل الشاهد ويسلم هذه الضرائب إلى الملتزم .

٤ - الخبولى :- يعرف حدود القرية وحيود كل تكليف (أى ملكية) ويفصل فى المنازعات التى تقوم فى هذا الشأن كما أنه يقوم بإدارة أراضى الوسية .

٥ - المشد :- ينفذ العقوبات على الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب أو يرفضون العمل فى أرض الوسية وكان الجلد هو العقوبة الشائعة فى هذا الوقت التى يتعرض لها الفلاحون .

٦ - الكلاف :- يقوم بخدمة مواشى الوسية ومواشى الفلاحين التابعين لدائرة الالتزام وكان لكل قرية امام ونجار وحداد وحلاق يعيشون على ما يدفعه لهم الفلاح فى موسم كل محصول من المحصولات الزراعية ويقدمون خدماتهم لجميع أفراد القرية .

ويؤخذ على نظام الالتزام أن الفلاح قد فقد الرغبة فى العمل بشكل جدى ولم يكن يبذل قصارى جهده فى الإنتاج وتحسين الأرض والنهوض بالزراعة لأنه كان يعرف أن الأرض التى يزرعها ليست ملكاً خالصاً له وقد قيل أن سحر الملكية يحول التراب تيرا . وهناك كتاب يسمى هز القحوف (١) فى شرح قصيد (٢) أبى شادوف للشيخ يوسف محمد خضر الشريينى وقد أعطى المؤلف الفلاح المصرى اسماً مزيماً هو أبو شادوف ويوضح هذا الكتاب فى اسلوب تهكمى لاذع قلة تكئين الفلاح وانغماسه فى الجهل الدينى وهو يعطينا صور عن الفلاح فى ذلك الوقت .

(١) القحوف : جمع حقف وهو العظم الذى فوق الدماغ وهو أيضاً أناء من خشب على مثله أو لينة تنطى بها الراس .

(٢) القصيدة جمع قصيدة من الشعر .

كان الفلاح فى ظل نظام الالتزام، يؤدى الضرائب تقدماً نوعياً وعملاً،
الضرائب النقدية والغينية فيبدأ يقدمه الفلاح للملتزم من أموال
في مقابل حيازة الأرض، أما الضريبة التي يؤديها عملاً فكانت
الحكمة التي يقوم بها فى أرض الوسية .

وكاد الفلاح فى ظل نظام الالتزام أن يصبح رقيقاً فالملتزم كان يفرض
على الفلاح رقابة دقيقة خشية أن يهاجر الفلاح إلى منطقة أخرى ولا يجد
الملتزم الأيدى العاملة التي تزرع الأرض ولا يجد من يقدم له الضرائب وقد
ينتهى الأمر بالملتزم إلى أن يفقد حق الالتزام .

ولكن من ناحية أخرى اكتسب الفلاح نوعاً من الضمان وأصبح له
الحق فى زرع جزء معروف من الأرض وأصبح هذا الحق متوارثاً. فوجدت
سلطة مشتركة بين الفلاح والملتزم فمصلحة الملتزم كانت تتطلب مساعدة
الفلاح ومزاولة حالة الفيضان والأيرهقه من أمره عسراً فى زراعة أرض
الوسية حتى يستمر الفلاح مقيماً فى أرضه ولا يضطر إلى الهجرة من
القرية وفى نفس الوقت كانت مصلحة الفلاح أن تتوفر له أسباب
الاستقرار فى أرضه .

وقد عاد نظام الالتزام على الحكومة بعدة فوائد منها أنه ضمن زراعة
الأراضي واستثمارها كما أنه كفى الحكومة عناء الاتصال بالفلاحين اتصالاً
مباشراً وأصبحت تتصل بفتة قليلة العدد نسبياً هي فتة الملتزمين .

وقد أفاض المؤرخون فى الكتابة عن مساوى نظام الالتزام والواقع أن
المساوى التي كشف عنها تطبيق هذا النظام فى العهد العثماني لم تكن نابعة
من نظام الالتزام نفسه بل كانت نتيجة حتمية لحالة الفوضى والاضطراب
والحروب الأهلية وظلم الحكام عندما ضعفت الدولة العثمانية وكان من هذه
المساوى السلطة المطلقة التي أصبحت للملتزم على الفلاحين

حتى غدا الملتزم حاكماً بأمره في دائرة التزامه وأمعن في ظلم الفلاحين وفرض عليهم ما شاء له جشعه من ضرائب واثاثات ولم يكن الملتزم يعبأ بسلطة أخرى في دائرة التزامه غير سلطته. تضاف إلى هذه المسايئ الزيادة الصورية التي حدثت في عملية الالتزام وأغناء الاتباع والمحاسب من الحلوان وتحويل الالتزام قسراً وبدون وجه حق من شخص ضعيف إلى آخر قوى ذي عصبية وجاه. وكان الفلاح يدفع أكثر مما هو مقرر عليه من الضرائب .

٤ - ضرائب الأراضي الزراعية :

وكانت أهم الضرائب التي تجمع من الأراضي الزراعية هي :

أولاً : الميرى :

وهي الضريبة المقررة على الاطيان وسميت ميرى لأنها تذهب إلى الحكومة أو - الأمير - فلفظ ميرى مأخوذ من أمير وكانت هذه الضريبة أهم مورد للحكومة تعتمد عليه في تمويل خزائنها. وقد زيدت هذه الضريبة عدة مرات على تعاقب السنوات وأطلقت على الزيادة الأولى لفظ برانى لأنها خارجة عن الميرى، وأطلق على الزيادة الثانية لفظ مضاف، وعلى الزيادة الثالثة فرط ثم عدة مضافات أخرى، وكانت هذه الضريبة تجمع من الفلاحين على أقساط شهرية على عهد السلطان سليمان المشرع ثم قررت الحكومة أن يتم تحصيلها على قسطين سنويين أحدهما في الصيف واخر في الشتاء. ومن حصيله هذه الضريبة كانت تدفع مرتبات الجنود ونفقات المشروعات العامة كشق الترع وإقامة الجسور إبان الفيضانات الغالية، ثم نفقات أمير الحج وصرة الحرمين. وما يتبقى من حصيله هذه الضريبة كان يضاف إلى خزينة السلطان التي كانت تتكون من فائض ضريبة الميرى ومن المبالغ المفروضة على أصحاب الوظائف ومن رسوم الجمارك ومن جزية أهل الذمة. ولم تكن

خزينة السلطان توجه كلها إلى السلطان فكان "يخصص جزء منها لتزويد فقراء الأراضى المقدسة فى الحجاز بالأموال والغلال ولتعمير بعض المساجد والتكايا وبناء السفن وشراء معتادات استانة، وما يتبقى بعد ذلك يرسل إلى السلطان ويتضح من هذا أن السلطان لم يسرف فى استغلال مصر من الناحية المالية كما أن مصر لم تكن على عهد الحكم العثمانى مزرعة للقسطنطينية كما كانت مصر مزرعة لروما على عهد الحكم الرومانى .

ثانياً : مال الكشوفية :

هى ضريبة يقوم الكشاف بجمعها من بعض القرى وتخصص حصيلتها لمواجهة نفقات الإدارة المحلية فى الاقاليم مثل مرتب الكاشف ومرتب العسكر المحليين وترميم الجسور .

ثالثاً : رسوم الجاوشان :

هى رسوم مقررة لافراد أوجاق الجاوشان فى مقابل قيامهم بجمع اقساط المال الميرى من الملتزمين والكشاف. وكان ديوان الروزنامة يصرف لهم تذاكر الجاوشان وتكتب فيها البيانات عن الضرائب المستحقة عن كل اقليم .

رابعاً : مال كوركجيان :

هى ضريبة يدفعها السكان فى القرى لتنظيف العاصمة وازالة الأتربة منها كما ينفق من حصيلتها على ترميم الجسور. ويلاحظ أن لفظ كورك معناها أداة الجرف .

خامساً : مال الحماية :

هى اسم على غير مسمى فهى ضريبة فرضت على أراضى الأوقاف يدفعها المستحقون فى مقابل حماية أراضيهـم من العدوان. وكان الملتزمون يشرفون على أراضى الأوقاف وينفقون جزءاً من إيرادها على المستحقين أو وجوه البر المخصصة لها والجزء الباقي يحتفظون به لأنفسهم. وكان يشترك

معهم فى ذلك بعض رجال الدين .

سادساً : ميرى الاوقاف :

كان يفرض على جهات خاصة محبوسة على اوقاف الدشيثة الكبرى والدشيثة المحمدية والدشيثة الاحمدية والدشيثة المرادية والدشيثة هى طعام يتخذ من قمح مرضوض والدشيثة الكبرى عبارة عن وقف يرجع إلى عهد السلطان قايتباى من سلاطين الدولة المملوكية أما الدشايش ا خرى فترجع إلى العهد العثمانى وكان الملتزمون يجمعون إيراد هذه الأوقاف وينفقونها فى الوجوه المخصصة لها مثل أطعام أهل الحرمين وكذلك الفقراء فى شهر رمضان والاعياد والمواسم الإسلامية .

وفى جهات الدلتا كانت كل هذه الضرائب تدفع نقداً وبخاصة ضريبة الميرى أما فى الوجه القبلى اعتباراً من بنى سويف إلى أسوان فكانت الضرائب تدفع عيناً أى من نفس المحصول .

سابعاً : ضرائب متنوعة :

كانت هناك ضرائب متنوعة تفرض أما على الحرف وأما على الأفراد مثل الضرائب المفروضة على المطربين والمطربات والموسيقيين والحواة والرسوم المفروضة على الحانات والسفن والسلع أمام أبواب المدن وفى أسواق المدن وعلى الصيد والملح وعلى خروج الأجانب وكذا دخولهم وضرائب لأختراق مناطق يسيطر عليها اللصوص وقطاع الطرق كما كانت هناك ضرائب أخرى على بعض الموظفين فى مقابل انتفاعهم ببعض الامتيازات مثل ضريبة الكشوفية الصغيرة المفروضة على الكشاف وعلى الدقتردار والواجقات وعلى بعض افندية الروزنامة وكان يحصل من الباشا نفسه (مال ميرى) فى مقابل انتفاعه ببعض الالتزامات وكانت هناك ضريبة الجزية أو الجوالى وهى مفروضة على الذكور البالغين من النصرارى واليهود

وكان يحضر إلى مصر كل سنة مندوب من قبل السلطان لجمعها .

ثامناً : ضرائب وقتية :

كانت الحكومة تنتهز فرصة انتشار الأوبئة والطواعين في مصر
فدريض ضريبة على دفن الموتى كما كانت تفرض في بعض الأحيان ضريبة
على رجال الأدب .

لكن الحكومة تراعى العدالة بين دافعى الضرائب ولا وقت جبايتها
ولا اختيار الوقت المناسب لقدرة الممولين ولا مراعاة المساواة فى جمع
الضرائب. بل كان تقدير الضرائب وتحصيلها منوطين برغبة الحكام وحاجتهم
الى المال ولذلك اتسم جمع الضرائب فى هذا العهد بألوان من الظلم والقسوة.
ويلاحظ أنه لما ضعفت الدولة العثمانية واستبد الأمراء المماليك بالحكم
امتنعوا فى بعض السنوات عن ارسال الجزية إلى السلطان فكان الأخير يرسل
مندوبين عنه إلى مصر للإشراف على ارسالها وقد أرسل فى بعض الأحيان
حملات حربية لتأديب المماليك وأرغامهم على ارسال الجزية وكان المماليك
أثناء القرن الثامن عشر يفرضون على التجار الاجانب غرامات أو مغارم
استبدادية لا يستطيعون الامتناع عن دفعها وفزعوا إلى حكوماتهم يشكون إليهم
تصرفات المماليك معهم .

الصناعة

تأخرت الصناعة في مصر عما كانت عليه في عهد دولة المماليك الجراكسة ويرجع ذلك إلى أن السلطان سليم قد أمر بترحيل الصناع المصريين البارزين في الصناعات المصرية إلى القسطنطينية ليقوموا على تعليم الأتراك أسرار صناعتهم، فكان إرتحالهم نذيراً باضمحلال الصناعة المصرية. كما كان من أسباب تدهور الصناعة انتقال مركز الحكم ومقر الخلافة من القاهرة إلى القسطنطينية فقلت مظهر الترف وأبهة الحكم وتأخرت الصناعات الخاصة بالكماليات. ولم يظفر القطاع الصناعي باهتمام السلطات الحكومية في مصر اللهم إلا تحصيل الضرائب من أرباب الحرف والصناعات وكان الجيش والاسطول في عهود الاستقلال التي سبقت الفتح العثماني أساساً لكثير من الصناعات الحربية مثل الأسلحة والدروع والخيام وصناعة بناء السفن فلما فقدت مصر استقلالها اضمحلت الصناعات الحربية تدريجياً يضاف إلى هذه الأسباب فقر السواد الأعظم من الشعب المصري وبالتالي هبوط مستوى المعيشة وضعف القوة الشرائية عند المصريين .

وكان من أهم الصناعات التي بقيت في العهد العثماني غزل ونسج الأقمشة القطنية والصوفية والكتانية وصناعة اللبد التي يستعملها الفلاحون وصناعة الأكلمة والاشرعة للمراكب والحصر واستخراج الزيوت من بذور الخس والقرطم والسهم والكتان وكان الزيت يعصر في معاصر يديرها الحيوان . وكذلك الصناعات الخاصة بالبناء كضرب الطوب وصنع الجير والجبس والمصيص وصناعة التطريز والنحاس والفضة وضرب الأرز وصناعة السكر (ويلاحظ أن صناعة تكرير السكر لم تكن معروفة في مصر

حتى ذلك الوقت) وكانت معظم الصناعات يدوية وبعضها يعتمد على قدر الحيوان. وكانت أشهر المراكز الصناعية في ذلك العهد توجد في القاهرة والإسكندرية ودمياط وأسيوط وقنا .

وكانت للصناعة في مصر إبان الحكم العثماني عدة خصائص نذكر

منها :

أولاً : أن الصناعة المصرية كانت على الرغم من تأخرها تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتي بمعنى أن الشعب المصري في مجموعه كان يأكل ويلبس من إنتاج مصنوعات بلاده نفسها أما الأغنياء مثل : الأمراء المماليك وبعض العلماء المصريين ومن إليهم فكانوا يستكملون حاجياتهم باستيرادها من الخارج مثل الأجواخ والأقمشة الحريرية والسجاجيد وغيرها ولكن كانت الصناعة المصرية تفي بحاجات السكان ولا يؤثر في أهمية هذه الظاهرة أن مطالب المصريين كانت محدودة وكذا قدرتهم الشرائية ضعيفة وعلى ذلك فإن مصر كانت في العهد العثماني تعتمد على الصناعة الوطنية أكثر من اعتمادها عليها في القرن التاسع عشر .

ثانياً : توصف الصناعات المصرية في ذلك العهد بأنها صناعات صغيرة وليس معنى ذلك أنها صناعات ضئيلة الأهمية بل المقصود أنها كانت لا تمارس في مصانع كبيرة ولا يشترك فيها عدد ضخم من العمال ولا تستخدم فيها آلات ميكانيكية فالصانع يباشر حرفته في إحدى غرف منزله أو في دكان صغير يكون عادة مجاوراً لسكنه. وكان الصانع يشتغل بمفرده أو بمعاونة عدد قليل من المساعدين أو الصبيان وكانت آلات متواضعة بسيط تدار أما باليد أو بقوة الحيوان .

ثالثاً : ارتبطت الصناعة في مصر بقيام نقابات الحرف .

نقابات الحرف :

ونقابات الحرف فى العهد العثمانى لها مدلول يختلف كل الاختلاف عن مدلول كلمة نقابات العمال فى العصر الحديث. فإذا قلنا فى الوقت الحاضر نقابة عمال مؤسسة النقل العام بمدينة القاهرة انصرف الذهن إلى أن جموع العمال الذين يشتغلون فى المؤسسة كأجراء قد اتحدوا وكونوا لأنفسهم نقابة تطالب بحقوقهم وتدافع عن مصالحهم وتعرض على ذوى الشأن مطالب العمال مثل الاستمرار فى صرف الأجور أثناء الأجازات المرضية أو منح أجازات سنوية بأجر كامل أو تقرير مكافآت عند ترك العمل وما إلى ذلك. وقد شهدت معظم دول أوروبا هذا التنظيم فى القرن التاسع عشر كنتيجة من نتائج الأتقلاب الصناعى فيها وانتقل إلى مصر فى القرن العشرين .

أما النقابات الحرف التى كانت قائمة فى مصر فى العهد العثمانى فتتظيم يجمع جميع الأفراد المشتغلين بحرفة واحدة بصرف النظر عن وضعهم فى هذه الحرفة فهى تضم العمال المأجورين كما تضم أصحاب العمل أى أصحاب رأس المال وكانت لكل نقابة أربعة مهام :

أولاً : مهمة الأشراف الفنى على الصناعة :

فهى تنظم الناحية الفنية للصناعة وتشرف عليها وتتخذ كل الوسائل للنهوض بالصناعة أو الحرفة والمحافظة على مستوى معين فمثلاً نقابة النسيج كانت تضم جميع النساجين الذين ينسجون الحرير والصوف والكتان وما إلى ذلك وكانت النقابة تضع القواعد والنظم التى يسير عليها هؤلاء النساجون فتشترط النقابة شروطاً معينة فى النسيج نفسه وفى المادة الخام التى تستخدم فى النسيج وعدد الأنوال ونوع الصباغة وبعد ذلك تحدد الأسعار وتحدد المقاييس والمكاييل والموازين المستعملة بطريقة تضمن حقوق كل من

البائع والمشتري . حتى تقضى النقابة على أساليب الغش وغيرها من العوامل التي تدهور صناعة النسيج .

وهكذا كان دور النقابة : العمل على ائتان الصناعة .

ثانياً : مهمة تدريبيّة :

كانت النقابة تضم ثلاثة عناصر : المعلم والعريف والصبي فالمعلم : يكون ملماً بكل دقائق الحرفة التي يمارسها وكان المعلمون ينتخبون من بينهم رئيساً يسمى شيخ النقابة . وأما العريف : فهو أجير يعيّن في الغالب عند المعلم الذي يتكفل بايوائه واطعامه وكل معاشه لا يستخدم أكثر من عريف واحد أو عريفتين على الأكثر تبعاً لإتساع نطاق نشاطه التجاري وتتراوح مدة عمل العريف بين ثلاث سنين وخمس سنين ويكون هناك اثناءها ارتباط أدبي بين المعلم والعريف فلا يجوز للعريف ترك معلمه خلال هذه المدة وإذا تركه فلن يجد معلماً آخر يقبله، كما كان المعلم لا يستطيع الاستغناء عن العريف قبل انقضاء مدته بدون سبب قوي. فإذا انتهت المدة جاز للعريف أن يصبح معلماً ويطلب منه في هذه الحال أن يقدم عملاً يثبت أنه قد أصبح على حظ موقور من البراعة والدقة في ممارسة حرفته. ويعرض هذا العمل أو الإنتاج على المعلمين وشيوخ النقابة فإذا وافقوا عليه أعطاه الشيخ شهادة تسمى رخصة تخول له مزاوله المهنة باعتباره معلماً وتعطى له هذه الرخصة في حفل تتلى فيه آيات من القرآن الكريم ويدعى إلى الحفل اقارب المعلمين وشيوخ النقابة وبعد هذا الحفل ينتقل العريف إلى مرتبة المعلم ويستطيع أن يعمل مستقلاً .

أما الصبي : فيعيش عند المعلم ويتعهد بطاعته ويقوم المعلم بتدريبه تدريباً فنياً على الحرفة التي يزاولها وتبلغ مدة تمرين الصبي سبع سنوات فإذا ما انتهت مدة التدريب يعقد له امتحان عملي فإذا اجتازه بنجاح رقى إلى مرتبة العريف. وكان لكل معلم عدد من الصبيان لا يجوز له أن يتجاوزه.

ثالثاً : مهمة تنظيمية :

كان شيخ النقابة يتولى شئونها فيعاقب من يخالف نظمها وتقاليدها وكان يحسم ما قد ينشأ من النزاع بين المعلمين والعرفان والصبيان أو ما قد يحدث بين المنتجين والمستهلكين ومراقبة المقاييس والموازن وتقدير الثمن المعتدل. وكان الشيخ مسئول أمام الحكومة وقد رحبت الحكومة بهذه التنظيمات لأنها خلصتها من عبء مراقبة الصناعة ومكافحة الغش التجارى وغير ذلك من الأمور التى أصبحت تتولاها النقابة ومن جهة أخرى كانت الحكومة تستولى من شيخ النقابة على الضرائب المطلوبة من المشتغلين بهذه الصناعة ويقوم الشيخ بدوره وبتحصيلها من أفراد النقابة .

رابعاً : مهمة اجتماعية :

كانت تربط أفراد النقابة على اختلاف مراتبهم علاقات شخصية وثيقة وذلك بسبب طول مدة التمرين والرقابة الدقيقة على الصناع وقد وجدت هذه العلاقات جواً اجتماعياً من الإخاء والتعاون والارتباط بين أفراد المهنة الواحدة وكانت النقابة تقوم بخدمة اعضائها اجتماعياً عن طريق تحقيق نوع من الضمان الاجتماعى وتقديم المساعدات لمن يصاب منهم بمرض أو عجز فإذا مات أحد أعضاء النقابة اشترك سائر الأعضاء فى تشييع جنازته واهتموا بأمر أسرته .

وكان أفراد النقابة يشتركون فى المواكب الدينية كالمولد النبوى الشريف واعلان بدء شهر الصيام أى موكب رؤية هلال رمضان وسفر المحمل وعودته كما كانوا يشتركون فى الحفلات القومية والمناسبات السياسية مثل حفل وفاء النيل وقدم الوالى العثمانى الجديد إلى القاهرة وذهابه فى موكب رسمى من بولاق إلى القلعة وكانت كل نقابة تجتهد فى أن تظهر فى مثل هذه

المواكب بمظهر مشرف خلاب من كثرة عدد أفرادها وارتدئهم أفخر ما لديهم من ملابس وكان لكل نقابه أعلامها وطولها وشاراتها .

وقد كثر عدد النقابات إلى حد بعيد في ذلك العهد حتى شملت جميع الحرف تقريباً حتى الحرف البسيطة التي كانت تعتبر قليلة الشأن أو وضعية فكان للشحاذين نقابة وكذلك للقردياتية وكان للصوص نقابة وإذا وقع حادث سرقة لجأ المجنى عليه إلى شيخ نقابة للصوص فيساعده على استرداد مسروقاته أو على الأقل جزء منها ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد فإذا وقعت سرقة واكتنف هذا الحادث الغموض فإن السلطات الحكومية كانت تلجأ إلى شيخ الصوص الذي يساعدها على اكتشاف الجريمة. ومما هو جدير بالذكر أن نقابات الحرف كانت موجودة في أوروبا في العصور الوسطى وتشابهت إلى حد كبير نقابات الشرق . من حيث تكوينها واختصاصاتها .

ولكن يؤخذ على نقابات الحرف أنها كانت تثقل روح الابتكار والتجديد وكانت عاملاً من عوامل الجمود فعزلت التقدم الصناعي وأخرت تطوره، كما أنها كانت تنطوي على تقييد الحرية الشخصية وتضييق النطاق على الصناعة لأنها كانت تحرم على أي شخص تتوفر لديه الأموال أن يفتتح مصنعاً ليمارس فيه الحرفة أو الصناعة ما لم يكن من أعضاء النقابة فحرية الاحتراف لم تكن مطلقة كما هي في الوقت الحاضر ولكن هذا التقييد قد أقاد الصناعة فحافظ على مستوى رفيع فيها لأن الحرية في فتح المصانع تؤدي إلى دخول صناغ غير مدربين وغير مهرة في حظيرة الصناعة ومن ناحية أخرى كانت الصناعات يدوية يبدو فيها أثر براعة الصانع ومهارته وتدريبه وعلى هذا فنقابات الحرف على الرغم من بعض عيوبها كانت من أصلح الانظمة للصناعات في ذلك العهد .

التجارة

عند التعرض لموضوع التجارة فى مصر ابان العهد العثمانى يجب التمييز بين التجارة الداخلية وبين التجارة الخارجية .

التجارة الخارجية :

ذكرنا فيما سبق أن البرتغاليين استطاعوا فى نهاية القرن الخامس عشر الوصول إلى الهند عن طريق بحرى متصل هو طريق رأس الرجاء الصالح . وتلا هذا الحادث بعد عدة سنوات، فتح الأتراك العثمانيين لمصر وتضائل الحادثن معاً على توجيه ضربة قوية إلى اقتصاديات مصر التى كانت تعتمد اعتماداً رئيسياً على الرسوم الجمركية والمكاسب التى كان يدرها مرور متاجر الشرق بالأراضى المصرية فى طريقها إلى أوروبا. فقد أخذت البرتغال تتقل منتجات الهند وعلى الأخص التوابل على سفنها إلى لشبونة حيث كان يتلقفها التجار الأوربيون لتوزيعها فى البلاد الأوربية واختفت إلى حد بعيد عن أسواق الاسكندرية البضائع الهندية التى كانت تزخر بها هذه الأسواق وقد مجئ سفن البندقية إلى هذا الثغر المصرى واتجهت السفن إلى لشبونة لأخذ متاجر الهند منها وهكذا انتقل مركز التجارة الشرقية من الإسكندرية إلى لشبونة ووقدت مصر دعامة كبرى من دعائم ثروتها إذ هبطت حصيلة الضرائب الجمركية وقل ما كانت مصر تجنيه من أجور النقل وقد بذلت محاولات طوال عهد الحكم العثمانى لانعاش الحياة الاقتصادية وإعادة تجارة الهند إلى المرور بمصر كما كانت الحال قبل كشف طريق رأس رجاء الصالح . وقد أتخذت هذه المحاولات صوراً شتى منها تشجيع تجار البندقية على الإبقاء على علاقاتهم الاقتصادية بمصر ومن ذلك المعاهدة التى أبرمها

فى ١٤ فبراير سنة ١٥١٧ السلطان سليم الأول أثناء اقامته فى مصر مع جمهورية البندقية وقد أقر لتجار هذه الجمهورية الامتيازات التى كانت مقررة لهم فى عهد دولة المماليك وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة تعهد سلطان الدولة العثمانية بمعاملة البندقية بالاحترام والعدالة وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم أثناء اقامتهم فى الاسكندرية أو دمياط أو غيرها من ثغور مصر وألا يدفعوا أكثر من الضرائب المقررة وقنصل البندقية هو الذى يختص وحده بمحاكمة مواطنيه وليس للقاضى المسلم أن يتدخل فى هذا الشأن وليس للسلطات المصرية أن تتدخل فى أمر السفن البندقية التى تصل إلى المياة المصرية وللتقتصل أن يركب حصاناً يسير به إلى مصالح الحكومة المصرية أو إلى أى مكان آخر دون أن يتعرض له أحد بسوء .

وللبنادقة مطلق الحرية فى اصلاح وترميم مبانيهم أو اقامة منشآت جديدة لهم فى الحى الذى ينزلون فيه ولهم مطلق الحرية فى أن يستخدموا لهذا الغرض عمالاً من البنادقة أو من الأجانب أو من المصريين ويتمتع رعايا السلطان فى جمهورية البندقية والجزر التابعة لها بالامن وإذا استولى القراصنة على سفينة تتبع جمهورية البندقية وأتوا لبيعها فى ثغر مصرى لا يتقدم أحد لشرائها بل يجب اطلاق سراحها واعادتها واعادة متاجرها إلى اصحابها . واستهدف البعض اخر من هذه المحاولات حفر قناة تصل بين البحرين المتوسط والاحمر : ففى عهد السلطان سليمان القانونى فكر العثمانيون سنة ١٥٢٩ حفر القناة وبعد مضى أربعين عاماً حاول سنان باشا فاتح اليمن شق القناة حتى تتم عملياته الحربية فى منطقة البحر الأحمر فى يسر ونجاح سنة ١٥٦٩ ثم حاول السلطان مراد الثالث حفر القناة فى سنة ١٥٨٦ وخصص لذلك مائة ألف عامل وقد بقيت هذه المحاولات مجرد مشروعات .

وكان من بين هذه المحاولات أيضاً ما قام به فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بعض الأفراد من رعايا إنجلترا وفرنسا والنمسا لاهياء الطريق القديم : طريق البحر الأحمر ومصر للتجارة الهندية وقد اتجهوا فى مساعيهم لادى السلطان العثمانى فى القسطنطينية صاحب السيادة على هذا الطريق ولدى الأمراء المماليك فى القاهرة : يستصدرون من الأول ترخيصاً بالمرور فى هذا الطريق ويرجون من الأمراء المماليك ان يبسطوا حمايتهم على متاجرهم وسفنهم وأموالهم وانفسهم.. ولكن لم تؤد محاولاتهم إلى نتيجة ايجابية لعدة اسباب منها :

١ - اضطراب الأمن فى مصر وقد حدث أن هوجمت قافلة انجليزية فى سفرها من السويس إلى القاهرة ونهبت البضائع وجرى المسافرين من ملابسهم .

٢ - عدم استقرار الحكم فى مصر إذا كان يتنازع الحكم الفعلى طوائف من أمراء المماليك فإذا عقد اتفاق مع أمير لا يلبث أن يعزل أو يقتل ويتطلب الأمر بعد ذلك تجديد الاتفاق مع الأمير الذى يخلفه وهكذا .

٣ - معارضة الحكومتين البريطانية والعثمانية للفكرة وكان هذا هو السبب الاساسى. وقد عارضت الحكومة البريطانية الفكرة لأنها كانت تخضع سياستها الشرقية فى ميادين التجارة والاستعمار للاتجاهات التى تضعها شركة الهند الشرقية التى تأسست فى (٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠م) وعملت على احتكار تجارة الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وكانت هذه الشركة تخشى ظهور منافسة لها فى التجارة الشرقية أو متاعب تواجهها أو ضرائب تؤديها عن البضائع فى أثناء مرورها بمصر. وكانت هذه الشركة ترغب فى أن يكون اعادة الطريق القديم مقصوراً على نقل البريد. أما نقل المتاجر فلم ترض عن طريق رأس الرجاء الصالح بديلاً . وعلى ضوء موقف شركة

الهند أبدت الحكومة البريطانية معارضتها لدى الباب العالى .
أما الحكومة العثمانية فقد عارضت هذه المحاولات لأنها خشيت أن
يكون فتح البحر الأحمر للتجارة ودخول الأوربيين فى مياهه مقدمة لاستعمار
أوربى مسيحيى مقنع لا يلبث أن ينقلب إلى استعمار سافر لتلك الجهات
القريبة من الأراضى المقدسة الإسلامية وكانت الحكومة العثمانية لهذا السبب
ولاسباب أخرى ليس هنا مجال مناقشتها تحرم على السفن الاجنبية المسيحية
الملاحة فى مياة البحر الأحمر شمالى جدة، وقد أرسل سلطان الدولة العثمانية
إلى شريف مكة الذى كان يحكم الحجاز وميناء جدة يحذره من هذه المحاولات
ويطلب منه أن يتعظ بما حدث للهند على اساس أن الانجليز نزلوا فى الهند
أول الأمر تجاراً ثم أنشأوا محطات التجارة ثم أنشأوا قوات حربية لحماية
المتاجر واستخدموا هذه القوات المسلحة للتغلب على القوات الاهلية وانتهى
بهم الامر إلى أن غدوا سادة حكاماً وأرسل السلطان كتاباً بهذا المعنى أيضاً
إلى مصر لإحباط محاولات الاجانب فى اعادة الطريق القديم .

ولكن من الحقائق الثابتة أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح لم يقض
على التجارة الخارجية لمصر قضاء تاماً ولكنه أدى إلى هبوط هذه التجارة
ومن حيث مقدارها واهميتها هبوطاً كبيراً. فقد بقيت تمر بمصر بعض
البضائع المنقولة بين الشرق والغرب وخصوصاً بين أوربا وداخل افريقية
وفى بعض الاحيان بلاد العرب فالحاصلات الافريقية كانت تنقل بطريق
القوافل إلى مصر أما لاستهلاكها داخل البلاد وأما ليعاد تصديرها إلى أوربا
وكانت القوافل تأتي من السودان والحبشة وأواسط افريقية حاملة العاج
والصمغ العربى وريش النعام والتمر الهنذى والجلود والكحل والتمر . كانت
هذه القوافل تأخذ فى عودتها بضائع بعضها مستورد إلى مصر من الخارج
وبعضها مصنوع فى مصر كالمنسوجات. وكانت القوافل التى تأتي من

كردفان ودارفور - أى من غرب السودان - تسلك درب الأربعين فى صحراء ليبيا وسمى الدرب بهذا الاسم لان الرحلة فيه كانت تستغرق فيه أربعين يوماً، ثم تصل القوافل إلى اسيوط، أما القوافل التى تأتى من - سنار أى من شرق السودان - فكانت تسلك طريق الصحراء الشرقية وتصل إلى مصر عن طريق النيل وتتجه إلى اسوان وتتابع السفر شمالاً. أما بلاد العرب فكانت فى بعض الأحيان تصل إليهما حاجياتها من أوربا عن طريق مصر كما أنها كانت تصدر عن طريق مصر أيضاً حاصلاتها أو حاصلات شرقية بيعت فى بلاد العرب وكان البن هو أهم هذه البضائع وقد زاد قبائل الأوربيين على شرب القهوة وكثر الطلب على بن بلاد العرب ثم قلت تجارة البن العربى فى القرن الثامن عشر إذ ظهرت منافسة للبن اليمنى فى البرازيل وجزر الهند الغربية .

وكانت هناك قوافل أخرى ترد من بلاد شمال افريقية وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش لأن مصر ارتبطت بعلاقات تجارية مع شمالى افريقية فكانت ترد إلى مصر الطرايش والبطاطين والمصنوعات الجلدية مثل الاحزمة والبلىغ وكذلك الزيوت. وقد اتقن المغاربة صناعة الطرايش التى كانت سوقها رائجة لأن كثيراً من سيدات الطبقتين الراقية والمتوسطة كن يتزين بالطربوش بعد تحويله إلى نوع من الطاقة يغطى جزءاً من رؤوسهن ويرصعنه بقطع من الذهب وغيره من الأحجار الكريمة .

وفى مقدمة البلاد التى ارتبطت مع مصر بعلاقات تجارية كانت بقية بلاد الدولة العثمانية مثل بلاد الشام والاتصول وجزر البحر المتوسط. وكانت مصر تصدر الغلال والأرز وبخاصة إلى اسنانه وكانت أهم الواردات إلى مصر الجوخ ويستورد من البندقية وفرنسا وانجلترا والاسلحة والادوات المصنوعة من الحديد وترد من ألمانيا والسجايد وترد من تركيا وبلاد فارس

وكانت ترد من البندقية المرابا والزجاج الفاخر وبخاصة أنواع الزجاج الملون الذى يستخدم فى الزخرفة .

وكانت هذه الواردات كما رأينا مقصورة على السلع الكمالية ومن أهمها الحرير والاجواخ والقطيفة والتبغ والعاج وريش النعام وكانت هذه السلع تستورد لاستعمال الامراء المماليك والعلماء وبعض التجار الموسرين أما السواد الأعظم من الشعب فكان يعتمد على المنتجات المحلية وكان يشتغل بالتجارة الخارجية أفراد من جنسيات وديانات مختلفة مثل البنادقة والفرنسيين واليونان واليهود والأتراك والعرب وكانت كل طائفة منهم تختص بنوع معين من المتاجر وكانوا يعملون فى الاسكندرية والقاهرة ودمياط ويسكنون احياء خاصة بهم وكانت منازلهم فى العادة فوق حوائطهم وقد حصلوا على امتيازات عديدة من السلاطين العثمانيين تتيح لهم حرية المعاملات واقامة الشعائر الدينية والإعفاء من الخضوع للأنظمة القضائية والمالية السائدة فى مصر وعلى الرغم من ذلك فقد أساء الامراء المماليك معاملة التجار الأجانب فى مصر فاكثروا من فرض المغارم على هؤلاء التجار وكانت أغلب المغارم على شكل قروض ولكن لم يفكر الامراء المماليك فى رد هذه القروض إلى اصحابها . وقد سكن التجار الشوام فى القاهرة فى وكالة التفاح والأتراك فى وكالة الشوريجى وتجار العبيد فى وكالة الجلابية والتجار المغاربة فى وكالات المغاربة والمجاورين والتجار الاوربيين فى جهة الموسيقى .

وكان عدد كبير من قناصل الدول فى مصر يمارسون التجارة لحسابهم الخاص إلى جانب عملهم القنصلى وكانت حكومات الدول التى يمثلونها هى التى تختارهم من بين الشخصيات البارزة المقيمة فى مصر لرعاية مصالحها

التجارية وكان هؤلاء القناصل لا يتقاضون مرتبات فى الغالب ولكنهم كانوا يجنون ارباحاً وغيرةً من اختيارهم فى السلك القنصلى لأن صفتهم الرسمية كانت تضى عليهم جاهاً ونفوذاً لدى الحكام فى مصر وتيسر لهم سبل الاتصال السريع السهل المثمر مع امراء الممالك ويظفرون منهم بأنواع شتى من الامتيازات والاحتكارات وكان يتبع القنصل فى مصر فى غدواته وروحاته قواص يلبس ملابس رسمية فضفاضة من الجوخ المزركش ويحمل السيف وكان يطلق على هؤلاء القناصل اسم "القناصل المختارون" تمييزاً لهم عن "القناصل المبعوثون" *cansuls de carriere* الذين ينقطعون للأعمال القنصلية فيحرم عليهم الاشتغال بأية مهنة حرة أو عمل تجارى خاص شأنهم فى ذلك شأن باقى الموظفين. ومن الشخصيات القنصلية الهامة فى مصر كارلودى روستى *Carlo de Rossetti* قنصل النمسا فى مصر عاصر جهود على بك الكبير وابى الذهب ومراد بك وإبراهيم بك والحملة الفرنسية وشطرا كبيراً من عيد محمد على إلى سنة ١٨٢٠م حيث مات عن تسعين عاماً .

وكانت غرفة التجارة الفرنسية فى مارسييا تحتكر توريد البضائع الفرنسية إلى مصر بينما احتكرت شركة الليفانت *The Levant Company* البضائع الانجليزية وكانت بعض الاصناف المصرية تخضع أيضاً لنظام الاحتكار بمعنى أن يتولى جمع هذا الصنف وإعداده وبيعه شخص واحد نظير مبلغ يدفعه للحكومة. ومن الاصناف المحتكرة كان النطرون المستخرج من وادى النطرون وقد احتكره كارلودى روستى .

وقد فقدت الاسكندرية اهميتها التجارية التى كانت تتمتع بها فى العصور الوسطى فقد انسدت الترعة التى كانت تصلها بفرع رشيد ونجم عن ذلك صعوبة المواصلات بينها وبين الداخل. ثم اهمال الحكومة اصلاح مينائها وأصبح قليل الصلاحية لايواء السفن ، يضاف إلى ذلك السبب الهام

وهو قلة البضائع المارة بها وبمضى الايام اكتسبت رشيد اهمية تجارية على حساب الاسكندرية أما دمياط فكانت تأتي إليها البضائع الواردة من تركيا والشام ومن بين هذه البضائع التبغ والصابون والزيت والاششاب والحريير وأصناف اليايش لشهر رمضان وكانت المنصورة تشتغل بتوزيع هذه التجارة فى داخل البلاد أما السويس فكانت من أكثر الثغور المصرية حركة وتأتى إليها بضائع الحجاز واليمن وبعض متاجر الهند كالحريير والبن والتوابل والشيلان وكان يمر بها السياح وهم فى طريقهم من أوروبا إلى الشرق وبالعكس .

التجارة الداخلية :

كانت التجارة الداخلية تتأرجح بين النشاط والركود وتتأثر باضطراب الأمن وكثرة الضرائب التى كان يفرضها أو يبتدعها الأمراء المماليك للحصول على المال. وكان نقل المتاجر يتم بواسطة النيل أو الترع إلى الأسواق الرئيسية فى المدن الكبيرة. والفروق كانت واضحة جداً بين اسواق القرى واسواق المدن الكبرى : فسوق القرية يعقد فى يوم معين من أيام الأسبوع يجتمع فيه سكان القرية للمقايضة أو ابتياع الحاجيات أما سوق المدينة فقامت طوال الاسبوع وله أهميته وقيمه يزخر بالتجارة والبضائع ويلبى حاجات المدينة وسكانها والمناطق المجاورة لها والمحيطه بها وكانت السلع توزع من القاهرة والاسكندرية ودمياط والسويس على الاسواق الداخلية وأهمها فى الوجهة البحرى المنصورة وسمنود وطنطا ومنوف . أما اسواق الوجهة القبلى فكان أهمها أسنا وأسيوط وقنا .

وتعرضت التجارة فى مصر فى القرن الثامن عشر للاضطراب الشديد

لأسباب المختلفة التى منها :

١ - لم تعمل الحكومة على تنشيط التجارة وكان اهتمامها يكاد يكون

مقصوراً على جمع الضرائب .

- ٢ - أهملت الحكومة الضرب على أيدي العربان الذين كانوا يعتقدون على القوافل التجارية وهي تسلك طريق الصحراء وبرزخ السويس وذلك في طريقها إلى القاهرة من بلاد العرب أو الشام فكانت هذه القوافل تتعرض لنهب العرب وسلبهم .
- ٣ - إذا تأخرت الحكومة في دفع مرتبات فرق الجند بانتظام - وهو أمر كان يحدث غالباً - فإن الجنود كانوا يتدخلون في السوق ناهيين بائعين : يهيبون من الفلاحين أرزاقهم ومحاصيلهم ويبيعونها لأهل المدن بأعلى الأسعار .
- ٤ - كانت المشاحنات بين الأمراء الممالك لا تنتهى فتزيد من حالة الإضطراب والكساد فى الدوائر التجارية وفى ذلك الوقت كان الأمراء المماليك يحتاجون إلى مزيد من الأموال فيتجهون إلى التجار يقرضون عليهم ضرائب عدة مرات واضطر التجار إلى اغلاق حوانيتهم بعض الوقت ونجم عن ذلك زيادة أثمان السلع كى يعوض التجار بعض ما نزل بهم من خسائر فاضطربت الاسواق .
- ٥ - كان النقد مضطرباً والعملات الأجنبية تتداول بأسعار غير أسعارها الحقيقية .
- ٦ - إذا جاء فيضان النيل منخفضاً انعكست قلة المياه على الإنتاج الزراعى فتقل مقادير المحاصيل الزراعية .
- ٧ - انتشار الأوبئة وبوجة خاص الطاعون وقد بلغ من فداحة الخسائر التى سببته هذه الطواعين أن المصريين كانوا يؤرخون بها حوادثهم ويطلقون عليها أسماء معينة مثل : طاعون اسماعيل بك الذى حكم مصر نتيجة للحملة التى ارسلتها الحكومة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ نعاماً . ١٠١٠٨١ - بك و مراد بك وقد انتصر الجزائرلى باشا عليهما وأقصاهما

عن حكم مصر وعين أحد الأمراء المماليك مكانهما وكان إسماعيل بك ولكنه ما لبث أن أصيب بالطاعون ولقى حتفه وفي الجبرتي وصف مسيبي لهذا الطاعون وقد أغلقت بيوت بعض الأمراء بأسرها بما تضم من جواري وسيدات ومماليك وكان الميراث ينتقل في اليوم الواحد خمس مرات لكثرة الوفيات في الأسرة الواحدة ولا شك أن الطواعين كانت سبباً هاماً في تأخر مصر وبعض المؤرخين ينسب ضعف الحضارات إلى مثل هذه الوبئة مثل الكوليرا في الهند والملايا في ايطاليا .

رسوم الجمارك :

ارتبطت الجمارك بالتجارة وكان لمصر في العهد العثماني عدة جمارك أهمها جمرك الإسكندرية ويتبعه رشيد وأبو قير ثم جمرك دمياط وجمرك البرلس وكانت هذه الجمارك الثلاثة مخصصة للتجارة التي ترد أو تصدر عن طريق البحر المتوسط ثم جمرك السويس وتأتي إليه تجارة بلاد العرب والهند، أما جمرك بولاق ويتبعه جمرك مصر القديمة فكانت ترد إليه التجارة الداخلية الواردة من الصعيد أو من جهات الوجهة البحرى عن طريق النيل وكانت قوافل السودان تأتي إلى مصر عن طريق دارفور فالواحة الخارجة وتنتهى عند أسيوط حيث تدفع رسوماً جمركية فادحة على البضائع الواردة من السودان وكذلك على الرقيق الوارد منها أيضاً وكان جزء من إيرادات هذه الجمارك مخصصاً للاتفاق على مرتبات الوالى وبعض العسكريين العثمانيين وكان الجزء الآخر مخصصاً لأموال الحرمين في الحجاز ولجزية السلطان .

وكان يوجد جمرك على مقربة من القاهرة ويقع على طريق السويس الصحراوى يسمى جمرك البهار ويقوم بتحصيل الرسوم الجمركية من البضائع الواردة من مكة والمدينة وكان هذا الجمرك التزاماً للوالى .

وكما طبق نظام الالتزام على الأراضى الزراعية طبق أيضاً هذا النظام

على الجمارك فكانت تباع رسوم الجمارك فى المزاد العلنى، كل جمرك عنى
حدة ، يشتريها أحد الملتزمين فىقوم بإدارة الجمرك واستغلاله ويوردها إلى
خزينة الروزنامة بعد استقطاع قيمة معينة من الإيراد فى نظير ذلك وكان
للملتزم وكيل يشرف على الجمرك يسمى الجمركى هو أمين الجمرك، وهو
يهودى ويسمى المعلم .

المجتمع في مصر ابان الحكم العثماني

كان عدد سكان مصر في العهد العثماني يبلغ حوالي ثلاثة ملايين نسمة. وكانوا يتألفون من عناصر متباينة أشد التباين : منهم أقلية ممتازة قوامها ارسنقراطية حربية من العثمانيين والمماليك وارسنقراطية فكرية قوامها العلماء من خريجي الأزهر ثم أكثرية مهضومة الحقوق تتكون من الفلاحين ويعيشون في الريف والتجار وأرباب الحرف والصناعات ويعيشون عادة في المدن وكانت الغالبية انعظى من هذه الأكثرية تكدرح في سبيل لقمة العيش ولا تصيب من ثمرة كدها سوى الكفاف .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية لم تحاول أن تصبغ المصريين بالصبغة العثمانية أو تربطهم بالحضارة العثمانية بل إكتفت برباط الدين الإسلامي ولم تحاول أن تتعرض للتقاليد المصرية كما أن اللغة التركية لم تنتشر بين الشعب المصري على الرغم من أن الحكم العثماني لمصر استمر عدة قرون وكان عدم انتشار اللغة التركية راجعاً إلى أن الأتراك العثمانيين عاشوا في معزل عن المصريين وكانت طريقة استيطانهم مصر تختلف اختلافاً جوهرياً عن الطريقة التي إتبعها العرب مع المصريين في الاندماج بهم والارتباط معهم برباط المصاهرة والتعاطف .

وقد اختلفت ظروف الحياة بين هذه العناصر بحيث أصبحت الفروق بينها واسعة عميقة فالعثمانيون والمماليك كما مر بنا ، يظفرون بالمناصب الرئيسية في الحكومة سواء المناصب العسكرية أو الإدارية أو المالية وسرعان ما استغل المماليك ضعف الدولة العثمانية وظهروا على الوالى العثماني وضباط الحامية واستحوذوا على الموارد المالية في مصر واستأثروا بالنفوذ في البلاد واستبدوا بالفلاحين وارهقوا الزراع وأصحاب الحرف

والتجار بالضرائب لأن اهتمامهم كان موجهاً إلى جمع المال وتذبير
الموامرات ضد بعضهم البعض طلباً للإنفراد بالسطنان وجمعوا ثروات
ضخمة وعاشوا في نعيم وبذخ كانوا مضرب الأمثال، سكنوا في قصور شيدت
على الطراز العربي الجميل وزخرقت بثمين التحف وقاخر الأثاث وقد
استورد من الخارج وكانت تحف بالقصور حدائق، وكنوا يرتدون ثياباً فاخرة
فضفاضة مصنوعة من الجوخ أو الحرير أو القطيفة المستوردة من الخارج
ويضعون فوق رؤسهم عمائم كبيرة وكانوا يطلقون لحاهم إذا بلغوا مبلغ
الرجال واعتقهم سادتهم ، واستكثروا من شراء المماليك والجواري الحسان
والخيول المطهمة وزخرفوا سروجها بالذهب والفضة .

وترفع المماليك على الشعب المصري في مجموعته فلم يختلطوا بأهل
البلاد ولم يتزوجوا بالمصريات بل اعتمدوا على الجواري الحسان. ولم
تربطهم بالمصريين أصرة من الود والتعاطف .

العلماء

تمتع العلماء في ذلك العهد بمركز اجتماعي ممتاز وجاه وثراء. كانوا
في الغالب من أبناء الفلاحين الفقراء نزحوا إلى القاهرة والتحقوا بالأزهر ولما
أتموا دراستهم شغلوا المناصب القضائية والتعليمية كالقضاء والتدريس في
الأزهر كما اشتغلوا نظاراً على الأوقاف الخيرية أو أوصياء على القصر من
اليتامى وجمع معظمهم ثروات ضخمة ونجحوا على نسق المماليك في
معيشتهم فامتلكوا القصور واقتنوا الجواري واستكثروا من الخدم .

وكان العلماء بمنجاة من أذى الأمراء المماليك فلم يتعرضوا لهم بسوء
ولم يفرضوا عليهم الاتاوات أو المغارم كما كانوا يفعلون مع سائر طبقات
الشعب المصري . إذ كان الأمراء المماليك يحسبون لهم حساباً كبيراً خشية أن
يثير العلماء الهمم . على الرغم من ذلك فقد كان للعلماء مواقف وطنية

مشرفة إذ كانوا يتزعمون الحركات الشعبية فى القاهرة عند اشتداد الظلم وكانت طريقة العلماء هى الاضراب عن التدريس فى الأزهر ويعقب الاضراب هياج الطلبة وهم المجاورون ويغلقون الأزهر ويصحب ذلك هياج العامة وتسير المظاهرة يتقدمها مشايخ الأزهر ومجاوروه أى طلابه فى شوارع القاهرة إلى قصر الأمير الذى لا يلبث أن يرد المنهوبات أو يرفع الاتاوت ويزخر تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر بالكثير من الأمثلة على المواقف لمشرفة التى كان يقفها العلماء فى وجه الأمرء المماليك لمنع الظلم عن الشعب المصرى. قفى عهد إبراهيم بك ومراد بك ذهب أمير مملوكى يسمى حسين بك شفت (كلمة تركية معناها اليهودى) ومعه جنوده إلى منزل شيخ الطريقة البيومية فى حى الحسينية ونهبوا محتوياته وعلم سكان الحسينية بهذا الحادث فى اليوم التالى فحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم الطبول والنبابت وكان لهم فى الطريق ثورة وعجيج وقابلوا الشيخ الدردير الذى نظم حركة المقاومة وترعما ورأى استكمالاً لأسباب نجاح حركة المقاومة أن ينضم إليها سكان بولاق ومصر القديمة وقال "اركب معكم ونهيب بيوت الممالك كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم" ومن ثم انتشر أهالى الحسينية فى جامع الأزهر وأغلقوا الأبواب وابطلوا الدروس بالجمبع، كما أبطلوا الأذان والصلاة وصعد أهالى الحسينية إلى مآذن الأزهر يتقون الطبول ويصيحون بأعلى أصواتهم يدعون الشعب إلى محاربة المماليك. ولما ترامت هذه الأنباء إلى إبراهيم بك اتصل بالشيخ الدردير ورجاه أن يعمل على تهدئة النفوس النائرة كما طلب إليه أن يرسل كشافاً بالنهوبات التى ارتكبتها حسين بك شفت وجنوده وفعلاً أعيدت المنهوبات إلى أصحابها. وهكذا كان الشعب يجد فى العلماء ملاذاً يقيه السوء والشر من المماليك ولذلك كتبت للعلماء مكتبة مرموقة عند الحكام والمحكوميين .

وكان العلماء يقومون بدور الوساطة أيضاً بين المماليك بعضهم وبعض
ليزيلوا خصومة ويضعوا حداً لحرب واضطرابات تقوم بينهم ويكون من نتائج
هذه المنازعات أرهاق المصريين في معاشيم واضطراب الأمن في البلاد.
وكان العلماء يتقدمون على غيرهم من الناس في المناسبات العامة. وكان
الولاة العثمانيون والأمراء المماليك يزورون العلماء في بيوتهم وكان بعض
الولاة يظهرهم احترامهم العميق للعلماء فيقبلون أيديهم .
وقد ضرب كثير من العلماء المثل الأعلى في الزهد والورع والتواضع
والإيثار والانصراف عن جمع المال إلى العلم كما يتضح من سير الشيخ
العفيفي والصائم والشيخ محمد الشنوازي ومما يذكر عن الأخير أنه كان يشمر
ثيابه ويكنس مسجد الفاكهاني بيده ويسرج قناديله بيده وامتنع أن يكون شيخاً
للأزهر واختفى في مصر القديمة حتى لا يلي مشيخة الأزهر فلما أكره علينا
ظل وفياً لمسجد الفاكهاني لم ينقطع عن كنسه واسراج قناديله حتى جاز إلى ربه.
ولكن كانت توجد فئة أخرى من علماء الأزهر انصرفت عن العلم
وقتت بالدنيا واغرمت بحب المال حباً جماً واقتنت الجوارى الحسان وسنكن
مسالك يابها الدين وتاجر بعضهم بالفتاوى وتملقوا الحكام وامنعوا في ظلم
المصريين جرياً وراء مصلحة ذاتية يستيدفونياً. ومن أمثلة الاتجار بالفتاوى
أن حرباً وقعت بين فريقين من المماليك واستطاع كل فريق أن يستصدر
قتوى من العلماء بأنه على حق وأنه يجوز له أن يقتل الفريق الآخر. أما
الحرص على جمع المال فقد ترك الشيخ محمد شئن شيخ الأزهر عند وفاته
أربعين ألف قطعة ذهبية (الذهب البندقى) عدا الفضة والإملاك والتضياع فما
ورث أبنه هذا الأثر الضخم بدده ومات الابن مديناً وبروى الجبرتي قصة
عن عالم اسمه الشيخ عبد الباسط السنديوني دخل في نزاع طويل مع سيدة
عجوز على فدان، ونصف فدان، تعرض الشيخ للاهانة حتى قال له الشيخ

العروسى "والله لو كان هذا الفدان والنصف لى فى الجنة ونازعتى عليه هذه العجوز لتركته لها". وظلت الخصومة قوية عنيفة حتى مات ويعقب الجبرتى على هذا الحادث بقوله أنه يستحى من ذكر أمور أخرى ارتكبها الشيخ عبد الباسط السنديونى .

التجار :

كان فى المدن الكبرى طائفة كبيرة من التجار منهم عدد قليل من أعتياء التجار اشتغلوا بالتجارة الخارجية والداخلية ونجحوا فى تكوين ثروات ضخمة واقتنوا الدور الفخمة وظفروا بمركز اجتماعى ممتاز أما باقى التجار فكانوا متوسطى الحال ولكنهم كانوا يعيشون فى مستوى أعلى من مستوى الزراع والصناع، كما كانوا أسعد حالاً منهم. وقد سبق أن تكلمنا عنهم عند الكلام على موضوع التجارة .

المباشرون :

شبيهة بطبقة التجار طبقة المباشرين وهم رؤساء جباة الضرائب من الأقباط، وقد تخصص الأقباط فى الأعمال الحسابية والمالية بجانب اشتغالهم فى الزراعة والصناعة والتجارة. وقد عهد إليهم الأمراء المماليك الصناجقة وكذلك الكشاف بتقدير الضرائب على الأراضى الزراعية وتحصيل هذه الضرائب سواء كانت نقدية أو عينية. وكان رؤسائهم يسمون المباشرين.

وقد تمتع المباشرون بسلطات واسعة ونفوذ كبير فكانت لديهم دفاتر الروزنامة والميرى وغيرها من سجلات الأراضى الزراعية وكانوا يدونون فيها مساحة الأراضى المزروعة ومساحة الأراضى البور ويحتفظون بأسماء الفلاحين الذين يقومون بزراعة الأراضى فى كل قرية ويحددون أنواع الضرائب المفروضة على كل منهم وفئاتها. وكانت أحكام المباشرين فى هذا

الشأن - نهائية لا معقب عليها. وكانوا يشرفون اشرافاً دقيقاً مباشراً على عمليات تحصيل الضرائب .

وكان المباشرون يؤدون في نفس الوقت خدمات جلية للأمرء المماليك إذ كانوا وكلاءهم في إدارة املاكهم و ضبط حساباتهم ومعرفة أوجه الإيرادات والمصروفات. واشتغل المباشرون أيضاً وكلاء نكبار الملتزمين فكان كل منهم يباشر سلطات الملتزم في دائرة التزامه وكلمته نافذة حتى غدا الحاكم بأمره في المنطقة .

وكان للمباشرين رئيس يسمى "كبير المباشرين بالديار المصرية" يشرف على المباشرين جميعاً وعلى الصيارفة والكتبة والمساحين ومن إليهم وكان يتمتع بمركز اجتماعي مرموق في مصر. وقد وصل بعضهم إلى أعظم مراتب الجاه والنفوذ وسكنوا الدور الفخمة وكان يقف على أبوابها الحجاب والخدم. ومن الشخصيات التي برزت في الحياة المصرية في القرن الثامن عشر المعلم إبراهيم رزق الذي كان مديراً يدير حسابات الحكومة على عهد علي بك الكبير وكان مقرباً إليه ويرجع إليه في كافة الشؤون المالية والاقتصادية لمصر وقد طغى نفوذ المعلم إبراهيم رزق على غيره من كبار موظفي الحكومة في ذلك العهد ثم خلفه المعلم إبراهيم الجوهري وقد علا شأنه أيام محمد بك أبي الذهب وإبراهيم بك ومراد بك ويقول عنه الجبرتي أنه كان المشار إليه في الكليات والجزئيات وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور "وكان بعضهم ينتهز فرصة حلول شهر رمضان فيجاملون المسلمين : يقدمون لإعتيهم الهدايا ويوزعون السكر والأرز على فقراء المسلمين.

الفلاحون :

كان الفلاحون هم الغالبية العظمى من الشعب المصري اشتغلوا

بالزراعة فى ريف مصر. وكانوا يعيشون عيشة ضنكاً : تعرضوا. اظلم
الأمرء المماليك وعسف الملتزمين وعليهم أداء الضرائب المتنوعة، وكان
الضرب والتعذيب وغير ذلك من صنوف القسوة أمراً مألوفاً حتى يظهر
الفلاحون ما عسى أن يكونوا قد أخفوه عن أعين الملتزمين والمباشرين وقد
سبق أن ذكرنا أن الفلاحين قد خضعوا لنظام الالتزام فكان كل فلاح يزرع
الارض ولكنه لم يكن يمتلكها ولم تكن له حرية التصرف فيها بالبيع أو الرهن
أو اليبة بل كان يزرعها ويظل قائماً على زراعتها طالما كان يسدد الضرائب
النقدية والعينية إلى الملتزم على النحو الذى شرحناه فى نظام الالتزام .

وكان الفلاحون يرتدون ملابس من أقمشة رخيصة ويقتاتون خبز الذرة
ويسكنون اكواخاً حقيرة ورضوا من الحياة بمعيشة الكفاف ولكن لم تكن
معيشة الكفاف ميسورة دائماً لأن المجاعات من ناحية والوبئة من ناحية أخرى
كانت تجتاح البلاد وتحصد آلاف السكان ولم يكن فى مصر طب ولا أطباء وكان
ادعاء الطب من الحلاقين والمنجمين هم الذين يتصدون لعلاج المرضى .

الصناع :

سبق أن تكلمنا عن الحالة الاجتماعية لهذه الطائفة عند
التعرض لنقابات الحرف .

استئثار المماليك بالنفوذ

حدثت في مصر في القرن الثامن عشر ظاهرة لم تكن في حسابان السلطان سليم الأول حين وضع نظامه المعقد لحكم مصر. فقد غدا الامراء المماليك هم الهيئة الحاكمة في مصر على الرغم من وجود والى والحامية العثمانية. وفي الواقع بدأ استئثار الامراء المماليك بالنفوذ والسلطان في مصر منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر نتيجة ضعف الدولة العثمانية وكان من أهم أسباب ضعفها :

أولاً : اختلال الأداة الحكومية في القسطنطينية وقد احتجب السلطان في قصره وكثر تدخل الجنود في أعمال الحكومة من خلع الوزراء وقتلهم بل وقتل السلاطين. وانعكس هذا الاضطراب على الولايات العثمانية وعلى الأخص الولايات البعيدة كمصر .

ثانياً : الضغط الشديد الذي تعرضت له الدولة العثمانية من الدول المسيحية الأوروبية وعلى الأخص روسيا والنمسا. وكانت بلاد البلقان تموج بحركات انفصالية تستهدف تخلص الشعوب المسيحية من حكم السلطان العثماني المسلم، وكانت الروح القومية والدينية والدعاية الروسية هي وقود الحركات الانفصالية الاستقلالية في الممتلكات الأوربية المسيحية للدولة العثمانية مثل البوسنة والهرسك (الشطر الأكبر من يوغسلافيا حالياً) والافلاق والبلغدان (رومانيا حالياً) والجبل الأسود (شمال ألبانيا وجزء من يوغسلافيا حالياً) وهذا هو الفارق بين هذه الحركات التي قامت في القسم الأوربي المسيحي من الدولة العثمانية وبين الحركات التي شهدتها الممتلكات الشرقية الإسلامية للدولة العثمانية مثل حركة علي بك الكبير في مصر وظاهر العمر في فلسطين والاكراد في شمال العراق والشام والاغوات الحكام في مدن

الأتناضول وموانيه . كانت الحركات الأخيرة فى الشرق الإسلامى تستهدف التناقص على الحكم والاستتار به ولكنها لم تكن فى مجموعها تروم الاستقلال أو الانفصال عن جسم الدولة العثمانية لأن هذه الولايات كانت ترتبط برباط الدين الإسلامى مع الدولة العثمانية .

وقد استغل الأمراء المماليك فى مصر هذا الضعف الذى اتحدت إليه الدولة العثمانية فعملوا على تقوية أنفسهم بالاستكثار من شراء المماليك وتدريبهم تدريباً عسكرياً وتزويدهم بالأسلحة والخيول الأصيلة واستولوا على معظم الأراضى الزراعية عن طريق نظام الالتزام وأصبحوا حكام مصر بالفعل وبلغوا من القوة بحيث أنهم كانوا يمتنعون عن ارسال الجزية إلى السلطان بانتظام وإذا غضبوا على الوالى أو لم ترقهم سياسته خلعوه من منصبه(١). أما رجال الحامية العثمانية فقد ضعفت صلاتهم بالدولة العثمانية . وكانت الإدارات المالية فى الحكومة المصرية فى أيدي المماليك فكان بيدهم صرف مرتبات العسكريين وأصبحوا تابعين لهم من الناحية المالية فى وقت عظم فيه نفوذ المماليك فتمتقهم العسكريون العثمانيون وصاهروهم وأصبحوا من عشيرتهم واتباعهم كما أن المماليك تغلغلوا فى مناصب الحامية العثمانية حتى أصبح رؤساء الأوجاقات واغلب ضباطها من المماليك .

(١) كان للأمرء المماليك تقاليد فى عزل الولاة الأتراك فإذا استقر رأيهم على عزل الوالى اصدروا قراراً بذلك وعهدوا بتنفيذ القرار إلى واحد منهم يسمى أردى باشى يرتدى عباءة سوداء ويضع على رأسه قبعة سوداء أيضاً لها حافة تشبه الطبق ولهذا السبب كانت الجماهير فى القاهرة تطلق عليه 'أبو طبق' ويركب أوده باشى حماراً إلى القلعة يحف به طائفة من تجند ثم يدخل على الوالى ويعد أن يحييه يظوى طرف السجادة التى يجلس عليها الوالى ويعتنه بقرار العزل ويقول له انزل يا باشا فيتمثل الوالى لهذا تفرار الشفوى ويتترك القلعة مجرداً من كل سلطان ويقوم فى أحد المنازل حتى تتم لجراءات ترحيله، وكان متى هذا الوالى المعزول يحاسب حساباً عسيراً على تصرفاته المالية وكان يطالب بأداء المبالغ التى يكون قد استولى عليها بدون وجه حق ولم يصرفها فى الأوجة المخصصة لها .

وبرزت هذه الظاهرة استئثار المماليك بالحكم - عن قدوم الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ فقد كان حكام مصر من الأمراء المماليك هم الذين وقفوا في وجه انفرنسيين وتصدوا للدفاع عن البلاد وقدوم بعض المماليك الجيش الفرنسي مقدومة عنيفة الأمر الذي لم يحاوله الوالى العثمانى أو الاتراك العثمانيون العسكريون .

وإذا كان الامراء المماليك قد بلغوا هذا الحد من القوة بحيث أنهم كانوا يتمتعون عن ارسال الجزية إلى السلطان ويخضعون الوالى العثمانى ويسيطرون على البلاد عسكرياً ومالياً واقتصادياً فلماذا لم يستقلوا بمصر عن الدولة العثمانية ويقطعوا صلات التبعية وتعود سلطنة المماليك إلى ما كانت عليه قبل الفتح العثمانى لمصر فى سنة ١٥١٧م بماذا يفسر فشلهم فى تحقيق الاستقلال التام ؟

يرجع فشلهم إلى انقسام الامراء المماليك بعضهم على بعض إذ عجزوا عن توحيد كلمتهم والخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم وبمصر إلى الاستقلال التام عن الدولة العثمانية وكان إذا ظهر أمير منهم وتجمعت له أسباب القوة والنفوذ والسلطان كان الأمراء الآخرون المنافسون له دم أول من يثرون عليه ويناصبونه العداة السافر وتقع المشاحنات والحروب وكثيراً ما يلقى هذا الأمير مصرعه. أما إذا نجا من القتل الأمير المنهزم فإنه يذهب إلى الصعيد ويعيد تنظيم قواته ويعود إلى محاربة خصمه وهكذا تستمر الحرب سجالات. وكانت مهمة الدولة العثمانية هى الايقاع بين الامراء المماليك وزيادة اسباب التفرقة والانقسام بينهم وكانت المنازعات والحروب والمشاحنات بين الأمراء المماليك هى الظاهرة الشائعة فى مصر. وتاريخ الجيرتى حافل بهذه الصور الدامية للحروب الداخلية التى كانت تدور فى شوارع القاهرة وفى قرى مصر -

وينشأ أو يتفرع من هذه الحقيقة سؤال آخر هو : إذا كنا قد أرجح
فشلهم السياسى إلى عدم اتحادهم. فلماذا كان الأمراء المماليك منقسمين
على أنفسهم ؟

السبب فى ذلك هو نفسية المملوك هى التى كانت تملى على الأمراء
المماليك هذه السياسة الخرقاء ونعنى بيا عدم الاتحاد وهى ظاهرة قديمة
موغلة فى القدم ترجع إلى أيام دولتيهم القديمتين : المماليك البحرية
والمماليك الجراكسة فقد كان هناك تنازع مستمر على عرش السلطنة وكان
القتل والغدر من سمات ذلك العهد حتى أن سلطنة المماليك لم تصبح وراثية
فى معظم الاوقات وكان كل أمير يدعى أنه هو والسلطان سواء. وقد سيطرت
عليهم هذه النزعة سيطرة كاملة انعكست على منهجهم فى الحياة لأن أصل
المماليك واجد وهم من حيث النشأة الأولى سواء وهم جميعاً أجنب عن مصر
وكانوا من الرقيق، انتزع الفرد منهم من بين أهله وهو صغير وحيل بينه
وبين ماضيه ودرّب تدريباً مصطنعاً غير طبيعى وليست هناك ميزة لأحد
على غيره إلا الميزات الشخصية كأن يكون أكثر شجاعة وأوفر مهارة فى
الحرب والسياسة وأشدّ دهاءً وأوسع حيلة وما إلى ذلك. وقد وجد علماء
النفس أن من شروط الطاعة تميز الأنساب بعضها عن بعض واختلاف
الطبقات . ولم تكن هذه الشروط متوفرة فى الأمراء المماليك .

ونفسية المملوك تفسر وجهة نظره فى الحكم والسياسة فالجو غير
الطبيعى الذى نشأ فيه والتربية المصطنعة التى ترعرع فى ظلها وحرمانه
من عطف الوالدين ومحبة الأخوة كل ذلك جعله لا يكثرث إلا بنفسه. ومن
الحقائق المسلم بها أن الأسرة هى المجال الطبيعى لتربية عواطف الفرد
ففى جو العائلة يدرّب الطفل على حب والديه وأخوته ويدرّب على ألا -
يستأثر لنفسه بكل الخيرات. أما الأقسام الداخلية فى المدارس والتربية

العسكرية في الثكنات فلا تسمو بعواطف الفرد إلى الدرجة التي تصل إليها التربية المنزلية . وقد تنشأ بين المملوك وهو في خيمة سيده وبين أقرانه صداقة ولكن هناك ما يضعف هذه الصداقة أو ما يضيح بها وهو التنارع على طيبات الحياة من مراكز الجاه والنفوذ فإذا رأى أنه لا يصل إلى ما تشتتيه نفسه إلا بالغدر بزميله فإنه لا يتردد في الأقدام على هذا الأجراء. يضاف إلى ذلك أن المملوك لا ينظر إلا للساعة التي يعيش فيها فيستحوذ على كل ما يستطيع أن تصل إليه يده ولا يدبر للمستقبل القريب أو البعيد شيئاً ذا بال لأنه رأى أن حلقه قد اغتاله زملاؤه فيقول في نفسه لماذا أدبر؟ ولمن أدبر؟ وربما يعتالني أحد من زملائي فنظر إلى المملكات يأخذ منها بأوفى نصيب وأهل القيام بمشروع للرى مثلاً لأن مثل هذا المشروع يعود بالنفع على أفراد آخرين فكانت النتيجة أن كان هذا العيد خالياً من مشروع جدى نافع قام به أحد المماليك لأن ذلك لا يتمشى مع نفسية المملوك. وكل ما تم في ذلك العهد كان اصلاً مؤقتة .

تتمثل المسائل التي تكلمنا عنها تمثيلاً سياسياً في حركة على بك الكبير الذي كان في مهده، طقلاً مسيحياً ياتعاً اسمه يوسف لخطفه تجار الرقيق من أبيه القسيس الأرثوذكسى - دلود وباعوه في سوق الرقيق في القسطنطينية إلى كرد أحمد من كبار تجار الرقيق وجئ به سنة ١٧٤٣ إلى الإسكندرية حيث بيع بثمن بخس، دراهم معدودة إلى مديري جمركية الأخوين اليهوديين اسدبن ويوسف وهذان تقربا به هدية إلى أحد أصحاب النفوذ في مصر ثم دارت الأيام وغدا حاكماً بأمره في مصر يفتح بلاد تحجاز والشام ويقود جموع - الحجاج إلى بيت الله الحرام بعد أن كنز أبوه يعدد ليشغل منصباً دينياً في الكنيسة اليونانية .

أولاً : ظهور على بك الكبير واستنثاره بالحكم فى مصر سنة ١٧٦٨ يوضح ضعف الدولة العثمانية توضيحاً تاماً .

ثانياً : فشل على بك فى حركته للإنفراد بالحكم فى مصر يوضح عجز المماليك مع حكمهم للبلاد فعلاً عن تحقيق أغراضهم .

ثالثاً : لم يكن فشل على بك راجعاً إلى الدولة العثمانية ولا إلى الحماية العثمانية بل إلى قيام أحد الأمراء المماليك ضده وهو محمد بك أبو الذهب الذى غدر به وأسقطه بل وتسبب فى موته. وعلى ذلك يمكن القول بأن على بك قد نجح فى أول الأمر بفضل ضعف الدولة العثمانية وفشل فى آخر الأمر بسبب انقسام المماليك على أنفسهم .

ولن نتعرض فى هذه الدراسة لحركة على بك الكبير وتطوراتها ولكن توجد ظاهرة جديدة فى سياسة المماليك جديدة بالسنجيل ونعنى بها ظاهرة اتصال على بك بالأعداء الأوربيين للدولة العثمانية وطلب المعونة العسكرية منهم. فقد اتصل على بك أول الأمر ببناء على اقتراح كارلو دى روستى قنصل النمسا العام فى مصر بجمهورية البندقية وكان لها صراع مرير مع الدولة العثمانية التى انتزعت من جمهورية البندقية جزيرة كريت ثم المورة. وقد أرسل على بك رسالة حملها أحد معاونيه وهو يعقوب الأرمنى اقترح فيها عقد محالفة تقدم مصر بموجبها مساعدتها لجمهورية البندقية لاسترجاع جزر البحر المتوسط من الدولة العثمانية ولكنها اعتذرت عن إبرام محالفة كما عجزت عن تقديم أية مساعدة عملية لعلى بك إذا كانت قد هبطت من عهد عيد إلى دولة فى المقام الثانى أو الثالث بين دول أوربا بعد أن تساقطت تباعاً ممتلكاتها وشهد القرن الثامن عشر نهاية هذه الجمهورية .

وعلى أثر ذلك اتجه على بك إلى روسيا وكانت الحرب وقتئذ قائمة بينها وبين

الدولة العثمانية ووصلت بعض وحدات من الأسطول الروسي إلى مياه البحر المتوسط لإثارة الشعوب البلقانية وتحريضها على القيام في وجه السلطان وأراد على ذلك أن يتصل بروسيا فكتب إلى قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط وهو الكونت الكسيس أرلوف Count Alexis Otlow

وأبدى رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا فتزود روسيا مصر بالذخائر والأسلحة والمهندسين والضباط ومن إليهم من الخبراء العسكريين وأن تزود مصر الأسطول والجيش الروسيين بالمؤن والمال. وقد رحب القائد أرلوف بهذا التقارب المصري الروسي ووعده بعرض الموضوع على

(١) بعد وفاة زوجها على بك الكبير انتقلت إلى حريم نبي الشعب بك ثم تزوجت من مراد بك وعرفت باسم نفيسة انمرادية وتعتبر أعظم شخصية نسائية ظهرت بين سيدات مصر في ذلك العصر وعاصرت الحملة الفرنسية وشلطرا من حكم محمد علي. وكنت تسمى أحياناً أم المماليك وأحياناً أخرى السلطانة. وقد جمعت إلى جانب جمالها الباهر سمواً في الأخلاق وسعة في الأفق العقلي وبرا بالفقراء ونالت مكانة مرموقة عند العلماء والأمراء والشعب وكنت تخفف من شغل زوجها مراد بك لي لترض المغارم على التجار الفرنسيين وعرفت الحكومة الفرنسية هذا الموقف فأهدتها ساعة ذهبية مرصعة بالماس قبل مجئ الحملة الفرنسية وبسطت رعايتها على كثير من نساء المماليك وغيرهن من الفقراء الذين تكبروا في حرب الفرنسيين ودفعت مغارم كثيرة من مالها فرضها الفرنسيون على المصريين ولم يستطيعوا دفعها وكنت في إحدى المرات الساعة التي أهدتها لها الحكومة الفرنسية لقدرت بأربعة وعشرين ألف فرنك وأهداها بونابرت إلى إحدى صديقاته الفرنسيات. واتهمها الفرنسيون بتبادل الرسل مع زوجها مراد بك في الصعيد وبأنها كانت تبحث إليه مع هؤلاء الرسل أموالاً، وبعد وفاة زوجها مراد وجلاء الفرنسيين لقيت شراً كثيراً من الرولة العثمانيين وبخاصة خورشيد باشا ثم لقيت أشد المحن والكوارث على يد محمد علي وصانر ما بقي عندها من ماله وعقار. ولما كتمت زوجة محمد علي من قوله أمر كرائم السيدات باستقبالها في بولاق ولكنها رفضت معتبرة بمرضها ولكن محمد علي أرغمها على الذهاب وعاشت نفيسة بقية حياتها ضعيفة تحول مبددة الثروة لم تقارفها مروتيتها وظلت على الرغم من فقرها ترضع في حدود امكانياتها الأسر الكريمة التي اخشى عليها الدهر. وقد ماتت سنة ١٨١٦ بعد وفاة زوجها الثاني مراد بك بحوالي خمسة عشر عاماً وحزن عليها الناس حزناً شديداً ودفنت كزوجها على بك في القرافة الصغرى بجوار الأنبياء الثالغى. وأخذ محمد علي بيتهما الذي كان قد شيده لها زوجها الأول على بك الكبير على بركة الأثرينية وأسكنه بعض قومه .

القيصرة كاترين. واستمر الاتصال قائماً بين علي بك والروس. الذين أرسلوا إليه أثناء حصاره لياقا في فلسطين ضابطين روسيين وبعض الأسلحة من مدافع وبنادق. وقامت وحدات من الأسطول الروسي بمظاهرة بحرية ضربت خلالها بيروت وياقا ثم أرسلت روسيا حملة بحرية برية كبيرة لنجدة علي بك وكانت تتكون من إحدى عشرة سفينة وتوابعها وتحمل قوة برية تراها ألف ومائتا جندي مجهزين بكامل أسلحتهم عدا ضباط المدفعية ولكن هذه الحملة وصلت متأخرة، إذا كان علي بك قد منى بهزيمة في الصالحية على يد مملوكه محمد بك أبي الذهب ومراد بك الذي قاد جيش أبي الذهب بعد أن وعده بمستولدة علي بك واسمها نفيسة وكانت على حظ موفور من الجمال وشغف بها مراد بك شغفاً عظيماً (١). ومات علي بك متأثراً بجراحه في مايو سنة ١٧٧٣ م .

وكانت لحركة علي بك الكبير آثارها بالنسبة لمصر فقد أصبحت لمصر في العهد العثماني شخصية ممتازة واتصلت مباشرة بالسياسة الخارجية وحاولت عقد معاهدات سياسية مع جمهورية البندقية ومع روسيا. وتهاافت لأنجليز والفرنسيون على عقد معاهدات تجارية مع الامراء المماليك لاهياء الطريق البري من جديد وقد لفتت هذه العوامل مجتمعة انظار الدولة إلى أهمية مركز مصر بين الشرق والغرب وبدأت أطماع الدول الأوروبية .

وقد فكرت النمسا على عهد الامبراطورة ماري تريزا - في السيطرة على تجارة الشرق وتحويلها إلى الطريق البري عبر مصر تحت اشرافها وكان من مؤيدي هذه الفكرة في سنة ١٧٨٢ كارلودي روسني فتصل النمسا لعهد في مصر .

أما روسيا فقد ندمت لأنها لم تستغل الفرصة التي تبيحت لها على عهد علي بك الكبير وزاد اهتمامها بمصر بعد وفاته وعينت اتصالاً لها بالإسكندرية هو اتيارون دي ثونيه Baron de Thonus وعينت إليه أن يعرض المساعدات الروسية على إبراهيم بك ومراد بك وأن يوضح لهما أن روسيا على استعداد لتأييد مصر في أية حركة تروم بها الاستقلال عن الدولة العثمانية. ويلوح أن الاضطراب الداخلي في مصر وقتئذ لم يساعد إبراهيم بك ومراد بك على الدخول في تفاصيل سياسية من هذا القبيل مع روسيا ولكن إبراهيم بك استقدم عدداً وافراً من أملاكك تروس وشعر بذلك ماجالون Magallon قنصل فرنسا العام في مصر فأرسل تقريراً مؤرخاً في (٢٧ أكتوبر سنة ١٧٨٨م) إلى حكومته قرر فيه أن الروس يزنون بإبصارهم إلى مصر وأنه إذا استمر سلطان تركيا عاجزاً عن كسر شوكة المماليك وبقي المماليك مستأثرين بالنفوذ الأول في مصر فإن الروس سينجحون في عقد تحالف مع المماليك كخطوة أولى لسيطرة الروسية على مصر. ولما قتل قنصل روسيا في حادث اعتبر قنصل فرنسا موت زميله حادثاً سعيداً لأنه كان يرى أن القنصل الروسي القليل رجل تشيط خطير . أما اطماع فرنسا وانجلترا في مصر فستبين في خلال هذه الدراسة .

أما آثار حركة علي بك الكبير في مصر فقد اطلحت بنفوذ الدولة العثمانية في هذه الولاية حيناً من الزمن على عهد علي بك الكبير إذ نجح في عزل الوالي العثماني وطرده ولم يسمح للولاة العثمانيين بدخول مصر وضعفت الاوجقات العثمانية ما عدا لوجاق المستحفظين الذي كان يقوم بعمل الشرطة .

وإن يود فشل حركة علي بك الكبير ووفاته إلى استعادة الدولة العثمانية نفوذها المقنود في مصر بل إزداد الامراء المماليك احتيماً بقوتهم وتجاهلوا الوالي العثماني ولم تعد قوة مصر الحربية تتمثل إلا في المماليك فإن محمد بك أبا

الذهب (١) الذي خلف على بك اعترف بولائه للسلطان وأرسل إليه الخزينة كما بعث معتادات الأستانة وأموال الحرمين . ولكنه سار على نهج الأمراء السابقين وشل نفوذ خليل باشا الوالى العثمانى . وفى هذا يقول الجبىرى "أن سنة ١١٨٨هـ (١٧٧٣) استهلت ووالى مصر خليل باشا محجوز عليه ليس له فى الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب" ثم لم يلبث أن عزل أبو الذهب فى مدة حكمه القصير خليل باشا الوالى العثمانى ووضع مكانه التابلىسى باشا واضطر السلطان أن يرسل فرماناً يقر فيه هذا التغيير .

وبدأت تجيش فى نفس محمد أبى الذهب أطماع تستهدف التوسع الإقليمى ومد نفوذ إلى فلسطين فعرض على الحكومة العثمانية أن يحارب الشيخ ظاهر العمر حليف على بك الكبير وكان قد غدا حاكماً على فلسطين . واذنت له الحكومة العثمانية وخرج أبو الذهب فى مارس ١٧٧٥ بجيش يتكون من ستين ألف جندى مزودين بثقى الأسلحة واستولى على غزة والرملة وياقا وعكا التى فرمها ظاهر العمر . وكان السلطان قد أصدر

(١) محمد لبر الذهب من ممالك على بك الكبير اشتراه على بك فى سنة ١١٧٥ وعينه خازن دار وصحب سيده على بك إلى احجاز فى سنة ١١٧٧ لأداء فريضة الحج وهناك احتقه على بك واطلق لحيته عند بئر زمزم . وكان المماتيك يرخون لحاهم عند اعتقاهم ولما عاد إلى القاهرة رأى أبى رتبة أمير صنجق فى نفس العام واقم له الحفل التقليدى الذى يقام للامراء الصنجاقي وارتنى الخلعة الخاصة بهذه الترتبة ووزع عسلات ذهبية بمثابة اكراميات (بقشيش) وبعد الحفل أخذ ينثر الذهب على الفقراء وهو فى طريقه من القلعة حتى بلغ منزله لعرف بأبى الذهب واشتهر عنه هذا اللقب وطابت نفسه لهذه التسمية فكان لا يضع فى جيبه إلا الذهب ولا يعطى إلا الذهب ويقول أنا أبو الذهب فلا أمك إلا الذهب .

وكان هو قائد الحملات العكسرية التى وجهها على بك الكبير إلى احجاز والشام وله عدة منشآت أهمها مسجد المجاور للجامع الأزهر ومدرسته الملحقة بجامعه ولكن اسمه يظل مقروناً لى التاريخ بالغر وخيانة سيده وولى نعمته على بك الكبير .

قرماناً بتأمير أبى الذهب على الشام ومصر ولكن سرعان ما أصيب أبو الذهب بالحمى وجزا إلى ربه فى سنة ١٧٧٥ ووقفت مشروعاته التوسعية بهذا الموت الفجائى وعاد جيشه يحمل جثته إلى القاهرة حيث دفن فى مسجده المعروف بجوار جامع الأزهر .

وبوفاة أبى الذهب تنازع الحكم فى مصر حزبان من المماليك تزعم الحزب الأول إبراهيم بك ومراد بك وتزعم الحزب الثانى إسماعيل بك وتاريخ مصر من وفاة أبى الذهب حتى بدء الغزو الفرنسى هو فى الحقيقة صورة دامية للنزاع على السلطة والنفوذ بين المماليك والسعى لاغتصاب أموال المصريين والمغالة فى الظلم والقسوة وما صحب ذلك من اضطراب الامن وانتشار الاوبئة والمجاعات على الرغم من توفر الحبوب فى البلاد ولكن المماليك كانوا يحتفظون بها لانفسهم وقواتهم المسلحة فحسب .

استمرت الحرب سجالاً بين حزبي المماليك وتبادل الحزبان الهزيمة والانتصار فقد تغلب اسماعيل بك أول الأمر وطرد إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد ولكن لم يلبث أن استرجع هذان الأميران مركزهما فى القاهرة فى سنة ١٧٧٩ ويهنا هنا أن نذكر أن إبراهيم ومراد أستوليا على موارد البلاد ثم انتهى بهما الأمر إلى الامتناع عن ارسال الجزية بحجة أن إيرادات الحكومة لا تكاد تفى بنفقات الإدارة. وترامت الاتيأ إلى الدولة العثمانية أن هذين الأميرين يجدان تشجيعاً من روسيا فى سياستهما تمهيداً لفصل مصر عن الدولة العثمانية. وازاء ذلك قرر السلطان عبد الحميد الأول ارسال حملة إلى مصر لكسر شوكة المماليك واسترجاع نفوذ الدولة فى مصر. وكانت الحرب التركية الروسية قد وضعت أوزارها بعقد معاهدة كينارجى سنة ١٧٧٤ وبدأت تنفرغ الدولة العثمانية لتصفية حسابها مع الخارجين عليه وكانت قد اعادت تنظيم السلاح البحرى التركى فتمكنت من النضال بنجاح

بعد الشيخ ظاهر العمر ومحاصرة عكا حتى قتل الشيخ ظاهر. ثم التقت
سلطان إلى مصر فأرسل في ابريل سنة ١٧٨٦ رسلاً إلى مصر يطلب من
ملك دفع الجزية المتأخرة وإرسال مرتبات الحرمين من الغلال والأموال
إذ إنشأ أن وفوجي المماليك بوصول حملة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا
بزاز إلى الإسكندرية في أواخر شهر يونيو سنة ١٧٨٦. ونجح حسن
باشا مؤقتاً في إبعاد مراد بك وإبراهيم بك عن الحكم إذ هربا إلى الصعيد
وقتل حسين باشا في اخضاع الصعيد ولكن من يدل على ضعف الدولة
العثمانية أن هذا النجاح الموقت لم يتم إلا بموازرة بعض الأمراء المماليك له،
كما أنه لما نجح في إقصاء إبراهيم بك ومراد بك عن حكم مصر لم يعط
السلطة للوالي العثماني بل وضعها في يد أمير مملوكي هو إسماعيل بك
يضاف إلى ذلك أن هذا النجاح كان نجاحاً جزئياً لأن حسن باشا الجزائري
عاد واتفق مع إبراهيم بك ومراد بك على أن يحكما المنطقة من يردس على
مقربة من جرجا حتى شبلا أسوان. وعين إسماعيل بك شيخاً للبلاد وحسن بك
الجدوى أميراً للحج.

واستباح حسن باشا الجزائري أموال إبراهيم بك ومراد بك وأخذ
نساءهم وأولادهم أسرى واعتبرهم أرقاء لبيت المال وذهب إليه وقد من علماء
الأزهر وقال له الشيخ السادات هل أتيت إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم
كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم...؟ فقال له
القبطان : هؤلاء أرقاء بيت المال فقال الشيخ : "هذا لا يجوز ولم يقل به أحد
فتأثرت ثائرة حسن باشا الجزائري واستدعى كاتب الديوان ليكتب له أسماء
اولئك العلماء واتهمهم بأنهم خارجون على السلطان ولكن لم يجد هذا التهديد
إذ قال له أحد العلماء أنهم مستعدون لكتابة اسمائهم بأيديهم. واضطر
الجزائري باشا أن يترك بيع نساء المماليك واطفالهم ولما علم حسن باشا

الجزائري أن مراد بك قد ترك وديعة عند الشيخ السادات طبيباً منه ولكنه امتنع وقال أن صاحبها لم يمتهن ولا اسلفياً لغيره ما دام حياً .

وفكرت الحكومة العثمانية في طريقة أخرى لإضعاف المماليك تمهيداً للقضاء عليهم وذلك بمنع وصول ممالك جدد إلى مصر عن طريق البوسفور ولكن هذه الفكرة لم تنفذ وتبين عدم جدواها إذ كن في استطاعة الأمراء المماليك استخدام ممالك عن غير طريق البوسفور .

ولم يطل المقام بحسن باشا في مضر إذا استدعته الحكومة العثمانية بسبب قيام الحرب ضد روسيا في سبتمبر سنة ١٧٨٧ ولم تستمر حالة الاستقرار التي أوجدها حسن باشا فقد توفي إسماعيل بك في وباء الطاعون وعاد الحال إلى ما كان عليه من قبل من تنازع الأمراء على الحكم. وعاد إبراهيم بك ومراد بك من الصعيد إلى القاهرة في يوليو ١٧٩١ وخضعت مصر لحكم ثنائي تولاه إبراهيم بك ومراد بك. وكان أولهما رجلاً سياسياً ذا دهاء وكان الآخر رجلاً عسكرياً فاتفقا على أن يختص إبراهيم بك بالمسائل الإدارية والسياسية بينما ينفرد مراد بك بالمسائل الحربية فكان الرجلان يكملان بعضهما بعضاً واقتسما حكم مصر على هذا النحو : إبراهيم بك شيخاً للبلاد ومراد بك أميراً للحج إلى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر في صيف عام ١٧٩٨ وظهرت اخلاق الرجلين بوضوح عند قدوم هذه الحملة فأبراهيم هرب إلى الشام ووقف مراد في وجه القوات الفرنسية .

من أهم مراجع هذه الدراسة

- ١ - ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ج ٣ مصر سنة ١٣١٢هـ.
- ٢ - ابن زنبيل : تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى سلطان مصر واعمالها - مصر ١٢٨٧هـ.
- ٣ - عبد الرحمن الجبوتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٤ أجزاء (الجزء الأول)
- ٤ - عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جزاءن - القاهرة ١٩٢٩. الجزء الأول.
- ٥ - محمد رفعت رمضان : على بك الكبير .
- ٦ - إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة.
- ٧ - حسن عثمان : مصر العثمانية فصل فى كتاب المجلد فى التاريخ المصرى ألفه بعض اعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب القاهرة : ١٩٤٢ .
- ٨ - كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (مطبعة بيروت) .
- ٩ - شارل ديبل : البندقية جمهورية ارستقراطية ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر .
- ١٠ - محمود الشرفاوى : مصر فى القرن الثامن عشر .

11 - Etienne combe .

L' Egypte ottomane, de la conquete par Selim (1517) a l' arrivee de Bonaparte 1798 .

preis de - l' Histoire d' Egypte .

Tome Troisieme . Premiere partie .

المحتويات

	صفحة
٥	المصادر
	المماليك
٢٩	بداية ظهور المماليك في العالم الإسلامي
	قيام دولة المماليك
٣٦	نهاية الدولة الأيوبية في مصر
٤١	شجر الدر أولى سلاطين المماليك
٤٣	الملك المعز عز الدين أيك التركمانى
٤٤	أولاً : الخطر الأيوبي
٤٦	ثانياً : ثورة العربان في صعيد مصر
٤٧	ثالثاً : خطر التنافس بين أمراء المماليك
٤٩	السلطان الملك المنصور نور الدين على بن أيك
٥٢	المظفر سيف الدين قطز
٥٨	السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى
٦١	بيبرس و احياء الخلافة العباسية في مصر
٦٥	بيبرس والمغول
٦٧	علاقة بيبرس بفرع خانات فارس
٦٩	جهود بيبرس ضد الصليبيين
٧٣	منشآت بيبرس
٧٤	أولاد بيبرس

صفحة

٧٦	المنصور سيف الدين قلاوون المنفى
٧٨	علاقة المنصور قلاوون بالمغول
٨٠	علاقة قلاوون بمغول القفجاق
٨٠	علاقة قلاوون بالصليبيين
٨١	منشآت قلاوون
٨٢	الأشرف خليل بن قلاوون
٨٤	الأشرف خليل والصليبيين
٨٥	علاقة الأشرف خليل بمغول فارس
٨٥	السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الأولى]
٨٥	السلطان العادل زين الدين كبتغا
٨٧	السلطان المنصور حسام الدين لاجين
٨٨	السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثانية]
٩١	الناصر محمد بن قلاوون ومغول فارس
٩٢	الناصر محمد بن قلاوون والأعراب
٩٣	السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير
٩٤	السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثالثة]
٩٧	أولاد الناصر محمد وأحفاده ونهاية دولة المماليك البحرية
١٠١	ابناء الناصر محمد
١٠٤	١ - الأمير ناصر الدين أتوك
١٠٤	٢ - المنصور سيف الدين أبي بكر
١٠٤	٣ - الأشرف علاء الدين كجك
١٠٥	٤ - الناصر أحمد

صفحة

- ١٠٥ - الصالح إسماعيل
١٠٥ - السلطان الكامل شعبان
١٠٥ - المظفر زين الدين حاجي
١٠٦ - السلطان الناصر حسن [سلطنته الأولى]
١٠٦ - السلطان الصالح صلاح الدين
١٠٦ - السلطان الناصر حسن [سلطنته الثانية]

أحفاد الناصر محمد

- ١٠٨ - صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محم
١٠٨ - الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان
١٠٩ - المنصور علاء الدين علي
١٠٩ - السلطان الصالح زين الدين أمير حاج
١٠٩ حملة بطرس لوزجان علي الأسكندرية
١١٣ دولة المماليك الجراكسة
١١٨ خصائص ومميزات دولة المماليك الجراكسة
١٢١ السلطان الظاهر برقوق
١٢٧ السلطان الناصر فرج بن برقوق
١٣٠ الخليفة المستعين العباسي
١٣١ السلطان المؤيد شيخ المحمودي
١٣٢ الظاهر ططر
١٣٣ الصالح محمد

صفحة

١٣٣	السلطان الأشرف برسبای
١٣٣	الأشرف برسبای والمغول
١٣٥	الأشرف برسبای وقبرص
١٤٠	السلطان العزيز يوسف بن برسبای
١٤٠	السلطان الظاهر جقمق
١٤١	الظاهر جقمق والمغول
١٤٢	الظاهر جقمق وجزيرة رودس
١٤٦	المتصور عثمان
١٤٦	الأشرف إينال
١٤٨	المؤيد أحمد بن إينال
١٤٨	الظاهر خوشقدم الرومی
١٤٩	الظاهر بلبای المحنون
١٤٩	الظاهر تمریغا الرومی
١٤٩	الظاهر خير بك
١٥٠	الأشرف قايتباي
١٥١	الأشرف قايتباي والدول التركمانية
١٥٥	السلطان قايتباي والعثمانيين
١٥٧	سياسة قايتباي الداخلية ومنشأته
١٥٩	الناصر محمد بن قايتباي
١٥٩	قانسود خمسمائة
١٦١	الظاهر قانسود الأشرفي
١٦٢	السلطان الأشرف جانبلاط

	صفحة
١٦٢	السلطان العادل طومان باى (الأول)
١٦٣	الأشرف قانصوه الغورى
١٦٥	قانصوه الغورى واليرتغاليون
١٧١	قانصوه الغورى والعثمانيون
١٧٨	الأشرف طومان باى
١٨٤	تاريخ الدولة العثمانية
١٩٠	نشأة الدولة العثمانية
١٩٣	العلاقات العثمانية - المملوكية
٢١٠	النظم العثمانية فى مصر
٢١٠	الوالى
٢١٣	المماليك
٢١٦	الحامية العسكرية العثمانية
٢٢٠	الديوان
٢٢٢	القضاء
٢٢٥	الإدارة المالية
٢٢٨	الزراعة
٢٣٩	الصناعة
٢٤٥	التجارة
٢٥٦	المجتمع فى مصر ايان الحكم العثمانى
٢٦٣	استثمار المماليك بالنقود

رقم الايداع ١٠٢٧٦/٩٥

الترقيم الدولي 5 - 089 - 245 - 977

 **Biblioteca Mexicana**

0203363